أوراق

حرية التعبير دون قيد او شرط

كانون الأول 2023

العدد: الحادي والعشرون

الثقافة والأدب في زمن التحولات الكبرى

مجلة تعنى بشؤون الفكر والثقافة والإبداع

تصدر عن رابطة الكتّاب السوريين

رابطة الكتّاب السوريين
SYRIAN WRITERS ASSOCIATION
حرية الفكر، حرية التعبير

رابطة الكتّاب السوريين
SYRIAN WRITERS ASSOCIATION
حرية الفكر، حرية التعبير

أوراق
حرية التعبير دون قيد او شرط

العدد: الواحد والعشرون

ديسمبر ٢٠٢٣

مجلة تعنى بشؤون الفكر والثقافة والإبداع

صادرة عن: رابطة الكتاب السوريين

www.syrianwa.net

رئيس التحرير: أنور بدر

مدير التحرير: محمد زعل السلوم

المدير الفني: حسين الضاهر

هيئة التحرير

ناهد بدوي - سوزان خواتمي
أحمد خميس - عبد الناصر حسو
حسين جرود

الهيئة الاستشارية

أمل فارس - خطيب بدلة
زويا بوستان - سلام كواكبي
عبد الرحمن مطر - فرج بيرقدار
موفق نيربية - وائل السواح

المراسلات باسم رئيس تحرير مجلة أوراق على البريد الإلكتروني:

awraq@syrianwa.net

صفحة الرابطة في موقع فيس بوك:

www.facebook.com/syrian-writers-association

فهرس العدد

افتتاحية العدد	أنور بدر (رئيس التحرير)	5
أوراق الملف		
عن المثقف والسياسي... والسوريين	موفق نيربية	10
الكتابة والحرية: سيميائيات المفارقة المغايرة	جمال الشوفي	44
إشكالية الثقافة العربية المعاصرة وآفاقها المستقبلية	د. عبد الله تركماني	55
أوراق حقوق الإنسان		
نقد وتطوير فكر عصر التنوير.. التعددية ترتقي بحقوق الإنسان	ناهد بدوية	66
أوراق الشعر		
توت الشام	تهامة الجندي	74
خيانات	**حسن شهاب الدين**	75
اللوحة الصامتة	ناريمان حسن	77
تراتيل	**غمكين مراد**	79
أوراق القصة		
لا توت في هذه البلاد	**موسى رحوم عباس**	83
عصر الديناصورات	**سوزان خواتمي**	86
السيدة أمل	**لجين فهد حمزة**	89
بعد ساعة واحدة	**حسن رحيم**	95
أسى	**ناسان إسبر**	97
أوراق النصوص		

سجون ومخيمات وعشاق ولاجئون.. على وقع الذكريات وتفسير الرؤى	وحيد نادر	100
والدي سيدي.. بعض من سيرة ضابط علوي سوري بعثي	ياسر نديم سعيد	104
أوراق المسرح والفنون		
ميديا.. الشخصية التي يخشاها العالم	عبد الناصر حسو	111
الفن البديل في حركة الغناء العربي: هل هو أضغاث أوهام أم شعارات انقلابية؟	محمد منصور	122
أوراق النقد		
"رقصة الشامان الأخيرة" لـ عبد الرحمن حلاق.. الثورة شجرة مضيئة	حسان العوض	129
ظاهرة الكتّاب السفراء في الأدب الفلسطيني: منجد صالح نموذجاً	فراس حج محمد	134
أوراق الترجمة		
مادتان عن الحرب: ١- حربان مرهقتان: المجال الضعيف ٢- أشكال السرد ووقت طويل في كتابة الحروب الأهلية في سوريا ولبنان	ترجمة: إبراهيم محمود	139
القارئ هو المهم.. في الفضاء الميتافيزيقي للأدب	ترجمة: حسين جرود	188
أوراق التشكيل		
مجلة أوراق تحاور النحات والفنان التشكيلي "عمر إبراهيم" ابن مجدل شمس المقيم في بايون – فرنسا	حاوره: محمد زعل السلوم	197
ملحق أوراق		
ديوان اغتصاب	فواز قادري	214
قواعد النشر في مجلة أوراق		273

افتتاحية العدد

الثقافة والأدب في زمن التحولات الكبرى وعلاقتهما بالحريات وحقوق الإنسان

أنور بدر
رئيس التحرير

نستطيع القول أنّ رابطة الكتاب السوريين شكّلت إطاراً حراً ومنصة للشعراء والكتاب والمفكرين والأدباء والفنانين السوريين الأحرار الطامحين إلى سوريا جديدة، وإلى نظام ديمقراطي مدني تعددي، يتيح أوسع الفرص للطاقات الإبداعية الأدبية والفكرية في سوريا.

في الحديث عن الثقافة والأدب وعلاقتهما بالحريات عموماً وحقوق الإنسان يبرز السؤال حول الدور الوظيفي وفق تعبير غرامشي لتلك الشريحة من المثقفين والكتّاب، والتي ربطها سارتر بتعريف المثقف باعتباره: "صاحب الموقف الملتزم والمنحاز إلى القيم والعدل والحق والنيات الحسنة، قبل أن يكون تقنياً ومتخصّصاً بأحد فروع العلم أو فناناً"[1].

بينما يرى إدوارد سعيد أن "دور المثقف عموماً جدلي ومتناقض وهو أن يكشف ويوضح الصراع، وأن يقهر الصمت المفروض بالقوة والهدوء المطيع للسلطة الخفية أينما كانت وكلما كان ذلك ممكناً"[2].

فماذا عن المثقف أو المثقفين السوريين؟ ولماذا تلكأ بعضهم في الانضمام إلى ركب المحتجين في ساحات المدن والأرياف، أو حتى في التعبير عن التضامن مع المحتجين ضد نظام الاستبداد والفساد وللمطالبة بالحرية والعدالة الاجتماعية؟

هذا السؤال يُعيدنا بالضرورة إلى طبيعة الأنظمة الشمولية التي صادرت كل الحريات والحقوق في بلدانها وبشكل خاص ما يتعلق منها بالعمل السياسي ومنظمات المجتمع المدني كالنقابات والجمعيات والنوادي العامة، تلك البنى التي تشكل شرايين الحياة لأي مجتمع حي، فلا نقابات حرة أو مستقلة ولا اتحادات مهنية في سوريا،

---

[1] - جان بول سارتر، دفاع عن المثقفين، ترجمة جورج طرابيشي، بيروت: دار الآداب، ١٩٧٣، ص ٥٨.
[2] - إدوارد سعيد، خيانة المثقفين، النصوص الأخيرة، ص٢٩٧.

حتى النوادي الثقافية والرياضية أتبعت لسلطة وهيمنة الحزب الواحد القائد للدولة والمجتمع، كما جرّمت هذه السلطة كل من يجرؤ على المطالبة بالتغيير أو حقوق التعبير وحقوق الإنسان عموماً، باعتبار ذلك تجاوزاً لخصوصيتنا الثقافية والحضارية، وإعاقة لأهداف الثورة وفق نص المرسوم ٦ من قانون العقوبات.

نقول ذلك ليس من باب التنديد ببعض المثقفين الذين تلكأوا بالانحياز لقضايا شعبهم، بل لنُشير إلى أهمية تلك الأصوات المبكرة التي أعلنت موقفها كتحدٍ لسلطة الاستبداد في سوريا، حين وقّعوا على بيان "الحليب لأطفال درعا"، أو دَعوا أو شاركوا في تظاهرة المثقفين في حي الميدان بدمشق، خلال الأشهر الأولى من عمر الانتفاضة، لكن الخطوة الأهم بدأت مع مطلع عام ٢٠١٢، وقبل أن تُكمل انتفاضة السوريين عامها الأول، بالإعلان عن ثلاث مبادرات رائدة لتشكيل "رابطة الكتّاب السوريين"، تلاها الإعلان عن "تجمع التشكيليين السوريين المستقلين"، ومن ثُمّ أعلن عن تأسيس "رابطة الصحافيين السوريين"، وأهمية هذه المبادرات أنها مستقلة وشكّلت تحدٍ لسلطة الحزب الواحد وتمثيله لكل السوريين ومثقفيهم تحديداً.

ولن يتسع المجال في هذا التقديم للحديث عن المنجز الإبداعي شعراَ ونثراً، أو تشكيلاً وموسيقا وغناءً، ومطبوعات ومواقع إعلامية، والذي سبقت الإشارة إليه في أغلب أعداد أوراق تقريباً، بل سنكتفي الآن بالتوقف مع الجانب المتعلق بمأسسة العمل الثقافي بشكل مستقل عن سلطة البعث ودولته الشمولية، فنقتبس من البيان التأسيسي لرابطة الكتّاب السوريين والذي أعلن في النصف الأول من كانون الثاني/ يناير ٢٠١٢:

"نحن مثقفو سوريا المتنوعو الأصول والمشارب، نعتزم تأسيس رابطة للكتّاب السوريين الأحرار، تُعبّر عن مشاركتنا في الثورة السورية، وعن شعورنا بالحاجة إلى إطار ديمقراطي ومستقل لعموم الكتّاب السوريين، يُعبّر عن الواقع الجديد لسوريا التي تولد الآن في شوارع الحرية، عبر تأسيس الرابطة اليوم نعمل على أن تستعيد الثقافة دورها التغييري والنقدي والمحرر، ويستعيد المثقفون استقلالهم وقدرتهم على المبادرة والتجديد الفكري والجمالي والأخلاقي، وأن نضع أنفسنا في صف شعبنا والدفاع عن حريات مواطنينا وحقوقهم ووحدتهم"[1].

الآن وبعد مضي أكثر من ١١ عاماً على صدور هذا البيان، وبغض النظر عن مآلات الأحداث في سوريا، وعما عاشته الرابطة من صعوبات أيضاً، نستطيع القول أنّ رابطة الكتّاب السوريين شكّلت إطاراً حراً ومنصة للشعراء والكتّاب والمفكرين والأدباء والفنانين السوريين الأحرار الطامحين إلى

[1] - https://www.syrianwa.net/2012/01/17/%D8%A7%D9%84%D8%A8%D9%8A%D8%A7%D9%86-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%A3%D8%B3%D9%8A%D8%B3%D9%8A

سوريا جديدة، وإلى نظام ديمقراطي مدني تعددي، يتيح أوسع الفرص للطاقات الإبداعية الأدبية والفكرية في سوريا.

واليوم مع إصدار العدد ٢١ من مجلة "أوراق" نؤكد على استمرارية مأسسة وتطوير رابطة الكتاب السوريين، إثر الانتخابات الأخيرة التي أفرزت أمانة عامة جديدة ومكتباً تنفيذياً جديداً للرابطة، وأنهت تشكيل اللجان الفرعية، بما فيها هيئة تحرير أوراق التي ما زالت تعمل هي وهيئات الرابطة الأخرى بشكل تطوعي، مما يؤكد أهمية دور هذه الشريحة من المثقفين والكتّاب السوريين، والذين يعطون من جهدهم ووقتهم رغم صعوبات الحياة في سوريا ورغم تراكم الخيبات في المنطقة، مما يجعلنا نكرر أنّ "السوريين ما زالوا بخير" وما زالوا قادرين على فتح طاقة للأمل باتجاه غدٍ أفضل.

وقد حرصنا في هذا العدد الجديد على التذكير بمواقف مبكرة للمثقفين السوريين تعود إلى سبعينات وثمانينات القرن الماضي، حيث كتب الصديق موفق نيربية دراسة مهمة بعنوان "عن المثقف والسياسي والثوري... والسوريين" استقصت ذلك الدور الريادي قبل اندلاع احتجاجات الربيع العربي، واستطعنا منح هذا الموضوع حيزاً أكبر لتوثيق تلك المرحلة التي لم يعشها أو يواكب مجرياتها جيل مهم من السوريين، كذلك الأمر أشير إلى مادة د. جمال الشوفي بعنوان "الكتابة والحرية: سيميائيات المفارقة المغايرة"، وكذلك مادة د. عبد الله تركماني بعنوان "إشكالية الثقافة العربية المعاصرة وآفاقها المستقبلية"، وهناك مادة مترجمة مع تقديم للصديق إبراهيم محمود بعنوان "مادتان عن الحرب" مقارنة بين ما جرى في الحرب الأهلية اللبنانية وما جرى في سوريا، إضافة لكمٍّ من المواد الإبداعية المميزة في الشعر والقصة والنصوص وفي النقد الأدبي وفي المسرح والغناء البديل أيضاً، كما نشير إلى أهمية الحوار مع الفنان التشكيلي والنحات الأكاديمي عمر إبراهيم ابن مجدل شمس المحتلة والمقيم حالياً في بايون/ فرنسا، مع كامل الشكر له مشاركتنا عديد لوحاته التي زينت الغلاف وبعض صفحات هذا العدد.

كما نستمر بإمكانيات مجلة أوراق على إصدار ملاحق كتب في الإبداع الأدبي، فإننا في هذا العدد، نضيف ملحقاً مميزاً، وهو ديوان شعر جميل للصديق الشاعر فواز قادري بعنوان "اغتصاب... أتون الجحيم".

وبالعودة إلى علاقة الثقافة بحقل الحريات العامة وحقوق الإنسان، نؤكد أنه كان موجوداً بشكل مستمر في عملنا ضمن رابطة الكتّاب السوريين وضمن اهتماماتنا في مجلة أوراق، لكننا نبدأ مع هذا العدد الجديد بمنح حيّز مهم ومستقل في مجلة أوراق لهذا الموضوع، بدأته زميلتنا ناهد بدوية ببحث جميل بعنوان "**نقد وتطوير فكر عصر التنوير**"، على أن يكون لنا في كل الأعداد القادمة باب مستقل لأوراق حقوق الإنسان، أسوة بباقي ملفات أوراق البحثية والإبداعية، مع اهتمام مستمر لتطوير الجانب الفني والرؤية البصرية لمجلة "أوراق" ضمن حدود إمكانياتنا، بهدف تحقيق وصول "أوراق"

افتتاحية العدد

لأكبر شريحة ممكنة من القراء، مع شكر خاص لزميلنا حسين الضاهر لجهوده الواضحة في هذا العدد.

ونذكّر كالعادة بأن كل المساهمات التي في هذا العدد هي تطوعية، لغياب أي تمويل لمجلة أوراق ومن أي جهة كانت، لذلك نحن ندين بالشكر والعرفان لجميع الزملاء المشاركين في هذا العدد تقديراً لجهودهم، وننوه بشكر إضافي للأصدقاء والزملاء الذين يُصرّون رغم صعوبة الظرف العامة، على المشاركة بشكل مستمر. لأننا ندين لهؤلاء المبدعين والمثقفين في نجاح مجلة "أوراق" وفي استمراريتها.

أوراق الملف

موفق نيربية
سياسي وكاتب سوري
رئيس المنتدى الأوروبي السوري الديمقراطي

عن المثقف والسياسي والثوري... والسوريين

حين كان جورج أورويل يحاول إقناع ناشره بكتابه الشهير حالياً "1984"، وجّه إليه رسالة قال فيها: هذا الكتاب محاكاة ساخرة لـ "العواقب الثقافية للشمولية". وباعتبار أن الثقافة السورية تعاني من مثل تلك العواقب منذ زمن طويل، فإن من الضروري تناولها وتناول المثقفين عموماً، والسوريين منهم خصوصاً، في علاقتهم مع السياسة والثورة والناس، وهذا موضوع هذه المقالة.

> إنه شخص رفيع الذكاء، يعطي قيمة أعلى للأشياء المتعلّقة بالعقل أو لأشكال المعرفة وحقولها الأشدّ تعقيداً مثل الجمال والفلسفة، وأيضاً في حقل تجريدي وعام. بطبيعته لا يستطيع المثقف الاستمرار بالتعالي أو التسامي عن الواقع الموضوعي، لأنّه يعيش فيه.

أولاً- العداء للثقافة:

هنالك شعبويّون شعبيون معادون للثقافة أحياناً، ويتعاملون معها ومع ممثّليها بحذر أو رهبة أو احترام أحياناً أخرى. لكنّ هنالك مثقفين شعبويين أيضاً، يحاربون الثقافة و"النخبة المثقفة" بما يستحقان، وبما لا يستحقان. أشكال الشعبوية الدينية والقومية والطائفية والعشائرية والمناطقية كلّها تتبرّم بالثقافة والفكر والتفكير عموماً.

قام نظام الخمير الحمر في كمبوديا بين عام 1975 و1979، بإزالة وقتل كلّ المتعلّمين الكمبوديين في مجزرته الشهيرة ابتداءً من "العام صفر- 1975"

كما سمّاه، ورأى فيه فجر عصر لا توجد فيه أسرة، ولا مشاعر، ولا تعبيرات عن الحب أو الحزن، ولا أدوية، ولا مستشفيات، ولا مدارس، ولا كتب، ولا تعلم، لا عطلات ولا موسيقى ولا أغنية ولا وظيفة ولا مال - فقط العمل والموت، والعمل في الزراعة والريف حصراً. كان نوعاً متطرّفاً من الهندسة الاجتماعية، قتلت سلطة بول بوت فيه بشكل استباقي المعارضين المحتملين، خصوصاً في فئة المثقفين، وألغت التصنيع، والمهنيين الحضريين من أهل المدن، ومن له صلة- أي صلة- بالخارج.

لتلك الآليات ما يماثلها ويشبهها كثيراً أو قليلاً في العالم، من الاتّحاد السوفييتي حيث حورب جماعة "الثقافة البروليتارية" و"المستقبلية" منذ السنوات الأولى لثورة أكتوبر التي كان هؤلاء من أخلص الناس لها بجوهرها، وألمانيا الهتلريّة التي أنذرت الفكر والثقافة وأهلهما منذ صعود هتلر بليالي حرق الكتب واحتفالاتها الهمجية، أو من خلال أمثولة غوبلز الذي قال إنه يفكّر بسحب

مسدّسه كلّما سمع كلمة "ثقافة"، إلى إسبانيا فرانكو والأرجنتين التي قام البوليس فيها بتطهير الأكاديميين الخطرين في "ليلة الهراوات الطويلة" عام ١٩٦٦...

خلاف ذلك الشغل المباشر القمعي، كان ولا زال هنالك جهد "مثقف" يخالط "الشعبوي"، للحدّ من تأثير المثقفين والمفكّرين، وكان لهذا الجهد بعض ما يبرّره بالطبع حتى لا نغالي. في كتابه المعروف "المثقفون- من ماركس وتولستوي إلى سارتر وتشومسكي" ذكر بول جونسون صفات المثقف على الشكل التالي:

"الغضب والعدوانية والعنف. الجبن. القسوة. الخداع والغشّ. الإيغو النامية والتمحور على الذات. النفاق. الجحود والفظاظة. التعصب وكراهية البشر. حب السلطة والسعي للنفوذ. التلاعب والاستغلال. المناكدة والمناكفة. خداع الذات، القناعة المباشرة بإيجابية أو سلبية الآخرين. الأنانية والقسوة. المظلومية وتطلّب الشفقة. هو على حق دائماً. هو ثابت واسفنجي. متغطرس. مغرور".

هذا نموذج نادر ولكننا نراه أحياناً: أن يكون هنالك مثقّف- أو مفكّر- مضاد للثقافة والمثقفين، ويحاول أن يجعلهم سبباً للانتكاسات وأشكال الفشل المختلفة. واحد من هذين الطرفين يخدم السلطة المستبدّة بالأمر. هذا نوع آخر من "السلطة" يناهض الثقافة والمثقفين والمفكّرين وينبذهم ويسخر منهم ويدعو إلى الاستخفاف بهم. هو يرى فيهم دوافع سياسية مناهضة للسائد والقديم حتى وهم صامتون، لذلك يربّي بدوره نوعاً من "الزلم" المروّجين للشعبوية المحتقرة للثقافة، وللمثقفّين خصوصاً: "تسقط النخبة" انطلاقاً من "تسقط النخبوية"، التي تسببت بالفقر والاستعمار... والمعارضة، والثورات. أولئك المروّجون للعداء للفكر- اقرأ: الوعي- يصوّرون أنفسهم كأبطال، ثوريين، بل "ثورجيين" حين تُعجزهم اللغة السليمة.

في القرن الأخير خصوصاً، ذلك النوع من السلطات المستبدّة حارب المثقفين ليس لثقافتهم، بل لأنه يرى بحسّه الحربي البدائي فيهم بؤرة للمناهضة السياسية له، خطراً وجوديّا عليه. وإلّا فلماذا أبعدت السلطات التشيكية فاتسلاف هافل ونبذته لسنوات طوال، حتّى استعادته الثورة المخملية رئيساً للبلاد لعشر سنوات؟!

ثانياً- المثقف وعلاقته بالنقد والسياسة:

لو لم يرَ بول جونسون بعض الظواهر لدى بعض المثقفين والمفكّرين لما جرؤ على إعداد تلك القائمة التي كادت أن تكون فجوراً. وإحدى أقلّ تلك الخصائص فجوراً تهمته الجاهزة لهؤلاء بحبّ السلطة والسعي للنفوذ، وربّما أيضاً فرحهم كأطفال يستحوذون على أشيائهم، حين يتاح لهم ممارسة السلطة: سلطة السلطة أو سلطة المعارضة، لا فرق.

التعريفات مزعجة حتماً، ومدرسية أو أكاديمية، ولكن لا يُستغنى عن التذكير بها كما هي، أو كما يراها الكاتب ويلوي عنقها أيضاً، مستغلّاً كثرتها وتنوّعها. لذلك لا بأس- غالباً- بالمرور على مفاهيم "المثقف" و"المفكّر" والفرق بينهما؛ و"السياسة" وآليات التفاعل بين تلك المفاهيم أو تجلّياتها الواقعية.

مصطلح "المثقف" حديث كاسم حتى في الغرب، وليس كصفة. لكنه ليس عديم الجذور، بل يجد مترادفات مستخدمة في الهند والصين القديمتين، وفي الفكر والأدب العربي أيضاً: رجال القلم، أهل الحَرف الجميل، الأدباء، الكتّاب... وأشياء من هذا القبيل.

في أوروبا، ربّما كان أول من استخدم ذلك التعبير بهيبته كاسم، الشاعر الإنكليزي العظيم اللورد بايرون في عام ١٨١٣، حين قال ذات مرة: "كم أتمنى لوكنت أصلح لاستيعاب ما يقوله أولئك المثقفون!". لكن المصطلح لم يأخذ مكانه المعاصر إلّا في أواخر القرن التاسع عشر.

قالوا إنه شخص رفيع الذكاء، يعطي قيمة أعلى للأشياء المتعلّقة بالعقل أو لأشكال المعرفة وحقولها الأشدّ تعقيداً مثل الجمال والفلسفة، وأيضاً في حقل تجريدي وعام. بطبيعته لا يستطيع المثقف الاستمرار بالتعالي أو التسامي عن الواقع الموضوعي، لأنّه يعيش فيه. وتبقى علاقته بنقد العالم من حوله وعموماً متردّدة بين يوم ويوم، ولحظة تاريخية وأخرى. في زمن الهزّات الاجتماعية الكبيرة ينغمس مرغماً أو مختاراً، لأنه يرى ويرى الناس في "نقده" قدرات أكبر من غيره. عندئذٍ يصبح أكثر دقة القول إن المثقف هو من ينخرط في التفكير الناقد والبحث في واقع الحال، بل يقترح أيضاً حلولاً لما يُشكل في حركة المجتمع، ولما يُشكل في سكونه وخموله أيضاً.

هنا يقترب المثقف من مفهوم "المفكّر"، الذي يتمتّع بعلاقة أكثر أصالة بالواقع والموضوعي ووعيه ونقده. المفكّر رغم اسمه وسمعته أكثر علاقة بالمعلومات والإحصاءات وبالمنطق والمحاكمة والقدرة على حلّ الإشكالات المعضلة، بعد إعمال التحليل والتركيب فيها.

يحاول أندرو سويني المقارنة بشكل أقرب إلى اللعب والتبسيط، لكنه مفيد، فيقول في المقارنة ما بين المثقّف والمفكّر، إن الأول "يرى العالم من خلال التجريد، بينما يحاول المفكّر تحرير ذلك العالم من التجريد"، وأن المثقف "يسعى إلى ألعاب الصالونات الذكية المأمونة، في حين لا يأبه المفكّر بالأخطار ويقتحمها"، ويعطي المثقف للمعادلات حياة في الفكر، بينما "يغوص المفكّر حتى قلبها العميق". يتشكّك المثقف بالحواس ولا يثق إلّا بعالمه الفكري الخاص، لكن فكر المفكّر يتمتّع بشعور أكثر حدّة يكشف النقاب عن عالم حسيّ أعمق. ويضيف سويني بأناقة إن المثقّف يزدهر ويبدع في إطار مؤسّسي، بينا يفعل المفكّر ذلك في الحقول والغابات والجبال السامقة. وللمثقف ميل إلى الزخرفة والأناقة الذهنية، بينما يميل المفكّر إلى البساطة. يبحث الأول عن الانتصارات والثاني عن العزلة وجمالاتها، ولكن أيضاً عن التطبيق العملي والممارسة، ليعود إلى" فَكْرِها"(كما أحب الياس مرقص ذات مرة أن يعبّر) ... وعلى هذا المنوال.

يشيطن البيوريتاني واللاهوتي من القرن السابع عشر جون كوتون المثقفين والمثقفات بقوله: "كلما زادت معرفتك وذكاؤك، كلما كنت أكثر ملاءمة للعمل من أجل الشيطان" ... هل تسمع هنا أصداءً، دعوات وأقوال لأندادٍ وطنيين؟!

لم يأتِ ذلك العداء للثقافة والفكر وأهلهما لو لم يكن" النقد" في قلب تعريفهما. ملازماً لهما في معظم الأوقات والأحوال. لو كان المثقف المعتزل لهموم مجتمعه والإنسانية يمثّل أغلبية بين المثقفين لما حدث ذلك دائماً. ولما رأيت أيضاً ذلك المثقف التابع للسائد يسهم بدوره مباشرة بحملة العداء والتشهير بالمثقفين.

نحن والثورات الثقافية الحديثة:

كتبت مؤخّراً مقالة صغيرة عن تلك الثورات، وتناولت الثورة الثقافية في الصين ١٩٦٦-١٩٧٦، وتلك في الولايات المتحدة (وبريطانيا عملياً) في الفترة نفسها، والثورة في أوروبا الغربية ١٩٦٨. ولم أتناول الثورة المخملية في أوروبا الشرقية تشيكوسلوفاكيا خصوصا)، ولا انتفاضة شباب اليابان. ولكن هذا لن يمنعني من الإشارة هنا أيضاً إلى تلك الثورات بما يخدم هذه المقالة.

هنا لا بدّ من الإشارة إلى بعض الفروق بين مفهومي الثقافة والمثقف، كما نستعملهما في العربية. فالأولى جاءت من الفرنسية، ومنها انتقلت إلى غيرها، وكان معناها الأصلي على علاقة بالحراثة والزراعة بالتوازي مع معنى آخر قريب من التعلّم والتعليم، وذلك مدعاة للتأمّل جيداً في تلك العلاقة بين المعنيين التي جاءت بالناقل إلى استخدامها المستحدث (وتناولت هذال الأمر في مقالة لي قديمة-٢٠٠٨- بعنوان "المثقفون السوريون: فلاحون أم كهنة؟!"). الكلمة ذاتها تستخدم بمعنى "الحضارة"، التي هي مجمل الفنون والآداب والعادات والتقاليد والأخلاق والمعارف والأديان وحتى المطبخ واللباس وما شابهه.

هذا ما ثار عليه شبّان العالم في "سنوات الجمر" تلك، مع فروق تتعلّق بكلّ "ثقافة"، كأن تثور على البرجوازيين والبيروقراطيين في الصين مثلاً، وعلى قمع الحريات وحقوق الإنسان في أوروبا الشرقية، وعلى حرب فييتنام في أمريكا والغرب، وعلى كلّ قديم في الثقافة السائدة من حيث الحرية والجنس والموسيقى ونمط التعليم القمعي في الجامعات وفي الأدب والمسرح... وعلى العائلة والأبوية والذكورية. كانت ثورة على النمط السائد والمعتاد واليومي: على التقاليد وكلّ القيود. ثورة اجتماعية، وثورة جيل على الأجيال التي سبقته.

في أيار ١٩٦٨، زار الفيلسوف الماركسي الجديد هربرت ماركوز باريس وبرلين في ذروة الثورات الطلابية. وتعرّف مباشرة على الانتفاضة وعايشها. غالبا ما يُنسب إلى ماركوز كونه مصدر إلهام كبير للحركات الطلابية الأوروبية لعام ١٩٦٨. تقدم تلك المحاضرة نظرة ثاقبة فريدة على رؤية ماركوز للثورات أثناء حدوثها- خضراء-. ألقى ماركوز في ٢٣ أيار ١٩٦٨، بعد وقت قصير من عودته إلى الولايات المتحدة، عندما كانت نتائج أيار باريس لا تزال غير مؤكدة.

في وصفه الحيّ للانتفاضة الباريسية، قال لمستمعيه الأمريكيين:

"بناء المتاريس:

تجمّع الطلاب أمام السوربون، وعندما علموا أن الشرطة كانت على وشك إخلاء المنطقة بالقوة مرة أخرى، بدأوا في إقامة الحواجز. لقد كان عملاً عفويا حقا: قام الطلاب، دون أدنى اعتبار للممتلكات

الخاصة، بالإطاحة بالعديد من السيارات ومنعها - كما هو معتاد في باريس - ليس فقط في الشوارع ولكن أيضا على الأرصفة والممرات. ليس في الشوارع الواسعة - كان ذلك مستحيلا - ولكن في الشوارع الضيقة القديمة خلف السوربون.

لقد كدسوا الخشب والقمامة والكرتون وعلب القمامة - كل ما وجدوه - فوق السيارات. ثم مزقوا لافتات الشوارع - "شارع ذو اتجاه واحد" و "توقف" وما إلى ذلك - واستخدموها لتفكيك الرصيف. أنا لا أخبركم بهذا لأعلمكم كيف تصنعون ثورة - هذا لن ينجح هنا- في الولايات المتحدة- على أي حال، الجص صعب للغاية. بلافتات الطرقات تلك، قاموا الآن بحلحلة الأحجار المرصوفة بالحصى الباريسية القديمة الجيدة، والتي أثبتت بالفعل فائدتها في ثورتي ١٩٤٨ و ١٨٧٠.

"تبع ذلك مظاهرات أكبر وأكبر. بدأوا في الأجزاء النائية من باريس وتلاقوا جميعا في الحي اللاتيني. تم إغلاق جامعة السوربون الآن وسيطرت الشرطة على المنطقة المحيطة بالجامعة بالكامل وأغلقتها. كان الطلاب يطالبون الآن بإعادة فتح جامعتهم لهم، وإطلاق سراح الحي اللاتيني، الذي اعتبروه حيهم الخاص، من قبل الشرطة حتى يمكن أن يكون حيهم حقا مرة أخرى."

من هذا النص يمكن فهم تلك الحيوية التي جعلت من ماركوزه نبياً لطلاب ذلك الزمان، ومن أقربهم إليه أنجيلا ديفيس القائدة الأمريكية ورودي دوتشكه القائد الألماني/البرليني (كما ماركوزه بالأصل)... أذكر جيداً كيف غنّينا في ذلك الزمان نحن- في حمص- للمطالبة بتحرير أنجيلا ديفيس من السجن.

درج- عندنا أيضاً- وقتها مفهوم "صراع الأجيال" بديلاً عن الصراع الطبقي في صيغته الماركسية التي اعتُبرت ملائمة للقرن التاسع عشر وليس للثلث الأخير من القرن العشرين. وتُرجم بسرعة كتاب ماركوزه الأشهر "الإنسان ذو البعد الواحد إلى العربية"، ودخل في لغتنا اليومية تعبير "مدرسة فرانكفورت النقدية" التي ينتمي إليها، وجدّدت الماركسية وحدّثتها بعد تجاربها الفاشلة بطريقة نقدية.

ما يهمّ في ذلك المثال هو اجتماعية التغيير وشموليّته، وهي ثورات "ثقافية" من ذلك الباب. حتى تلك التي حدثت في الصين وكان لها ظروفها المختلفة وانعكست غضباً ربما كان أكبر من غضب شباب وطلاب الغرب واليابان، حيث انفجرت في- وعلى- ظرفٍ اجتماعيٍ من الفاقة والقمع والإقصاء أشدّ صعوبة بما لا يُقاس.

أضُيف التأثير الجذري لثورات العالم يومذاك، إلى تأثير فضيحة هزيمة العام ١٩٦٧، لتخلقا دينامية جديدة ومختلفة في الحياة الثقافية والفنية السورية في الفترة ذاتها وحتى النصف الثاني من السبعينات، كان أهمّ ما ميّزها كونها شابةً، وحتّى طلابية أيضاً.

امتلأت الجامعات بخلايا كخلايا النحل تئزّ وتتناقش وتتجادل، وظهرت مجموعات منظمة ومتفاعلة على شكل حلقات أو في إطار طلبة بعض الأحزاب، وكلّها في جوّ تغلب عليه الثقافة اليسارية المختلفة عن السائد المعتاد. كانت جامعتا دمشق وحلب مركزي ذلك الحراك وتلك الدينامية.

لم تكن الحوارات فكرية وسياسية وحسب، بل امتزجت مع أخرى فنية وأدبية: من السينما إلى الشعر. ومن استطاع من عالم الثقافة السائد وقتها أن يتمثّل ضرورة التغيير بدوره، كان جزءاً من ذلك الموج الموّار. ابتدأت- كمثال- ظاهرة السينما السورية الجديدة، وبرز شعراء جدد من غير بحور الشعر وأنهاره السائدة، وروائيون وقصّاصون، وموسيقيون... وامتلأت الأجواء بمفاهيم فكرية غير مألوف أخذت تتردّد وتُسمع.

لم تستطع موجات القمع المتلاحقة بعد ذلك أن تطفئ تلك النيران، وبقيت السينما السورية تنتج الجديد ولو في فترات متباعدة، وبقيت الثقافة السورية تنبض بالدماء التي اكتسبتها من تلك الأيام.

المثقفون السوريون والسياسة في عهد الأسد:

كان دخول حافظ الأسد وطغمته على السلطة والقبض عليها، لكنه كان أيضاً عاصفاً، استطاع فيه تحشيد قوى هائلة ومتنوّعة حوله، مستنداً إلى حزب البعث أيضاً، الذي قام بتجويفه والاستحواذ على معظم جسمه من دون رأسه. ومن أهم مظاهر الاستمرارية والتمدّد كان عزل المجتمع عن السياسة، وتطوير هذا العزل عن طريق الاحتواء المنظّم وتأسيس الجبهة التقدمية. إضافةً إلى ذلك استثمر الأسد في قضية الجولان، ليبني جيشاً مختلفاً كثيراً عن الماضي بحجمه وسلاحه وتدريبه، وليبني كذلك إلى جانبه مجموعة أجهزة أمنية عملاقة. حرب تشرين كانت ذروة ذلك الخط، مع نصف أو ربع انتصار شكلي.

هذا لأقول إن هنالك مدّاً معاكساً لا يساعد كثيراً على حشد عمل معارض منتج، على الرغم من وجود قوى وتجمعات لديها الإرادة لذلك. استغلّ بعض القوى يومذاك دخول حافظ الأسد بعسكره إلى لبنان وأخرج بياناً رافضاً يدين الاجتياح، سبقه- وهذا ماله علاقة بموضوعنا- بينان لعدد من المثقفين السوريين بالاتّجاه ذات. شكّل هذان البيانان اجتيازاً للجدار السميك، وفتح باباً للمعارضة السياسية، معاكسٍ لتيار الاضمحلال تنظيمياً وعملياً.

كان لدى المثقفين السوريين في أواسط تلك السبعينات، أو لتيار وازن بينهم، رؤية مستقبلية ترى نفقاً مظلماً ينتظر السوريين. تجمّعوا حول بؤر هنا وهناك، وكان لميشيل كيلو- في بيته غالباً- دور في ذلك التجمّع والحراك.

عندما هاجمت القوى الإسلامية المتطرفة النظام وابتدأت بمناوشات متفرقة وعمليات اغتيال، كانت ذروتها مجزرة مدرسة المدفعية، التي نفّذتها "الطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين"، وقتلت- على الهوية الطائفية، العشرات من طلاب الضباط. على إثر ذلك، أحسّ النظام بضرورة محاولة تحييد القوى الديموقراطية- غير الإسلامية هنا-، ولكنّ أراد أولاً تحييد المثقفين والقيام بخطوة إيجابية نحوهم، بالحوار معهم، عن طريق الجبهة الوطنية التقدمية.

دعا إلى لقاء كبير، أو إلى حوار مفتوح معهم، حضره عدد مهم من ممثّليهم، في دمشق. وكان لافتاً أن يتحوّل اللقاء إلى هجومٍ ذكيّ ومباشر من قبل أولئك المثقفين، شارك به- لغلبته وبديهيته- بعض المثقفين من وسط النظام ذاته.

(في نهاية هذه المادة، نضع ثبتا توثيقيا يضمُّ ملخّصاً لبعض ما قيل في ذلك اللقاء، إضافة إلى نصوص بيان الـ ٩٩ وبيان الألف).

ربيع دمشق:

غفت سوريا في الثمانينات تحت تأثير الهجمة الأمنية الكاسحة التي كانت ذروتها مجزرة حماة في شباط ١٩٨٢. انضمت إلى تلك الهجمة تأثيرات أزمة اقتصادية كبرى، وتحوّل اجتماعي مهم باتّجاه الفاقة والعوز. تحرّك الوضع بحذر شديد في التسعينات بعد إسهام النظام مع الأمريكيين في حرب الكويت، ثمّ مع وفاة الوريث السابق باسل بن حافظ، والانشغال بتحضير بشار الأشدّ ضعفاً والأقلّ كفاءة وقبولاً، لكن مواصفاته بقيت تحت سطوة الهراوة الغليظة... حتّى أدرك الأسد الأب نهايته القادمة وابتدأ بتكليف الوريث بمهام كبيرة في عام ١٩٩٨. ارتخت القبضة قليلاً بشكل إضافي، وأخذ المارد يتململ في رقدته، وأحسّ المثقفون السوريون قبل غيرهم بذلك. في مطلع عام ٢٠٠٠ ابتدأوا بحراكهم بهدوء.

كان أوّل الغيث، أن أخذ عشرات السينمائيين السوريين- كلّهم تقريباً- بحركة مطلبية منظمة وضعت مذكّرة لإصلاح عمل مؤسسة السينما عموماً، تستبطن عميقاً عملية جسّ نبض سياسية. ومع الربيع ابتدأت اجتماعات عدد من المثقفين البارزين شركاء من المجتمع المدني أو من يهدفون بقوة لإيجاد حراك يعيد بناء المجتمع المدني السوري... حدث ذلك قبل وفاة الديكتاتور الأب بعدة أسابيع، وتفتّح بشكل أكبر مع موت الأب ووراثة الابن، وبدئه بحملته التي عنونها بالتطوير والتحديث، وكلامه عن حرية الرأي والشفافية في خطاب تنصيبه الأول.

تنامى ذلك الحراك المتداخل ثقافياً- سياسياً، حتى قفز خطوة مهمة إلى الأمام مع صدور بيان الـ ٩٩ في أواخر أيلول ٢٠٠٠، الذي وضع مطالب الشعب الأولية برشاقة أمام النظام ورئيسه، وحمل تواقيع تسعة وتسعين شخصية عامة وفكرية وأدبية وفنية شاملة لتلك الفئة من الشعب، ومن أهمّ ممثليها. تجلّت تلك المطالب بما يلي:

"أولاً: إلغاء حالة الطوارئ والأحكام العرفية المطبقة في سورية منذ العام ١٩٦٣.

ثانياً: إصدار عفو عام عن جميع المعتقلين السياسيين ومعتقلي الرأي والضمير والملاحقين لأسباب سياسية، والسماح بعودة المشردين والمنفيين السياسيين جميعاً.

ثالثاً: إرساء دولة القانون، وإطلاق الحريات العامة، والاعتراف بالتعددية السياسية والفكرية وحرية الاجتماع والصحافة والتعبير عن الرأي، وتحرير الحياة العامة من القوانين والقيود وأشكال الرقابة

المفروضة عليها، بما يسمح للمواطنين بالتعبير عن مصالحهم المختلفة في إطار توافق اجتماعي وتنافس سلمي وبناء مؤسساتي يتيح للجميع المشاركة في تطوير البلاد وازدهارها.

إن أي إصلاح سواء كان اقتصادياً أم إداريا أم قانونياً، لن يحقق الطمأنينة والاستقرار في البلاد، ما لم يواكبه في شكل كامل، وجنباً إلى جنب الإصلاح السياسي المنشود، فهو الوحيد القادر على إيصال مجتمعنا شيئاً فشيئاً إلى بر الأمان."

من اجتماعات تلك النخبة برز اتّجاهان لاحقان، أحدهما نحو تأسيس المنتديات والحوار، وثانيهما نحو تنظيم الصفوف فيما أصبح اسمه "لجان إحياء المجتمع المدني"، وازدهر ربيع دمشق آنئذٍ بالجهد المشترك المتداخل للخطين، مع خط آخر تمثل بقوى سياسية معارضة.

في ربيع ٢٠٠١، أطلقت لجان إحياء المجتمع المدني وثيقتها الأساسية في صيغة بيان أخذ اسم "بيان الألف" نسبةً إلى أعداد موقّعيه من نشطاء ومثقفين وفنانين أيضاً، وتضمّن بدوره مطالب متقدّمة لهم، تركّزت فيما يلي:

"١-وقف العمل بقانون الطوارئ والغاء الاحكام العرفية والمحاكم الاستثنائية وجميع القوانين ذات العلاقة، وتدارك ما نجم عنها من ظلم وحيف. وإطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين وتسوية اوضاع المحرومين من الحقوق المدنية وحق العمل بموجب القوانين والاحكام الاستثنائية، والسماح بعودة المبعدين الى الوطن.

٢-إطلاق الحريات السياسية ولا سيما حرية الرأي والتعبير، وقوننة الحياة المدنية والسياسية بإصدار قانون ديموقراطي لتنظيم عمل الاحزاب والجمعيات والنوادي والمنظمات غير الحكومية، وخاصة النقابات التي حولت الى مؤسسات دولتية، ففقدت كلياً او جزئياً الوظائف التي انشئت من أجلها.

٣-إعادة العمل بقانون المطبوعات الذي يكفل حرية الصحافة والنشر والذي تم تعطيله بموجب الاحكام العرفية.

٤-اصدار قانون انتخاب ديموقراطي لتنظيم الانتخابات في جميع المستويات، بما يضمن تمثيل فئات الشعب كافة تمثيلاً فعلياً، وجعل العملية الانتخابية برمتها تحت اشراف قضاء مستقل، ليكون البرلمان مؤسسة تشريعية ورقابية حقاً تمثل إرادة الشعب ومرجعاً اعلى لجميع السلطات وتعبيراً عن عضوية المواطنين في الدولة ومشاركتهم الايجابية في تحديد النظام العام. فان عمومية الدولة وكليتها لا تتجليان في شيء أكثر مما تتجليان في المؤسسة التشريعية وفي استقلال القضاء ونزاهته.

٥-استقلال القضاء ونزاهته وبسط سيادة القانون على الحاكم والمحكوم.

٦-إحقاق حقوق المواطن الاقتصادية المنصوص على معظمها في الدستور الدائم للبلاد ومن اهمها حق المواطن في نصيب عادل من الثروة الوطنية ومن الدخل القومي، وفي العمل المناسب والحياة الكريمة، وحماية حقوق الاجيال القادمة في الثروة الوطنية والبيئة النظيفة. فانه لا معنى لتنمية

اقتصادية واجتماعية ان لم تؤد الى رفع الظلم الاجتماعي وأنسنة شروط الحياة والعمل ومكافحة البطالة والفقر.

٧-ان الاصرار على ان "احزاب الجبهة الوطنية التقدمية" تمثل القوى الحية في المجتمع السوري وتستنفد حركته السياسية وان البلاد لا تحتاج الى أكثر من تفعيل هذه الجبهة، سيؤدي الى ادامة الركود الاجتماعي والاقتصادي والشلل السياسي فلا بد من اعادة النظر في علاقتها بالسلطة وفي مبدأ الحزب القائد للدولة والمجتمع واي مبدأ يقصي الشعب عن الحياة السياسية.

٨-إلغاء اي تمييز ضد المرأة امام القانون."

إضافة إلى ذلك، وكمقدمة طويلة له، جاء في البيان تحليل معمّق لأسباب الحال التي وصلنا إليها من الاستبداد والفساد، الأمر الذي أطار صواب النظام، على الرغم من صدور "توافقات" لاحقة حاولت تخفيف ذلك الغضب. وبدأت حملات النظام في أواخر صيف ذلك العام، باعتقالات انتقائية وهادفة لشلّ ذلك الحراك وإجباره على التراجع. كانت الحملة المضادّة بقيادة عبد الحليم خدّام- نفسه- الذي ألقى خطابات نارية وتحريضية في عدة مواقع تكلّم فيها عن أن ذلك الحراك يهدف إلى "جزأرة" البلاد ويعني إغراقها بالدماء ووقوعها في قبضة التطرّف الديني والطائفي.

رغم ذلك كله، كان للجان إحياء المجتمع المدني أيضاً دور هام في تأسيس ائتلاف "إعلان دمشق" الشامل، في خريف ٢٠٠٥، مع القوى والشخصيات الوطنية المعارضة الأخرى. لعب ميشيل كيلو وحسين العودات وعلي العبدالله- وآخرون طبعاً- على سبيل المثال دوراً كبيراً في ذلك. وفي العام التالي، تصدّى أولئك المثقفون والفنانون لمهمة لطالما كانت معقدّة ومحرّمة هي العلاقات السورية اللبنانية، وخرجوا ببيان مشترك مع النخبة اللبنانية أسموه" إعلان بيروت- دمشق، إعلان دمشق- بيروت"، احتوى بدوره موقفاً متقدّماً قادراً بنقاطه على إعادة بناء العلاقة بين الدولتين بما يخدم مصالح شعبيهما... وبالطبع لحق بذلك البيان أيضاً اعتقالات طالت بعض أبرز موقّعيه.

كان للمثقفين السوريين دور هام أيضاً في عقد اجتماع حاشد للمجلس الوطني لإعلان دمشق، ضمّ ١٦٧ شخصية تمثّل كلّ سوريا ونخبها المختلفة، وخرج ببيان ختامي هام... كان لذلك الاجتماع الذي عقد في وسط دمشق على غفلة من النظام صدى كبير أثبت قدرة السوريين على توفير البديل، لولا ما طرأ فوراً علي النخبة السياسية من انقسامات أصبحت من صفاتهم الثابتة، ما زال تأثيرها فاعلاً حتى الآن. وبالطبع أيضاً لحق ذلك الاجتماع وبيانه حملة اعتقالات ومحاكمات صورية عاصفة، شملت، من بين من شملت، بعض مثقفي ربيع دمشق أنفسهم.

كان من ربيع دمشق أيضاً أن يحيي ويبلور نخبة شابة جديدة للثقافة السورية، شكّلت نواة في أيّ حراك قادم. بما في ذلك، ثورة ٢٠١١، التي اعتمدت أساساً على الشباب وروح الإبداع لديهم. كان أولئك أحد أسباب كون الثورة على تلك الروعة في عامها الأول.

المثقفون السوريون والثورة:

في العام ٢٠١٠، خيّمت على أجواء المثقفين السوريين غيوم التراجع الذي استطاع النظام بديكتاتوره الثاني أن يفرضه بحملاته المستمرة. لكنهم لم يستكينوا وأخذوا يتباحثون في تأسيس حراك جديد، ربّما يبدأ هذه المرة من الثقافة والفنون بذاتهما، لينقل الحالة إلى نهضة جديدة أكثر قدرة على النجاح.

ولم يطل الأمر حتى جاءت أواخر ذلك العام ببشائر نهوض عربي ابتداءً من بو عزيزي تونس، ثم لحاق مصر فليبيا بذلك الربيع العربي؛ وامتلأت أجواء دمشق وسوريا بالآمال العريضة من جديد. فابتدأ الحراك معتمداً أيضاً على المثقفين والفنانين وطلاب الجامعات خصوصاً- ولم يكونوا وحدهم بالطبع-، من خلال مهرجانات السينما، ومنها تلك الوثائقية التي خرج من ناشطيها الكثير من أعضاء تنسيقيات الثورة، ولن أذكر الآن منها إلّا باسل شحادة- الشهيد على أرض حمص فيما بعد- وكثيرون غيره ممن أصبحوا مُوَثّقي الثورة ومنظّميها.

كان للتجمعات الرمزية والهادئة قرب السفارات المعنية دور بإثارة روح التضامن مع ذلك الربيع الوليد، وثوراته في تونس ومصر وليبيا، دور في نضج الثورة على نار هادئة في الأسابيع القليلة السابقة على مواعيدها.

وذلك كان تدريبياً ميدانياً أوليّاً على الحراك الكبير، بل الانتفاضة، بل الثورة التي انتقلت إلى سوريا هكذا من مظاهرة بسيطة وذات معنى في دمشق في ٢٠١١/٣/١٥، ومظاهرة أمام وزارة الداخلية في اليوم التالي، ثمْ انطلاقة راسخة من درعا، حيث حرّكت اعتقالات أجهزة الأمن للأطفال وتعذيبهم ثم إهانة أهاليهم الحراكَ الذي أشعل السهل كلّه.

عجزت النخبة السياسية عن أن تنظّم قيادة موحّدة للمسار الثوري، ولم تتطوّر النخبة الشابّة الثورية إلى حدٍّ يستطيع التعويض عن الفراغ تماماً، وانقسمت النخبة الثقافية بين الطرفين: قسم منها أقرب إلى التقليدية، وقسم كان أقرب إلى الثوّار...

وبالطبع كان هنالك قسم لا يُستهان به ممّن عطّل مفاعيلهم قلقهم من وقوع الثورة في إسار الثورة المضادّة مسبقاً، وفي الخوف من طغيان الموجة الإسلاموية والمسلّحة وما تنذر بوقوعه، الأمر الذي لم تتأخّر مسارات الثورة في أن تقدّم لهؤلاء دليلاً على صحّة تشاؤمهم وسلبيّتهم.

حين تأسّس المجلس الوطني السوري كان لأكاديميين سوريين في المنافي دور هام في ذلك، إضافة إلى مثقفين كانوا في قيادته مثل برهان غليون وبسمة القضماني وعبد الباسط سيدا وغيرهم. كذلك عندما تأسّست هيئة التنسيق الوطنية- رغم الفرقة مع المجلس الوطني- فقد ضمّت كثيراً من المثقفّين في صفوفها، وخصوصاً لأنّها راعت في إطارها وقيادتها بعض مخاوف القسم الثالث أعلاه من التدخّل الخارجي والعنف والطائفية. وحين حدثت محاولة جدّية لتوحيد الطرفين في نهايات العام ٢٠١١، كان يقودها مثقفّون/ سياسيون من الطرفين: برهان غليون وهيثم منّاع!

ثمّ شهد تشكيل الائتلاف الوطني الذي ورث المجلس الوطني تراجعاً أكبر لدور المثقفين وشمولهم، كان طبيعياً أن تؤدّي إليه محاولات أسلمة الثورة وتسليحها، إضافة إلى ذلك الدور غير المباشر لضعف تمثيل الجانب الديموقراطي (الراديكاليّ بمعنى ما) في الائتلاف وظروف قيامه، ثمّ استمرار ذلك رغم بعض الخطى (الناقصة)، وحتى استقالة الكثيرين من ذلك اللون الديموقراطي/ الثقافي وخيبتهم من أحوال المعارضة.

وها نحن الآن بحاجة إلى ثقافة جديدة ومثقفين جدد، يتلاءمان مع ما وصلنا إليه، باختراقهما للجدار الفكري والموضوعي الذي انتصب في وجوهنا، ويعيد البناء بشكل جذري، بوعي مختلف يتناسب مع تغيّر معطيات الواقع الاجتماعي الجديد ويتطابق معها، ومع المقدّمات الجديدة لثورة أكثر شمولاً وجذرية...

ولعلّ أفضل وأهمّ ما بقي من الثورة ولم تستطع الثورة المضادّة النيل منه، هو ما ردّته للثقافة السورية، والشابة منها أولاً، من الجميل أضعافاً، إذ أحيت جيلاً جديداً وكونيّاً تبرز فيه بشكل واضح نسبة شابة وأخرى نسوية، لا يمكن أن يزول تأثيرها وإبداعها حتى ولو تفرّقت في أركان الدنيا الأربعة.

******

بعض التوثيق لمسار المثقفين وفاعليّتهم السياسية مع نظام الأسدين في سوريا:

١-"لقاء الكتاب والصحفيين مع الجبهة الوطنية التقدمية"

(ملاحظة: تمّت المحافظة على تلقائية اللغة وعاميّتها في بعض الأماكن للحفاظ على حرارتها).

"بعد تردي الأوضاع الأمنية في النصف الثاني من السبعينات، وخصوصاً في صيف ١٩٧٩، جرت محاولة من النظام للالتفاف على المطالب الشعبية وإرخاء نسبي لقبضة الأمن. ومن ذلك كان لقاء للجبهة التقدمية مع عدد كبير من المثقفين والكتاب والإعلاميين وبينهم عدد من البعثيين، بل بعض المشكوك بارتباطاتهم الأمنية أيضاً، جرى به تشجيعهم على الكلام بجرأة، لم تكن تنقصهم أساساً.

فيما يلي بعض النماذج مما قيل يومذاك، مع تدخّل خفيف جداً وحسب في النصوص الشفوية:

عادل محمود:

"...على مستوى الأراضي المحتلة ما استرجعنا ولا شبر من الأرض بالعكس رجعنا الى الوراء ... على مستوى القضية الفلسطينية الكل يعرف ان الفلسطينيين أكلوا ضربة بلبنان بمساعدة أو بتغاضي القوات السورية ... القضية الاجتماعية بالبلد تبدأ من قصة الخبز وتنتهي بمشكلة الحرية فلا مشكلة الخبز انحلت ولا مشكلة الحرية انحلت ولا ما بينهما انحل... بالنسبة لمشكلة الحريات، الحقيقة ليس هناك داعي نحكي عنها طالما حكى كل الزملاء عنها وهي قضية واضحة جدا، أن الحريات تمارس فقط بمفهوم الدولة، بمفهوم النظام وضمن اطر محدودة جدا".

ميشيل كيلو:

"الحقيقة أن الاستاذ عادل محمود صادر شيئا مما أريد الحديث عنه... أنا أريد الكلام عن موضوع الجبهة تحديداً وما أعتقد انه يتفرع عن الجبهة. كما طرح الاستاذ محمود الأيوبي أنه "هل يجب ان نعيد النظر في ميثاقها؟ أم يجب ان نعيد النظر في صلاحياتها؟ أم نعيد النظر في أسلوب عملها؟" (الأيوبي مردفاً: أو في تكوينها؟) .. أو في تكوينها. أنا في تقديري ان المسألة ليست الا بمعنى ما مسألة الجبهة... وصف الجبهة هي المآل الأخير الذي يجب ان ينصب نحوه تطور كبير يجب ان تشهده البلد.

لو أخذنا ميثاق الجبهة القديم إننا نجد أن فيه مجموعة ملاحظات أساسية: أول هذه الملاحظة أن هذه الجبهة هي جبهة قوى تلزم نفسها في رسم سياستها المختصة بالجبهة بالمنهاج المرحلي لحزب البعث العربي الاشتراكي وبمقررات مؤتمراته القطرية، وان هذه الجبهة باسم الحفاظ على الوحدة الوطنية يمنع على أربع من أحزابها ان تعمل في قطاعي الجيش والطلاب. هذا الأساس ينسف الجبهة ويمنع قيام جبهة. لا يجوز ان يكون هناك نظام مبني على التعددية السياسية ويشترك أعضاؤه وقياداته في تقرير مصير البلد الاستراتيجي ثم لا يؤتمن على الوحدة الوطنية. لا يؤتمن على العمل في القطاعات الشعبية. لأن هذا الموقف الذي هو في صميم الميثاق يلغي عمليا أحزاب الجبهة الوطنية التقدمية التي ليست أحزابا عمالية وفلاحية وكلنا نعرف ذلك، انما هي أحزاب تتمركز أساسا في أوساط مثقفين وموظفين، فان منع عليها العمل بين الطلاب والشبيبة ثم في الجيش، وهي بالأصل ليست أحزابا عمالية وفلاحية فإنها تتطور نحو التلاشي وهذا ما يحصل لأحزاب ال(جوت) في هذا القطر بدرجات متفاوتة، انها أحزاب تتطور نحو اللافاعلية لأنه في صميم عملها في صميم الميثاق الذي وافقت عليه فكرة تقييدها والغائها ومنع نشاطها. هذا أولاً. ثانيا هناك أسس للعمل رسمها ميثاق الجبهة: اجتماعات دورية، مناقشة القضايا الكبرى. رسم الخط السياسي للبلد، البت في القضايا الكبرى للبلد الخ الخ، الجبهة تستطيع ان تتبرأ من قسم كبير من القرارات، وأعتقد ان أربعة من ممثلي الجبهة يجلسون هنا – التي اتخذت في السنوات السبع الماضية... الجبهة لم اسمع انها ناقشت الخطط الاقتصادية، لم نسمع انها ناقشت الاصلاح الإداري، لم نسمع انها تكلمت عن تطوير عملها ككيان سياسي يقود البلد، لم نسمع انها تقدمت باقتراحات أو قدمت لها اقتراحات. هذه الجبهة مشكلتها الأساسية كانت ليس مع الجمهور الشعبي وانما مع النظام السياسي التي تدار بها الدولة في البلد. الآن تأتون الينا كلجنة جبهة كي تطوروا عمل الجبهة عبر حوار مع القواعد، انا أرجو الا أكون" بجح" وأود ان أقول لكم، يجب ان تبدأوا بالنقاش حول صيغة الجبهة المستقبلية مع القيادة وليس مع القواعد، قواعد الشعب، الجمهور الشعبي، ليست هي التي وضعت صيغة الميثاق وليست هي التي طبقته وليست هي التي قادت الجبهة نحو هذه الحالة من اللافاعلية وليست هي المسؤولة عما حدث في أحزاب الجبهة جميعا، فكلها تعرضت للتفكك والتمزق الداخلي وسارت شيئا فشيئا في سياسة افقدتها الى حد كبير منابع قوتها التنظيمية والعددية.

هذه الجبهة "المتطورة" لن تعطي شيئا جديداً إذا لم تُدرس علاقتها بالنظام السياسي وبالدولة وبالطريقة التي تتخذ فيها القرارات. في هذه الدولة نحن جميعا شهود وقائع لا أستطيع الآن ان أصفها وصفا اخلاقيا لأنه سيكون وصفا غير مهذب. كانت تتخذ القرارات ثم تجتمع الجبهة ويجتمع مجلس الشعب ويجتمع لست أدري من ليوافق عليها، المسألة ليست معنا نحن، مع الناس العاديين، ليست مع المنظمات، المسألة هي علاقة هذه الجبهة بالبنية التي يقوم عليها النظام السياسي وبالطريقة التي يتخذ فيها القرار السياسي في هذا البلد وأنا أعتقد بأنكم تستطيعون ان تناقشوا كل فرد في هذا الوطن في النهاية إذا لم تتحدد هذه المسألة بوضوح ودقة فان النقاشات هذه ستكون مفيدة كسجال، كحوار مع الناس، بالاستماع الى آرائهم، لكنها لن تكون مفيدة اذا حصرنا كلامنا مرة أخرى بالجبهة، فاني أجد ان ميثاق الجبهة كميثاق كان يضع قيودا على القوى السياسية ويمنع عملها كقوى سياسية. أي كشرائح سياسية لها وجهة نظر ايديولوجية مستقلة نسبيا تعبر عن استقلالية مصالح مجموعة من الشرائح الاجتماعية – حتى لا أقول طبقة لأنها كلمة غير محبوبة في القاموس السياسي في دولتنا – شرائح اجتماعية وهي مستقلة في وجهة نظرها ومستقلة في تنظيمها، حتى ولو اقتضت المرحلة ان تجد تقاطعا أو خطوط تقاطع مع الخط السياسي السائد.

هذه القوى التي تجلس في الجبهة لم تعد كذلك، انها في نظر الشعب لم تعد أحزاباً، إنها تجمعات حول شخص أو حول خط يمكن ان تروي عنه الأساطير والحكايات، في الخمسينات والستينات والأربعينات، لكنها لم تعد تعبر عن مصالح شرائح شعبية، مصالح اقتصادية اجتماعية سياسية متبلورة في خط له استقلالية نسبية، أصبحت توابع تدور في الفلك الأكبر، الذي هو فلك لست أدري من، هذا يجب على الجبهة ان تحدد، هذه المسألة الأساسية التي على الجبهة ان تقررها "نحن نتعاطى مع من؟" إذا "كنا نتعاطى مع تحت" فقد سمعتم الى حد كبير الآن شريحة ليست مفرحة كثيرا عن رأي تحت، إذا كنتم تريدون أن تتعاملوا كقوة سياسية هي قاعدة وقيادة هذه الدولة مع قضايا البلد... فيجب في البداية ان تتحدد علاقتكم تماما بالدولة القائمة في هذا البلد وأنا أخشى ان تطرح عليكم الآن أسئلة كقيادة مركزية ل(جوت) حول هذه العلاقة، أعتقد أنها محرجة الى حد ما.

النقطة الثانية التي أود ان أتحدث بها: تحدثنا كثيرا عن "خلل"، "أخطاء"، "تقصير"، "إهمال" الخ الخ ضمن إطار توجه عام صحيح عريض مضبوط هو توجه القيادة السياسية في سوريا". أنا بتقديري أن بيان ال(جوت) الذي صدر قبل أيام قليلة كتب بهذه العقلية: "هناك مسيرة صحيحة تشوبها أخطاء قليلة. هذه الأخطاء نابعة جزئيا عن عمل الجهاز الإداري، نابعة كثيرا عن المؤامرات الخارجية، وإذا اتخذنا تدابير تقنية بحتة فإننا يمكن ان نصلح هذه الأخطاء". أنا أعتقد ان هناك مؤامرة كبيرة على سوريا ليست ابنة ١٩٧٦- ١٩٧٧ المؤامرة على سوريا قائمة بأشكال مختلفة منذ قامت دولة اسرائيل– ولنقل دولة اسرائيل بصراحة – هذه المؤامرة مرت بمراحل كثيرة، أنا أميز فيها مرحلتين كبيرتين:

المرحلة الأولى هي اسقاط كل منجزات الشعب السوري ضد الاستعمار الفرنسي وفي رأسها مرحلة طويلة من الليبرالية والحريات والديمقراطية البورجوازية وحريات العمل والسياسة ووو .. الخ. ثم مرحلة ثانية جاءت فيها الوحدة، وهذا فخر عبد الناصر الكبير، هي مرحلة جر ملايين البشر الى ساحة السياسة في اطر دولة اطارها العام، أي عملها العام، يقوم على الفرد وعلى مقاطعة الجماهير حتى منتصف الطريق وليس على التعبير عن الجماهير. أريد ان أقول إنه إطار ليس ديمقراطياً إلى درجة كبيرة. هذه المرحلة – المؤامرة الكبرى – التي نعيش نحن فيها الآن هي المؤامرة التي بدأت عندما أُسقطت جميع حريات الشعب السوري بما فيها حريات العمل وحرية التعبير عن الذات وتكوين القوى السياسية ووو الخ، وعندما أُسقط هذا الدور الشعبي. نحن الآن نواجه أزمة مميتة لأننا ندور في خواء كقيادة سياسية ومواطنين وقوى سياسية، لا نعرف ماذا نعمل خارج إطار الحرية ولا دور لنا خارج دور الشعب، المشكلة التي نعاني منها الآن ان هذه البلد ليس فيها دور للشعب وان الحريات خنقت فيها عن عمد وسابق تصميم والخ. لا يمكن ان يُرَمّم وضع البلد بالحديث عن خلل، عن بعض العيوب هنا وهناك، العيب الأساسي الكامن في بنية البلد الآن، في سياسة البلد الآن هر عيب بنيوي يقوم داخل بنى الدولة والمجتمع والطبقات والقوى السياسية وهذا العيب جُرِرنا اليه عبر مسيرة عمرها خمسين أو ستين سنة ونحن الآن نعاني منه باسم شعارات التقدم والوطنية والوحدة العربية ووو... أنا أريد لن أسأل سؤالاً صغيراً هنا: حزب البعث العربي الاشتراكي يقوم بأيديولوجيته على أولوية المسألة القومية. الشيوعيون يقولون المسألة الاجتماعية، البعث يقول المسألة القومية هي رافعة التقدم الاجتماعي. أنا أوافق عموما على هذه الفكرة، كمواطن درويش يعني، أين هي الوحدة العربية؟ ماذا جرى للمسألة القومية الآن؟ من هو الذي يستطيع ان يتجرأ ويقول ان المسألة القومية الآن من بعد ٢٠ سنة من حكم البعث هي بخير أكثر مما كانت عليه عام أيام حكم الشيشكلي وأيام حكم الكتلة الوطنية أو التجمع الوطني؟ أنا أريد التحدث عن المسألة الاجتماعية لكي أظهر لكم ما أقول انه أزمة بنيوية.

المسألة الاجتماعية: نحن نتحدث عن الاشتراكية، هل الاشتراكية في وعي الجماهير مسألة تتقدم؟ أنا باعتقادي ان الاشتراكية في وعي الجماهير مسألة تتراجع، هذا هو الواقع وهذا هو الشارع، ويستطيع أي إنسان مسؤول أن يضع عقالا على رأسه وأن يلبس جلابية وينزل إلى فرن، إلى باص ومدرسة ومشفى ليعود، بدون مناقشة مع الجمهور الشعبي، (ويرى) أن القضايا الكبرى قضايا الثورة العربية الكبرى تتراجع وتنهار وتتدمّر وأنها دُمّرت، وأنا شخصيا أعتقد أن وعي الشعب وهي مسألة هامة في السياسة – السياسة تساوي بصلة اذا كان وعي الشعب ليس متكافئا مع الخط التقدمي الوطني الذي تطرحه القيادة – إذا كان وعي الشعب يذهب في اتجاه وكلام القيادة يذهب في اتجاه آخر. وعي الشعب وصل الى مرحلة من التدمير والعداء لا يمكن أن تصلح فيها أحوال البلد إذا لم يكن هناك إصلاح جذري للبنى التي أقيمت في هذا البلد. أريد الآن ان أتحدث عن ظواهر هذه الأزمة التي أقول إنها أزمة بنيوية: هناك ظواهر خارجية وهناك ظواهر داخلية، أرجو ان لا أثقل عليكم! فقط دقيقتين، سأختصر، أول ظاهرة

خارجية اننا دخلنا في لعبة التسوية ... السادات، "الاتفاق الاستراتيجي مع السادات" دافعنا كثيرا عنه، أنا أذكر أحاديث المسؤولين في اتحاد الصحفيين كانوا يقولون "لا يمكن ان ينفك الحلف الاستراتيجي بيننا وبين السادات". مرة واحدة نجد ان السادات ذهب مع الأمريكان والاسرائيليين وذهبت معه شريحة كبيرة من الدول العربية. نحن نضحك على أنفسنا عندما نعتقد ان السعودية تقف مع الصمود والتصدي وأن الخائن هو السلطان قابوس لوحده وجعفر النميري. ونضحك على أنفسنا كثيرا عندما نعتقد ان السيد الحسن الثاني جلاد الشعب المغربي، كلب الاستعمار الغربي بكل أنواعه هو رجل يقف في وجه الامبريالية الأمريكية ومخططاتها. ذهب السادات فقلبت موازين القوى في المنطقة كلها، هذه المسألة لا يمكن التجاوز عنها بشعار اسمه "إسقاط كامب ديفيد"، كامب ديفيد سيسقط المنطقة، وقد أسقط المنطقة. إذا كان هناك من يقاوم بالرمق الأخير فإن هذا لا يعني أن مقاومة كامب ديفيد بالإذاعة هي مقاومة كامب ديفيد بالواقع.

بعد كامب ديفيد كان يجب علينا ان نتخذ قرارات استراتيجية كبيرة: إما ان نذهب مع الأمريكان لأن التفاهم الدولي في المنطقة انهار بعد كامب ديفيد، وأما أن نذهب الى الكتلة الاشتراكية أي نقف مع الدول الاشتراكية. يجب ان نتخذ قرار استراتيجي. هذه مسألة لا تحتمل التأجيل. نحن نؤجل جميع مشاكلنا الكبيرة وندفعها أمامنا. وعندما تكبر الأزمة نتصور أننا نستطيع ان نحلها بأدوات لا تلبث بعد قليل ان نكتشف انها أصبحت جزءاً من الأزمة مثل بيان (جوت). أنا برأيي هذا جزء وتعبير عن الأزمة عندما نعد الناس بعد ١٦ سنة بحل مشكلة الخبز، فمتى سنحل مشكلة فلسطين والوحدة العربية والاشتراكية والسكن واللباس والتعليم والصحة والزراعة المتدهورة والصناعة التابعة ووالخ؟! عندما نعد الناس بالسعي الى النظر في صلاحية مجلس الوزراء، هذه بحق فضيحة، بعد عشر سنوات نريد ان ننظر في صلاحيات ليس فقط رئيس الوزراء وانما الوزراء والمحافظين ومعاونين الوزراء ومعاوني رئيس الوزراء، ماذا كان يفعل رئيس الوزراء طوال تسع سنوات؟ يتاجر بالمساكن؟ يبيع ويشتري مساكن؟ أنا لا أفهم بجد بيان الجبهة. هذه مسألة أكبر بكثير من أن ينظر إليها بوصفها ورقة فيها ٣٢ مطلب أو ٣٣ مطلب. أريد ان أقرب هذه المسألة من الأذهان، بيان القيادة القطرية المؤقتة في ١٦ تشرين كان يقول إن المعركة الآن هي معركة تحرر وطني وليست معركة تحرر اجتماعي، وأن هذا التحرر الوطني هو المهمة الاستراتيجية الأولى للثورة الديمقراطية التقدمية العربية في سوريا. لا يوجد ولا كلمة من هذه المهمة الاستراتيجية في بيان الجبهة الأخير... ولا حرف. هناك حديث عن الجبهة الداخلية. بدأنا نقول "إن المهمة ضد العدو الخارجي" والآن تتجمع الجبهة "على العدو الداخلي"... وفي أي إطار تتجمع أحزاب الجبهة على العدو الداخلي؟ في إطار من عزلة شعبية خانقة، في إطار الانهيار في وضع وبنى النظام ومؤسساته وسياساته، عدم وجود ثقة فيه، ثم نهجم على العدو الداخلي بوصفه عميل لكامب ديفيد، في الداخل يوجد خلل، لا توجد بنى مغلوطة... يجب ان نفتح أعيننا أخيرا قبل ان تفوت الفرصة

الأخيرة ونلتقي هنا بعد ست سنوات أو خمس سنوات ويقول انسان ما: "لم يحذرنا أحد... كان الشعب متواطئا" لأن كل ما يصدر الآن عن الدولة له هذا المدلول "لقد كان الشعب متواطئا".

أحمد دحبور:

"لا أعرف ما هو الهامش الذي تركه لي الصديق ميشيل كيلو بعد هذه المداخلة الرائعة، ولكن أحسب انه سأل سؤالاً: ما الذي لم تفعله الجبهة الوطنية التقدمية؟ إنني أريد ان أقول ما فعلته. على حد معلوماتي ان هناك موقفين هامين وتاريخيين لل(جوت): الأول التوقيع على وقف إطلاق النار في حرب تشرين، والثاني هو مباركة ذبح الفلسطينيين في لبنان. هذا تأريخ. على أي حال لقد اهتممت كثيراً بما تفضل به الأستاذ الأيوبي عندما قال "أن الكلام يبقى كلاماً ما لم يدخل حيز التنفيذ" وأحسب انه كان يقصد ان الجبهة وان السلطة معنية بأن يدخل بيانها حيز التنفيذ. هذا شيء جميل، ولكن أرجو ان تسمحوا لي بالسماع الى قصتين، إحداهما جرت قبل بيان (جوت) والثانية جرت بعدها.

عام ١٩٧٦ ارتكبت عناصر غير منضبطة، كما قيل آنذاك في بيان من قوات الصاعقة، جريمة ضرب مكتبين لجريدتين وطنيتين في لبنان هما "بيروت" و"المحرر"... وأنا بالمناسبة لست بعثياً عراقياً وانا أحتقر النظام العراقي. دخلت الأمانة العامة لاتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين، دخلت الى البلد هنا وقابلت الرفيق عبد الله الأحمر الأمين العام المساعد لحزب البعث العربي الاشتراكي. حدثته في أمور كثيرة بينها هذا الموضوع. استمع الرجل استماعا طيبا وأبدى أسفه- وهو موجود الآن- وأكد أن ما جرى هو تصرف عناصر غير منضبطة. في المساء نقلت وكالة الأنباء السورية قدوم وفد أمانة عامة للكتاب والصحفيين الفلسطينيين لمباركة النظام – هذا ما جرى. بعد بيان الجبهة– لا أدري إذا كان بعد بيان الجبهة إنما بعد الوعود الكثيرة التي نسمعها الآن – اجتمع مجلس اتحاد الكتاب العرب مع رئيس الجمهورية وأعتقد أن هناك من قال من أعضاء مجلس الاتحاد كلاماً ما... مثلًا إن هناك طائفية تمزق البلد، مثلاً إن هناك خطراً على البلد... والبيان الذي صدر عن هذا اللقاء كان يؤكد وقوف الكتاب جميعا صفا واحدا خلف الخط السياسي والقيادة الحكيمة لهذا البلد. هاتان القصتان تطرحان أسئلة ربما تلخص هذه الأسئلة في سؤال واحد في كلمة واحدة: الثقة. النوايا طيبة بالتأكيد، الأيدي ممدودة بالتأكيد، أنتم تسمعون كما هو واضح، ولكن ما هي الضمانات. من الذي يضمن لي أننا في هذا اليوم لن نسمع خبراً أن "الكتاب والصحفيين السوريين اجتمعوا مع قيادة ال(جوت) وممثليهم ليؤكدوا مباركتهم ودعمهم"؟ أرجو أن لا أسمع هذا الخبر وساعتها سأكون سعيدا، بالتأكيد، لأنني لست متصيداً ولست شامتاً. أنا معني أن ينتصر هذا الوطن، أنا معني بأن تتمكن سوريا فعلا من الوقوف في وجه مؤامرة كامب ديفيد ولذلك أطرح هذه الأسئلة الجارحة وإن لم تكن أكثر إيلاماً مما تقدم به الزملاء الاخرون. ثم ماذا عن القاسم المشترك لحديث الاخوان جميعا؟ ماذا عن الديمقراطية؟ وماذا عن كل ما يتشعب عن هذا السؤال الشرك المخيف؟ لماذا أحتاج أنا كمواطن – وأنا بالمناسبة مواطن عربي

فلسطيني من رعايا الجمهورية العربية السورية – لماذا أحتاج الى موافقة المخابرات حتى تقرر إذا كان يحق لي ان أسكن ابني في الجمعية السكنية في دمر. ولماذا طلبي موجود عند المخابرات من شهر ٢-١٩٧٧ حتى الآن؟. أنا لا أرفع شكوى وأرجو ألّا يؤخذ كلامي بعين الاعتبار، لأني لا أطلب التماساً! نزيه ابو عفش، واحد من أهم شعراء هذا الوطن يحمل وثيقة معززة بتوقيع السيد رئيس الوزراء والسيد معاون وزير التربية والسيد رئيس اتحاد الكتاب العرب وشفاعة خمسة أطباء على الأقل بأنه لا يستطيع ان يعمل لأنه صحياً مريض... لأنه معه الشقيقة، وكل ما يطلبه طلب بسيط صغير: أن يُنقل الى عمل اداري، السيد مدير تربية دمشق يرفض ذلك... ولكنني متأكد من انه استجاب لطلبات أخرى وشكراً."

سمير الخطيب:

"كان من المفترض- على الأقل بحكم ان أي نتيجة سياسية يجب ان يرافقها تغيرات سياسية- الجماهير كانت تعتقد أن صدور أي قرار أو بيان عن الجبهة يجب أن يرافقه أيضاً تغييرات في الأشخاص التاريخيين الموجودين على رأس الجبهة، ان كان ذلك نسبيا أو بشكل مطلق. لم يحدث ذلك اطلاقا. كانت الورقة التي طرحتها ال(جوت) والتي أخذت اسم الميثاق (عفوا اسمحوا لي بالجلوس فأنا متعب قليلاً)... كان ميثاق الجبهة- كما يفترض ان يكون- مقدمة، ويجب ان ترافقها تغيرات في البنى، في الأسس التي أوصلت الى هذه المشكلة. ولكن يبدو ان عدم تغيير الأشخاص كان ينبغي ان يشير بأن هذه المتغيرات في المستقبل لن تتجاوز السطح. نحن لا نعتقد ذلك الا من تجربة طويلة، قد لا أزعم ذلك بالنظر الى سني ولكنني أستطيع ان أتنبأ بذلك تماما لنسأل أنفسنا أولاً: القيادة الحالية التاريخية في (جوت) هل هي مؤهلة حتى من قبل أحزابها لقيادة هذه الأحزاب؟ انني أطالب –وانني لن أُخوّف في مجال النقد فكلامي سيكون مختصرا جداً، ولن أدخل في المشكلة البنيوية لأن الحديث عن هذه المسألة سيطول فعلاً – أنا أطالب بعقد مؤتمر استثنائي لكافة الأحزاب الممثلة في (جوت)... مؤتمر عام استثنائي كما يحدث عادة في اللحظات التاريخية والمصيرية، تقرر فيها قواعد وأعضاء الجبهة ما إذا كانت راضية عن القيادات الموجودة في الجبهة. نطالب أيضا بعد أن يتم هذا المؤتمر أن ينعقد أيضا مؤتمر استثنائي يضم كافة قواعد الأحزاب الممثلة في الجبهة لنرى ما إذا كانت ستختار فعلا القيادات الموجودة حاليا أم انها ستطرح بدائل أخرى. قلت أنى سأخوض في البدائل ولن أخوض عملية النقد. أحب هنا أن أورد مثلا صغيرا: في اللعبة البرلمانية في إيطاليا لعب الحزب الشيوعي الإيطالي دوراً انفصل فيه عن الجماهير منذ فترة الأربعينات وحتى فترة الخمسينات، ولذلك ظهر نوع من الغضب الشعبي الحقيقي داخل الحزب الشيوعي الايطالي فظهر حزبان: الحزب الشيوعي الرسمي والذي يجلس على مقاعد الحكومة في البرلمان أيضاً، والحزب الشيوعي الشعبي الذي يعتقد بأن ما يمثله الحزب الشيوعي الرسمي لا يمثل الجماهير الواسعة العريضة. ونتيجة تصرفات الحزب الشيوعي ظهرت فئات راديكالية والتي تجاوزت الحزب الشيوعي والحزب الشيوعي الشعبي... ونتيجة لذلك أتنبأ ولدى معلومات، لقد ذكر لي صديق من أحد الأحزاب التقدمية جدا في هذا البلد أن القيادة الحالية له طلبت مؤتمراً يضم

شيوعي دمشق فقط لالغاء المؤتمر العام، أو لمعاداة المؤتمر العام على الأرجح من أجل تجاوز ما تطرحه القواعد وأؤكد هنا اني لست شيوعياً؛ وهذا التأكيد ليس خوفا فلم يعد هناك ما يخيف على الاطلاق؛ أنا أطلب اجتماع القواعد للتأكيد على هذا، للتأكيد ما اذا كانت القواعد ستختار فعلا هذه القيادات التي حصلت على امتياز تاريخي أعطته فترة الخمسينات – الفترة الوطنية –. أما نحن الآن فبُعد المسألة له طابع وطني وله طابع اجتماعي. أفق القيادات الحالية هو أفق وطني لم يستطع تجاوز أفق دائرة الخمسينات التي كانت مجرد نضال وطني. كانت مجرد التأكيد على أولوية الاستقلال الوطني. في ضوء المتغيرات الحالية التي تتطلب فعلا استقلال وطني واجتماعي لنسأل القواعد: هل هذه القيادة مؤهلة لقيادتكم على المستويين؟ وهل هي مؤهلة لاستيعاب الدوائر الجديدة في منظورات التطور المحلي والعربي والدولي أيضا؟ في ضوء ذلك أنا أعتقد؛ وقد أكون مختصرا الى حد بعيد؛ ستتحدد تحالفاتنا وتتحدد تحالفات هذه الأحزاب أيضا وستفرز قوى على المستوى الطبقي وعلى المستوى السياسي. تلك هي البدائل التي كنت أريد ان أطرحها... "

ممدوح عدوان:

"ضمن الأسباب الداعية لاجتماعنا هذا، لا شك أنه هناك إحساس عند (جوت) أنها بعيدة قليلاً عن الناس و(جوت) جزء من هذا النظام الذي يحس أنه بعيد عن الناس بُعدَ هذا الشارع السياسي السوري عن السلطات السورية المتتالية، سببه تاريخ من وقوع هذا الشعب ضحية لكذب الأنظمة. الأنظمة السياسية كذابة لذلك لا يصدقها، لا يصدق بيان عن معركة بعدد الشهداء ولا يصدق حتى درجات الحرارة القصوى والصغرى. الإعلام كمعبر عن السلطة يكذب أيضا. أنا أشتغل في اعلام أخجل منه لأنه يكذب بهذا المقدار، يكذب بدرجة الحرارة... يكذب بإخفاء الكوليرا – وهل هناك أحد يخفي الكوليرا؟! "–" يكذب بالتستر على اللصوص وعلى التجار والمرتشين وشركائهم ويشكك بي وبكم حين كنتم تقولون أنّ هناك فساد. السؤال: لماذا يكذب الواحد؟ ولماذا يكذب الحزب؟ لماذا تكذب فئة ما؟ أين الكذب وأين موقعه؟ الكذب له نوعان: نوع ما يغاير الحقيقة ونوع اخفاء قسم من الحقيقة أو اخفائها كلها.. وفي الحالتين ينطلق الكذب من الخوف، الخوف من الآخرين. والسلطات التي تكذب هي سلطات تخاف الشعب وليست مسألة "لا تثق بالشعب لأنه ما عنده مبادرات بناءة وفعالة"... لا، هي سلطات تخاف هذا الشعب، تخاف أن يراها على حقيقتها. لذلك يقمعوا رأي الشعب يقمعوا حتى سؤاله... مثال: أنا أريد ان أسأل سؤال: كنا على خصومة مع العراق، والعراق ببياناتنا الرسمية من نفس الأشخاص الذين كانوا موجودين واستمروا حتى الآن، من وزراء عامين و(جوت) وقيادات في الحزب، كلهم أدلوا ببيانات شديدة اللهجة عن خيانة الحكم العراقي وارتباطه بالاستعمار وتواطؤه مع أمريكا وعدائه لحركة التحرر العربية ومسؤوليته عن قتل الناس واغتيالهم في شوارع دمشق. وبعدها تصالح النظام في سوريا مع النظام في العراق. لم يكلف مسؤول واحد نفسه، في سوريا والعراق، ان

يقول لهذا الشعب – والذي لا أعرف كم مليون صار – "يا جماعة، كنا غلطانين بحق بعضنا"، فقط هذه الكلمة، ما خطر لواحد ان يقول: "كنا غلطانين بحق بعضنا"؟ لا، هم كانوا عملاء ونحن بنظرهم عملاء وتصالحنا. ولم يكلف أحد خاطره ليقول: "يا شعب، تريد ان تعمل وحدة؟ تريد ان تخوض معركة التحرير؟ تريد ان تخوض معارك البناء؟ نحن كنا غلطانين يوم قلنا عنهم جواسيس. والآن نتحالف معهم لأنهم ليسوا جواسيس". لم يقل أحد هذا، للآن لهذه اللحظة... لماذا؟؟ لأنه نحن لا نهمّ أحد، ولأننا لا نهمّ أحد ف(جوت) – باعتبارنا الآن نناقش مشكلة الجبهة الوطنية –(جوت) معترفة الآن – ببيانها وبكلام الأستاذ محمود الأيوبي- إنه فعلا البلد في أزمة، وهناك ست أو سبع سنوات من العمل الذي ليس صحيحا تماما، هناك اعتراف بهذه المسألة – طيب أين كانت الجبهة، خلال هذه السنوات التي حدثت فيها أخطاء وفواجع؟ كانت غائبة وليس لها دور؟ دورها ليس فعال وبناء؟ لماذا لم تطلع ببيان تقول لنا فيه: "نحن آسفين، السنوات الماضية لم نكن جيدين". كيف أستطيع ان أثق فيهم وهم الآن أنفسهم؟؟ ألم تكن مرحلة الفساد التي مرت، والكلام الذي ملأ الشارع عن الرشاوى والعمولات والسمسرة والضباط الذين يساهمون في شركات ويحمون المهربين، والنهب الذي حصل في لبنان واغتنى منه ناس وصاروا من أصحاب الملايين والبناء الذي عمل بعضهم من أصحاب الملايين... هذا الكلام تناول أيضا أناساً هم في رأس السلطة وهم في قيادة (جوت)، وهناك أشخاص موجودين الآن هنا تناولهم كلام الشارع. يجوز كذب أو صح، المهم تناولهم ولا ثقة بهم على الأقل. إذا كانت التهم كاذبة فهناك زعزعة بالثقة ولم يكلف حزب من الأحزاب نفسه مسؤولية القول "والله مندوبنا في الجبهة لم يكن نشيط"... على الأقل هكذا، وليضحك علينا يا أخي، وقولوا: "إن مندوبنا لم يكن نشيطاً" وغيروا مندوبكم بالجبهة... لا الأحزاب قالت "مشاركتنا لم تكن بناءة" ولا الجبهة قالت "ان وجودنا في السلطة لم يكن بناءً". اذاً لا أعرف أين المشكلة: نفس الأشخاص، نفس الأحزاب. إذا أنتم الذين ارتكبتم الأخطاء... أنتم وأنتم بالأشخاص... قيادات هذه الأحزاب أو تطلعوا ببيان تقولوا من عمل كل ذلك، تقولون لماذا لم تستطيعوا تصليحها؟ ولماذا سكتم عنها؟ ولماذا خنقتم أصواتنا وشككتم بوطنيتنا عندما كنا ننتقدها؟ فنحن من كثرة التشكيك بوطنية المواطن، ومن "الظروف الراهنة التي يمر بها الوطن العربي"، صار يتجنب المشاكل ولا يريد وجع الرأس، حتى صار لا يريد مواطنيته. هذه هي النتيجة – لا يريد مواطنيته.

كلنا تحدثنا عن مسائل تبدو جريئة، هناك مسائل كلنا تجنبناها، لم يتكلم أحد عن سرايا الدفاع، لم يتحدث أحد عن المخابرات، لم يتحدث أحد عن... إذا لم نقل الوجه الطائفي للسلطة... الممارسة الطائفية لبعض عناصر السلطة. في الشارع الآن هناك تهيج قائم وأنتم تعرفوه ... (بعض كلمات غير واضحة) وأمريكا تريد المنطقة، وتريد ان تركعنا شعباً وارادةً وكرامة، لكن أنا حتى الآن، في كل شيء حصل في سوريا؛ على الأقل من كامب ديفيد وحتى الآن؛ لم أسمع أنه اعتقل جندي أمريكي في سوريا ولا اعتقل جاسوس أمريكي في سوريا. الذي يخرب والذي يقاوم التخريب مواطنين، والذي يتعاطف مع

التخريب ويصبح سلبياً مع الدولة هم مواطنين... والمواطنين الذين كانوا يطاردون الاخوان المسلمين في حماة – والأستاذ محمد حيدر يمكن ان يتذكر ذلك – في حماة أيام ما قبل الوحدة حيث كانوا يطاردوهم للمساجد والبيوت، وكان البعثيين قلة مضطهدة وفي نضال سلبي، الآن حزب البعث – ولا أعلم يا استاذ كم صار تعداده – في البيوت والاخوان المسلمون يملكون الشارع، ولماذا كان المواطنون إذا قلت "حرامي" يركض معك ألف مواطن ليقبض عليه، الآن يقتل انسان في وضح النهار بطلقات مسدس ويمشي القاتل ولا أحد يدل عليه ولا أحد يقول ملامحه؟ لأنه هناك ممارسات خاطئة، تركت المواطن يتراجع، يصير عنده انتكاسات طائفية، شعبنا متخلف وعنده بذور طائفية، لكنها كانت متجمدة... الآن تنمو، لماذا؟ لدي سؤال اشرحوه لي الآن... أريد جوابه الآن: اشرحوا لي ما هي سرايا الدفاع؟ ولماذا لها هذه الامتيازات؟ لماذا تكون امتيازات جندي بسرايا الدفاع أكثر من ضابط بالقوات العاملة؟ ولماذا لا نتجرأ أن نحكي عليها؟ ولماذا تحكي الناس عليها بالهمس والوشوشة... وتعرفون انه يحكى عليها بالهمس (وشوشة في الجمهور) وأنتم تحكون عليها بالوشوشة ... (ضحك في القاعة وتصفيق) فالمأزق الطائفي مثلا ضمن المآزق الوطنية التي نصل اليها مسألة تحتاج الى مواجهة مباشرة، تحتاج الى صورة أشعة واضحة ليعرف الطبيب الدواء وشكرا." (تصفيق)

محمد حوراني:

"الحقيقة ما تحدث به الأخ ميشيل كيلو والأخ ممدوح عدوان لم يتركا لأحد شيئا (الأيوبي: الذين كانوا قبلك نفس الشيء... وحكوا أكثر!)

...بيان الجبهة الوطنية التقدمية حدث هام في سوريا. وهكذا مطلوب منا أن نتحدث لكننا ... (الأيوبي يقاطع المتحدث: نحنا ما قلنا حدث هام ولا طلبنا من أحد يقول هذا الكلام والله... نحنا في الجبهة على الأقل...) طيّب بيان الجبهة الذي اذيع والذي اعتبر أنه ليس حدثاً هاماً... (ضحك)... لم يثق به المواطن قطعاً ولا تطلبوا من المواطن أن يثق بما جاء به، لأن كل النصوص التي وردت فيه نصوص وردت في خطاب السيد رئيس الجمهورية في ولايته الثانية أمام مجلس الشعب، إلا أن هذه البنود التي وردت في بيان الجبهة لم تنفذ مع أنها صدرت من جهة أعلى وهي السيد الرئيس. فكيف ستستطيع إذن الجبهة الوطنية التقدمية (جوت) مع كل الشحنات التي حملت بها لكي تنفذها؟! الحقيقة أن المشكلة ليست في (جوت)... (مقاطعة غير واضحة) ... لا أريد أن أقول إنها غير موجودة أو إنها ستوجد خلال الفترة القادمة مع أن حزب البعث والذي يشكل فيها وهو قائدها موجود في القيادة السياسية في البلد موجود في مجلس الوزراء وأعضاء في مجلس الوزراء موجودين في (جوت)... يعني الأمور متداخلة ومختلطة أما أن تُحمّل الآن (جوت) كباب... منفذ جديد يتحدث به لسنة أو سنة ونصف أو ستة أشهر. بكل الحالات المواطنون في هذه الأيام لم يقتنعوا قطعاً، لأن حادثة رجل أمن واحد يتخطى شارة حمراء وهو يشفّط بسيارته يؤثر أكثر مما يؤثر بيان الجبهة الوطنية... (من الجمهور: صحيح...) نقطة أخرى: أنتم في هذه الجلسة أردتم ان تتحملوا المسؤولية أو وضعتم أنفسكم في مكان وكأن الحل سيمر من هذه النقطة

مع أن الكل يعرف أن الحل ليس من عندكم وليس من (جوت)، وأن حل كل هذه الاشكالات التي يعيشها المواطن والتي يقول فيها وبحق: كيف تستطيع سوريا أن تتصدى لكامب ديفيد ولا تستطيع ان تتصدى لمشكلة الخبز؟! (تساؤل من رئاسة الحوار: شو .. خبز .. خبز؟...) ويبدو أنها ... فعلاً هذا سؤال كبير، كيف نستطيع أن نتصدى لأمريكا؟! وإسرائيل؟ وللنظام المصري الذي أُضِيف اليها حديثا وبعض الدول العربية التي هي منضمة تستّراً ولا نريد نحن أن نعلن عنها؟ كيف نستطيع أن نتصدى لهذا الحلف الطويل العريض ولا نستطيع أن نحل مشكلة الخبز؟! إلاإذا كان مطلوباً أن تكون هناك مشكلة خبز ومشكلة مواصلات ومشكلة أمن ومشكلة غاز لكي .. وهذا ما يقوله الشارع، "يريدون أن يلهونا عن مشاكلنا الأساسية بمشاكل ثانوية. يريدون ألا نفكر بالسياسة وبأحداث السياسة وبالمشاكل السياسية وبالقضايا الكبرى. يريدون أن نلتفت إلى القضايا الصغيرة لكي ننشغل بها طيلة النهار"... حتى لا نكون من "الشكّائين" أي نشتكي فقط، الحل واضح وتعرفوه قبل غيركم. الحل بالديمقراطية والتي لن يستطيع أحد ان يتخذ قرار بأن تمارس الديمقراطية في هذا البلاد لأن جهات هامة وكثيرة لا ترغب في أن يكون هناك ديمقراطية، ولا تستطيع، أو عقلها لا يستطيع أن يتحمل أن تكون هناك ديمقراطية. يعني من الممكن ان يكون أحد المسؤولين المتنفذين والذين بيدهم السلطات المسؤولة ولو كتب أحد الصحفيين مقالاً أو سرب مقالاً في صحيفة، ممكن أن يعتقله أو يفصله كما حدث قبل فترة، صاروا يفصلوا بعضهم (يقاطعه الوزير: وضعوه تحت التصرف...) فلذلك الحل بالديمقراطية وبممارسة الديمقراطية حقيقة، أن يكون لكل حزب صحيفة وأن يُفتح المجال لكل المواطنين لكي يعبروا عن آرائهم وأن تمارس الديمقراطية في كافة المجالات الحياة وشكراً.

علي العيسى:

قد تستغربون اذ أعلن أمامكم ان الأحزاب المشتركة في الجبهة لا أعرف أسماءها تماماً، رغم أني أعمل في الصحافة. ولكن ليس الأمر بالمستغرب... طبعاً، من أين لي أن أسمع بهذه الأحزاب؟! بأسماء هذه الأحزاب وان أعرفها بدقة، طالما أنكم أنتم أعلنتم في بداية هذا الاجتماع أن (جوت) كانت غائبة تماماً عن كل ما يجري في هذا البلد؟ وأنا شخصيا لم يتح لي أن أعرف عنها إلا تلك الأخبار البسيطة التي تنشر في أعقاب بعض الاجتماعات التي تحدث بين الحين والآخر. يضاف إلى ذلك، أود أن أسأل سؤال: من هي هذه الأحزاب؟ وما هي الشرائح التي تمثلها؟ وكم تمثل من الشعب؟ أنا أفترض أن القيادة المركزية أو أن الأحزاب الممثلة في القيادة المركزية ل(جوت) يجب أن تمثل غالبية الشعب وإلا تفقد الجبهة أو قيادة الجبهة مبررات وجودها. فكم تمثلون أنتم الآن؟! أنتم الأحزاب الممثلة في الجبهة والتي انضوت تحت لواء الميثاق؟ الأكثر من ذلك أن المواطن العادي- بكل أسف- لا يتعامل مع هذه الأحزاب كأحزاب. نحن نعرف أن أحزاب الجبهة ممثلة داخل الحكومة ولكن بكل أسف يقال دائماً إن هذا الوزير من جماعة فلان... حتى كلمة "حزب" لم تعد واردة... الآن لا يقال إن هذا الحزب الفلاني أو إن الوزير من الحزب الفلاني، يقال إن هذا الوزير من جماعة فلان... إضافة إلى الانشقاقات الكبرى التي حدثت بين

الأحزاب. لنأخذ الحزب الشيوعي مثلا... هل الشيوعيين في سوريا ممثلين فعلاً بكل قواعدهم، بكل شرائحهم داخل الجبهة الوطنية التقدمية؟ أنا لا أعرف كل الانقسامات التي حدثت، لكن كل ما أعرفه أن هناك مجموعات: جماعة فلان، جماعة خالد بكداش، جماعة رياض الترك، جماعة غيره... أخيرا دعونا نحكي بالشيء الأهم والأكبر وهو حزب البعث العربي الاشتراكي الذي يقود هذه الجبهة. الآن ما هو واقع هذا الحزب؟! هل يتعرض لنفس الأمراض التي تتعرض لها الأحزاب الأخرى؟! بكل أسف ربما كانت أمراضه أكبر وأشدّ وأمرّ. في بدايات الستينات من هذا القرن أصدر حزب البعث المنهاج المرحلي الذي اعترفت فيه كل القوى التقدمية في العالم على أنه منهاج متقدم وثوري وما شابه ذلك... والآن وبعد هذه الفترة الطويلة من الزمن نشاهد أن حزب البعث قد تحول الى تجمع مثل بقية الأحزاب. فاذا كان هذا هو واقع الحزب الذي يقود هذه الجبهة فكيف حال بقية الأحزاب؟ لا شك أنها ليست أحسن حالاً. ما الذي نشأ في ظل هذه الظروف؟ كيف نمت وترعرعت ووصلت إلى هذه القوة ظاهرة الاخوان المسلمين؟ حزب البعث يمتلك كل هذه المقدرات المفترضة والوهمية غالبا ومعه بقية الأحزاب التي تُطلق على نفسها تسمية تقدمية وطنية اشتراكية ثورية وما شابه ذلك؛ ومع حزب البعث بمنظماته الشعبية الجماهيرية التي ينضوي كل الناس تقريبا دون استثناء تحت لوائها، أين هذه المنظمات وأين هذه الأحزاب؟ في اللاذقية اغتيل أحد رجال الدين... كنا نأمل ونتوقع أن تتصدى الأحزاب جماهير حزب البعث جماهير الشيوعيين، جماهير ... ما بعرف شو اسمها (ضحك في القاعة..) أعذروني... والمنظمات الشعبية، عمال وفلاحين وشبيبة وطلاب كان من الممكن أن تتصدى لمظاهر الشغب التي ظهرت... أين هي؟ بالأخير طلع "لا تستغربوا هذه ما فيها شيء هذه جماعة رياض الترك وجماعة صلاح جديد وجماعة رابطة العمل الشيوعي"، أنا بودي أن أسأل الآن هل من معلومات دقيقة لدى قيادة حزب البعث أو لدى القيادة المركزية ل(جوت) عن هوية وطبيعة الناس المنضوين تحت لواء رابطة العمل الشيوعي؟ أنا معلوماتي أن المنضوين تحت لواء هذه الرابطة هم من خيرة العناصر الذي عرفهم حزب البعث العربي الاشتراكي... فكيف حصل ذلك؟ لماذا نجد الآن الجيل الجديد يلفظ ويرفض قياداته ويرفض كل القوى السياسية الموجودة ويبحث عن التيارات المتطرفة إمّا يميناً أو يساراً؟ من هنا ظهرت ونشأت ظاهرة الاخوان المسلمين. حيث يفترض أن منظمة الشبيبة مثلا هي الموجه والقائد لجيل الشباب وهي التي تبحث عن كل الوسائل والصيغ التي تمتّن من علاقة هذا الجيل بالثورة وبمستقبل الثورة، نجد ان الاخوان المسلمين ينظمون الدورات التدريسية والتعليمية المجانية لجماهير الشباب، حيث فقد الشباب أي أمل في أن هذه المنظمات وأن هذه الأحزاب تمثلهم فعلًا وتلبي طموحهم، بدأوا يبحثون عن تنظيمات أخرى حتى وإن كانت تتعارض الى حد ما مع اهتماماتهم.

في بداية الحديث سأل الرفيق محمود الأيوبي أو قال "الناس تقول أو تتساءل هل سينفذ بيان الجبهة؟" نحن سنفترض الكمال في هذا البيان وبودي ان أسأل نفس السؤال للرفيق محمود ولجميع

الرفاق الموجودين: هل سينفذ فعلا بيان الجبهة؟ هذا ما لم نستطع الاجابة عليه ولا يستطيع الاجابة عليه أي منكم قطعا بدليل أن مثل هذا البيان قد صدر سابقا"...

بعدَ أو في أعقاب تشكيل لجنة المحاسبة في عام ١٩٧٨، أنا وأحد من الصحفيين أو أول صحفي التقيت مع الرفيق أحمد دياب وأجريت حديث مطول معه وكان كلامه أنه سيضرب بيد من حديد على أيدي كافة العابثين والمستهترين؛ وفي أعقاب ذلك توزعت القيادة القطرية للحزب على فروع الحزب وبدأت تشرح للناس الأوضاع الراهنة ومستقبل القطر والتغيرات المتوقعة وما شابه... لكن ما الذي حدث؟ الذي حدث أن الناس أُصيبوا بإحباط كبير، وأن من تحدث بجرأة في ذلك الحين مثلي أنا على ما أذكر، اتُّهم بأنه من المناورين وأنه من العقلية المتسلطة... أنا شخصيا اتهمت بأني من جماعة صلاح جديد لكوني تحدثت بصراحة وبجرأة عما يجب أن يكون، ولا أدري بماذا يتهم الأخ ممدوح أو الإخوان الاخرين الذين تحدثوا بصراحة وبوضوح. الناس حتى بحسهم العفوي البسيط يقولون إن القائد العسكري الذي يفشل في معركة عسكرية... الذي ينهزم ... عندئذ ينتحر أو يستقيل أو ما شابه. الناس الآن تقول إن القيادة الموجودة – وهي تقول تحديدا القيادة القطرية – وتقول القيادة المركزية ل(جوت) وتقول إن مجلس الوزراء، وتقول مجلس الشعب... تقول إن هذه القيادات يفترض فيها الآن أن تعلن أنها فشلت وغير قادرة على أن تستمر... وبالتالي فهي تقدم استقالتها وتترك الفرصة لأدوات تنفيذية جديدة قادرة على تنفيذ ما هو مطلوب في المرحلة القادمة. كيف نطور الجبهة؟ هذا الذي يهمكم أكثر – أعرف – قبل كل شيء لا بد من أن نحدد بوضوح مطلق من نحن؟ ما هي هويتنا الاجتماعية؟ طبعاً أنا لا أطالبكم بأن تقولوا بأننا سنسلك وسننهج نهج اشتراكي تقدمي ثوري، لكن أن تحددوا بوضوح من نحن؟ نحن اشتراكيون؟ لا بأس فللاشتراكية أساليب عملها وللاشتراكية مقوماتها. نحن رأسماليون؟ أيضا لا بأس، لكن أنا واحد من المنخرطين في حزب البعث، أنا حتى هذه اللحظة لا أستطيع ان أحدد بوضوح من نحن... هل نحن اشتراكيون فعلا؟ لا أظن. رأسماليون؟ لا أظن. لذلك أرى ان المسألة بمقدار ما هي سهلة وواضحة، هي أيضا معقدة وصعبة، من سيجيب على هذه الأسئلة وعلى هذه التساؤلات؟ أنتم؟ – لا أعتقد! انا أعرف وسمعت أحاديث منقولة عن بعضكم أنكم لا تعرفون شيئاً عما يجري، عما يمكن ان يحدث، فكيف سنطور الجبهة؟ اذن لنحدد هويتنا الاجتماعية أولاً. لنعزز المناخ الديمقراطي ثانياً. كيف يمكن أن يُعزّز المناخ الديمقراطي؟ عندما وقّع السادات اتفاق كامب دافيد وفي أعقاب التوقيع أو في نفس لحظة التوقيع شاهدت بنفسي طلبة المدينة الجامعية وقد تركوا غرفهم واجتمعوا ونزلوا الى مسيرة غير منظمة يعبروا عن مشاعرهم الوطنية الحقيقية تجاه هذه الخيانة وعندما ساروا في شوارع دمشق بدأت الجماهير تنضم إليهم لكن بكل أسف جاء من يقول "لا... المسيرة غداً" و"نحن سننظم المسيرة".

أية ديمقراطية هذه لا يحق فيها للمواطن أن يعبر عن رأيه حتى حيال مسائل كبرى التي هي من هذا النوع؟ فهل الديمقراطية بالمقدار الذي نريد وبالصيغ التي نريد؟ اذا كان الأمر كذلك لا أدري. أنا أعرف

ان الديمقراطية غير ذلك. هموم المواطنين ومشكلاتهم لا أريد ان أتحدث عنها كثيرا لأنكم تعرفونها أو ربما لا تعرفونها، ومن حقكم ألا تعرفوها لأنكم لا تركبون الباص ولا تشترون السلع ولا تعرفون وضع الخبز. هذه المسائل يعرفها المواطنون العاديون أمثالنا، لكن مثل هذه الأزمات الخانقة القاتلة تترك آثاراً سلبية مدمرة في نفوس الناس. المواطن بدأ يحس ان علاقته بمواطنيته مفقودة. طبعا المواطنية ليست مثلما قال عنها الرفيق عبدالله الأحمر إنها "هي ليست خبز، هي نضال"، يعني نحن لا نعرف كيف النضال. حتى داخل الحزب الآن.. الحزب الذي يقود ال(جوت) ومعه كل الأحزاب قالت إن في البلد كيت وكيت ومطلوب كذا للمرحلة المقبلة. على رأي الرفيق صياغ أنا الآن وكل الاخرين الذين تحدثوا من جماعة كامب دافيد ومن مؤيدي كامب دافيد! وان كل واحد يضخم الأخطار بالنهاية يصب مع جماعة كامب دافيد... اسئلة كثيرة بتقديري لا أنا ولا أنتم المطلوب منّا أن نبحث عن أجوبة لها. لماذا الآن – مثل ما حكى أكثر من صديق – يُقتل خيرة علماء هذه الأمة ولا نجد من يمكن أن يدل على القاتل؟! أين النهوض الوطني الذي شهده شعبنا؟! الذي شهدتموه أنتم فنحن كنا وقتها صغار في الخمسينات من هذا القرن... حزب البعث بعد هذا الحكم الطويل بعد ١٦ سنة يحس أنه ليس له جماهير... وشكراً".

علي المصري:

"استوقفتني عند الصباح أم العيال وراء غسالة الفريسكو من طراز ٦٠ ترجوني ألا أتكلم...(الأيوبي مقاطعا: ألا ؟؟؟) .. أتكلم... (الأيوبي: ما سمعت والله)... ترجوني ألا أتكلم (صوت من الجمهور موضحا للأيوبي: مرته قالت له لا تحكي ..) فقلت لها: رجاؤك مقبول، إنما أريد نقل آرائك. فقالت: دعك من هذا فالكلمة بغي فقدت شرفها. إن تاج العروس ولسان العرب الذي تعود إليه، لم تعد الكلمات الآن من عوائده وليست تمت اليه بصلة. فقلت لها: دعيني أنقل مشاعركم على الأقل... أدافع عن حسام ووسام وهمام. قالت: لا يمكنك الدفاع عنهم لأنك لا تملك في هذا القطر شيئا. قلت: بل سأتكلم. قالت: تذكر أن من ستتكلم إليهم اليوم سيعودون بالتكسي المرسيدس ٢٨٠ وأنت ستعود بالباص. فقلت لها: فليكن... لن أتخلى عن مسؤوليتي. قالت: إنك لست مسؤولاً، ولا حتى عن نفسك، لأنك بكتبك الثمانية، يأتي أحدهم من أسفل الاقبية ويسألك من أنت فبماذا تجيب؟ قلت لها القصة التالية: سافرت في السنة الماضية إلى أوروبا وقضيت ثلاثة أشهر. على باب الهجرة والجوازات نودي "على المصري"، فرفعت يدي فقال بالحرف الواحد؛ واستميحكم العذر؛ "يا خرى صار لنا ساعتين ننادي عليك" وقذف لي الجواز من فوق رؤوس الجماهير. وقفت في مطار لندن أقدم جواز سفري لإحداهن. نظرت في الجواز فقلبته ثم قالت" دقيقة واحدة". قلت لرفاقي "علقنا" لماذا؟؟؟ لأني منذ ١٩٤٨ حتى اليوم لا أملك الا الرعب والخوف من الحاضر من المستقبل... قلت جاءت المخابرات! عادت بالبوليس سلمته جواز السفر، ووقفت تحييني.. فاستغربت... جاء البوليس ووقف بين الحقيبتين وحمل إحداهما باليمنى والأخرى باليسرى إلى باب المطار... استوقف تكسي "هل تملك العنوان؟" "نعم" وضع الحقيبتين داخل السيارة فاستغربت ذلك... ثم دار إلى باب السيارة الثاني وفتحه وقال: "تفضل"، وحيّاني، وقال "يشرّف

حكومة صاحبة الجلالة أن أكون برفقة عضو اتحاد الكتاب العرب في سوريا"... فضحكت، وكان بودّي ان أبكي ولكنني ضحكت. فصممت الا أتكلم وجئت اليكم لأقول هل للكلام جدوى؟ لا جدوى للكلام لأن أرخص ما في هذه البلاد الانسان والكلمة! إذا كان الانسان رخيصاً والكلمة رخيصة فأستميحكم العذر لأعود الى أم العيال كما وعدت ان لا أتكلم وشكراً." (تصفيق عاصف) (الأيوبي يضحك!!)

النص الكامل لبيان الـ ٩٩ الذي نشر بتاريخ في ٢٠ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٠:

"الديمقراطية ومبادئ حقوق الإنسان في عالم اليوم لغة إنسانية مشتركة تجمع بين شعوب الأرض وتوحد آمالها في غد أفضل.

وإذا كانت بعض الدول الكبرى تستخدم هذه المقولات بشكل انتقائي لإمرار سياساتها وتحقيق مصالحها، فإن التفاعل الحضاري بين الشعوب بعيداً عن منطق الهيمنة وسياسات الإملاء، قد سمح لشعبنا في الماضي، وسيسمح له في المستقبل، أن يتأثر بتجارب الآخرين ويؤثر فيها، مطوراً في خصوصيته غير منغلق عليها. وتدخل سورية اليوم القرن الحادي والعشرين وهي في أمس الحاجة لأن تتضافر جهود أبنائها جميعاً في مواجهة تحديات السلام والتحديث والانفتاح على العالم الخارجي. ولهذا فإن شعبنا مدعو أكثر من أي وقت مضى، إلى المشاركة في صناعة حاضره ومستقبله.

انطلاقاً من هذه الحاجة الموضوعية، وحرصاً على وحدتنا الوطنية، وإيمانا منا بأن مستقبل بلدنا لا يصنعه غير أبناءه، وبوصفنا مواطنين في نظام جمهوري يمنح الجميع الحق في إبداء الرأي وحرية التعبير، فإننا نحن الموقعين، ندعو السلطة إلى تحقيق المطالب الآتية:

أولاً: إلغاء حالة الطوارئ والأحكام العرفية المطبقة في سورية منذ العام ١٩٦٣.

ثانياً: إصدار عفو عام عن جميع المعتقلين السياسيين ومعتقلي الرأي والضمير والملاحقين لأسباب سياسية، والسماح بعودة المشردين والمنفيين السياسيين جميعاً.

ثالثاً: إرساء دولة القانون، وإطلاق الحريات العامة، والاعتراف بالتعددية السياسية والفكرية وحرية الاجتماع والصحافة والتعبير عن الرأي، وتحرير الحياة العامة من القوانين والقيود وأشكال الرقابة المفروضة عليها، بما يسمح للمواطنين بالتعبير عن مصالحهم المختلفة في إطار توافق اجتماعي وتنافس سلمي وبناء مؤسساتي يتيح للجميع المشاركة في تطوير البلاد ازدهارها.

إن أي إصلاح سواء كان اقتصادياً أم إداريا أم قانونياً، لن يحقق الطمأنينة والاستقرار في البلاد، ما لم يواكبه في شكل كامل، وجنباً إلى جنب الإصلاح السياسي المنشود، فهو الوحيد القادر على إيصال مجتمعنا شيئاً فشيئاً إلى بر الأمان.

عبد الهادي عباس (محامي وكاتب)، عبد المعين الملوحي (عضو مجمع اللغة العربية)، أنطون مقدسي (كاتب ومفكر)، برهان غليون (كاتب ومفكر)، صادق جلال العظم (كاتب ومفكر)، ميشيل كيلو (كاتب ومفكر)، طيب تيزيني (كاتب ومفكر)، عبد الرحمن منيف (روائي)، أدونيس (شاعر)، برهان

بخاري (باحث)، حنا عبود (كاتب)، عمر أميرالاي (سينمائي)، خالد تاجا (ممثل)، بسام كوسا (ممثل)، نائلة الأطرش (مسرحية)، عبد الله حنا (باحث ومؤرخ)، سمير سعيفان (اقتصادي)، فيصل دراج (باحث)، حيدر حيدر (روائي)، نزيه أبو عفش (شاعر)، حسن م يوسف (صحفي وقاص)، أسامة محمد (سينمائي)، نبيل سليمان (روائي وناقد)، عبد الرزاق عيد (باحث وناقد)، جاد عبد الكريم جباعي (كاتب وباحث)، عبد اللطيف عبد الحميد (سينمائي)، سمير ذكرى (سينمائي)، أحمد معلا (فنان تشكيلي)، فارس الحلو (ممثل)، حسان عباس (باحث)، حنان قصاب حسن (أستاذة جامعية)، ممدوح عزام (روائي)، عادل محمود (شاعر)، حازم العظمة (طبيب وأستاذ جامعي)، برهان زريق (محامي)، محمد رعدون (محامي)، ياسر صاري (محامي)، يوسف سلمان (مترجم)، هند جمالي (سينمائية)، منذر مصري (شاعر وتشكيلي)، أحمد المعيطة (أستاذ جامعي)، وفيق سليطين (أستاذ جامعي)، مجاب الإمام (أستاذ جامعي)، منذر حلوم (أستاذ جامعي)، عادل سليمان (أستاذ جامعي)، سراب جمال الأتاسي (باحثة)، توفيق هارون (محامي)، عصام سليمان (طبيب)، جوزيف لحام (محامي)، عطية مسوح (باحث)، رضوان قضماني (أستاذ جامعي)، نزار صابور (فنان تشكيلي)، شعيب طليمات (أستاذ جامعي)، حسن سامي يوسف (سينمائي وكاتب)، واحة الراهب (سينمائية وممثلة)، حميد مرعي (مستشار اقتصادي)، رفعت السيوفي (مهندس)، موفق نيربية (كاتب)، سهيل شباط (أستاذ جامعي)، جمال سعيد (أستاذ جامعي)، عمر كوش (كاتب)، ريمون بطرس (سينمائي)، أنطوانيت عازرية (سينمائية)، نجيب نصير (ناقد وكاتب)، مي سكاف (ممثلة)، نضال الدبس (سينمائي)، فرح جوخدار (معمارية)، أكرم قطريب (شاعر)، لقمان ديركي (شاعر)، حكمت شطا (معماري)، محمد نجاتي طيارة (باحث)، نجم الدين السمان (قاص)، علي الصالح (باحث اقتصادي)، صباح الحلاق (باحثة)، نوال اليازجي (باحثة)، محمد قارصلي (سينمائي)، سوسن زكزك (باحثة)، شوقي بغدادي (شاعر)، بشار زرقان (موسيقي)، فايز ساره (صحافي)، محمد الفهد (صحافي وشاعر)، محمد بري العواني (مسرحي)، نجاة عامودي (مربية)، عادل زكار (طبيب وشاعر)، مصطفى خضر (شاعر)، محمد سيد رصاص (كاتب)، قاسم عزاوي (شاعر)، محمد حمدان (كاتب)، نبيل اليافي (باحث)، تميم منعم (محامي)، ابراهيم حكيم (محامي)، أنور البني (محامي)، خليل معتوق (محامي)، علي الجندي (شاعر)، علي كنعان (شاعر)، محمد كامل الخطيب (باحث)، ممدوح عدوان (شاعر)، محمد ملص (سينمائي)، محمد علي الأتاسي (صحافي).

النص الكامل لبيان الألف" الوثيقة الأساسية للجان إحياء المجتمع المدني"

نُشر في بداية الشهر الأول من عام ٢٠٠١: عبد الرزاق عيد

تحتاج سورية اليوم، أكثر من أي وقت مضى إلى وقفة موضوعية لاستخلاص دروس العقود الماضية وتحديد معالم المستقبل، بعد أن تردت أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية، وأضيفت اليها تحديات العولمة والاندماج الاقتصادي، فضلاً عن تحديات الصراع العربي -الاسرائيلي، التي تطرح على شعبنا وأمتنا مهام النهوض لمواجهتها ودرء أخطارها.

وانطلاقا من إيمان صادق بالوطن والشعب وما يتوافران عليه من امكانيات خلاقة وقوى حية، وحرصاً على التفاعل الايجابي مع أي مبادرة جادة للإصلاح، تمس الحاجة اليوم إلى حوار شامل بين جميع أبناء الوطن وفئاته الاجتماعية وقواه السياسية ومثقفيه ومبدعيه ومنتجيه، للمشاركة في الفعاليات التي من شأنها أن تؤدي إلى نمو المجتمع المدني المؤسس على حرية الفرد وحقوق الانسان والمواطن، وإلى بناء دولة حق وقانون تكون دولة جميع مواطنيها وموطن اعتزازهم، بلا استثناء ولا تمييز. فبلادنا اليوم في حاجة إلى جهود الجميع لإحياء المجتمع المدني الذي حرم ضعفه واضعافه، في العقود الماضية، عملية النمو والبناء من قدرات وفاعليات وطنية مهمة وجدت نفسها مجبرة على الممارسة الإيجابية.

وإن ما يكتنف مفهوم المجتمع المدني من التباس ناشئ عن تعدد التجارب الديموقراطية في التاريخ القديم والحديث لا ينفي وجوده الواقعي عندنا بوصفه كينونة اجتماعية في التاريخ وفي العالم. ولا سيرورة انتقاله المتعثرة إلى مجتمع عصري وحديث التي أنتج مجتمعنا خلالها ثقافة متجددة وصحافة حرة ونقابات وجمعيات وأحزاباً سياسية وشرعية دستورية وتداولاً سلمياً للسلطة، حتى غدا من أقل الأقطار العربية تأخراً، إن لم يكن من أكثرها تقدماً. وكانت تلك السيرورة ترقى بمجتمعنا إلى الاندماج الوطني والاجتماعي، إلى أن حدث ذلك القطع المؤسس على "المشروعية الثورية" الانقلابية في مواجهة المشروعية الدستورية. ولم يكن ممكناً تهميش المجتمع المدني وتغييبه، على هذا النحو، لولا تماهي السلطة والدولة، وتماهي الشخص والمنصب الذي يشغله، وصبغ الدولة بصبغة الحزب الواحد واللون الواحد والرأي الواحد، وجعل الدولة جزءا من المجتمع لا يعترف بجزئيته، بل يقدم نفسه ممثلاً للشعب و"قائدا للدولة والمجتمع"، ويخفض المواطنة إلى مستوى الحزبية الضيقة والولاء الشخصي، وينظر إلى بقية المواطنين على أنهم مجرد رعايا. فغدت أموال الدولة ومؤسساتها وثروات الوطن ومؤسسات المجتمع المدني أيضاً كأنها اقطاعات وحيازات وملكيات خاصة توزع على الموالين والاتباع، فحلت الامتيازات محل القانون والهبات والعطايا محل الحقوق والمصالح الخاصة محل المصلحة العامة. واستبيح المجتمع وانتهبت ثرواته وتحكم من صاروا رموزاً للعسف والفساد بمقدراته، وغدا كل مواطن مشتبهاً به، بل "مداناً وتحت الطلب". وراحت السلطة تنظر إلى الشعب لا على أنه كم مهمل

وموضوع لإرادتها فحسب، بل على أنه قاصر وناقص أهلية وموضع ريبة وشك. ولم يخل الأمر من تخوينه كلما بدرت منه بوادر التعبير عن رأيه والمطالبة بحقوقه. وتجدر الاشارة هنا إلى أن تغييب المجتمع المدني أدّى إلى تغييب الدولة، مما يؤكد العلاقة الجدلية بينهما، إذ لا يقوم أحدهما إلا بالآخر. فالمجتمع المدني هو مضمون الدولة الحديثة، والدولة الحديثة هي شكله السياسي، وهما معاً يشكلان النظام الديموقراطي.

إن مجتمعنا الذي أنتج ثوراته الوطنية على الاستعمار، وحركته السياسية المناوئة للاستبداد السياسي، وأسفر عن روحه الوطنية – القومية المتوثبة إلى التحرر والتقدم، والذي صبر وصابر وقدم الكثير الكثير من الشهداء والتضحيات في سبيل الحرية والكفاية والعدل لا يزال قادراً على إعادة إنتاج حياته الاجتماعية والسياسية وإعادة بناء اقتصاده وثقافته وفق مقتضيات الحداثة ومنطق التقدم، والانطلاق في ركاب التقدم العلمي والتقني. وهو قادر على تجاوز العلاقات والبنى التي أنتجت الاستبداد وتمفصلت مع الاوضاع الامبريالية والتجزئة القومية التي نجمت عنها.

لقد باتت واضحة للعيان نتائج الانقلاب على الديموقراطية السياسية باسم الاشتراكية. وتبين للجميع مع انهيار النموذج السوفياتي واستطالاته في أوربا الشرقية وفيما كان يسمى العالم الثالث، استحالة بناء الاشتراكية أو بناء ديموقراطية اجتماعية بلا ديموقراطية سياسية. كما تبينت هشاشة الدولة التي لا تستمد مشروعيتها من المجتمع المدني والسلطة التي لا تستمد مشروعيتها من الشعب. وتبينت أكثر نتائج النظر إلى الشعب على أنه مادة أو موضوع لـ "الإرادة الثورية"، ونتائج إنكار أفرادية الواقع وتعدد مكوناته الاجتماعية والثقافية والسياسية وتنوعها، واختلاف مصالح فئاته الاجتماعية وتباينها، ومن ثم إنكار حقيقة أن القانون، بصفته ماهية الدولة وتعبيراً حقوقياً عن النظام العام، وبصفته تعبيراً عما هو مشترك بين جميع المواطنين وجميع الفئات الاجتماعية هو تسوية تاريخية بين هذه المصالح وذلك الاختلاف الذي يجب ان يكون قوام الوحدة الوطنية الفعلية. هذه التسوية التاريخية هي التي تنتج الدستور والمدونة التاريخية بما يتسق وتطور النظام العام المتأثر، بالطبع، بإيقاع التطور العالمي. لذلك فان الدساتير والقوانين تُعدّل وتُطوّر أو تُغير وفق مقتضيات هذا التطور. وعلى هذا فان مفهوم المجتمع المدني الذي انبعث من جديد في سبعينات القرن العشرين، على صعيد العالم الذي ننتمي اليه، مكانيا على الاقل، كان ولا يزال يمثل بداهة الوجود الاجتماعي، منذ انتقل البشر من الطبيعة إلى الاجتماع، أي العمران البشري والسياسة المدنية، بتعبير ابن خلدون. ومن صلب هذا المفهوم يتولد نسق مفاهيمي ينتج عنه ويشير اليه "العقد الاجتماعي" في مواجهة "الحق الإلهي" الذي ادعاه الاباطرة والملوك المستبدون لأنفسهم. وما هذا العقد سوى معادل سياسي للانقلاب العقلاني الذي جعل مركز ثقل المعرفة البشرية في الانسان، فأنتج المجتمع الحديث والفكر الحديث الدولة المدنية الحديثة التي تكفل حرية الاعتقاد وممارسة الشعائر الدينية كفالتها حرية الفكر، في ظل

الاعتراف في حقل الممارسة من حرية محددة بالقانون ومشروطة بالمسؤولية تتوجها المبادرة الخلاقة وحب المعرفة والعمل مع الجماعة ومن أجلها.

لذلك كله، تُلِحُّ الحاجة اليوم إلى إحياء مؤسسات مجتمعية واجتماعية متحررة من هيمنة السلطة التنفيذية والاجهزة الأمنية التي منحت نفسها جميع الصلاحيات، ومتحررة من الروابط والعلاقات والبنى التقليدية، كالمذهبية والعشائرية والطائفية ومستقلة عنها، وذلك لإعادة انتاج السياسة في المجتمع بوصفها فاعليته الحرة الواعية والهادفة، ولتحقيق التوازن الضروري بين المجتمع والدولة وتنسيق وظائفهما في سبيل تحقيق الحرية والعدالة والمساواة وتعزيز الوحدة الوطنية، ومن ثم توطيد هيبة الدولة وسيادتها وصيرورة القانون مرجعاً عاماً وحكماً للجميع. ففي نطاق المجتمع المدني فقط، يمكن إطلاق حوار وطني شامل قوامه حرية الرأي والتعبير واحترام الرأي والرأي الآخر، والاعتراف بما فيه من صواب، لتفعيل المشاركة الشعبية انطلاقاً من المشترك الوطني إلى المنفعة العامة والخير العام. فليس من حق أي فئة اجتماعية أو سياسية أن تقرر وحدها، ما هي المصلحة الوطنية والقومية وما هي الوسائل والأساليب الكفيلة بتحقيقها، لذلك فان على أي فئة اجتماعية أو سياسية بما في ذلك السلطة الممسكة بدفة الحكم اليوم أن تطرح رؤيتها وتصوراتها وبرنامجها على الشعب لمناقشتها والحوار حولها، وليس من حوار ممكن من دون حرية الرأي والتعبير ومن دون نقابات حرة واعلام حر وأحزاب حرة ومنظمات اجتماعية حرة ومؤسسة تشريعية تمثل الشعب حقاً وفعلاً، وليس من اصلاح ممكن من دون حوار وطني شامل، فالحوار ينتج دوماً حقائق جديدة ليست لأي من المتحاورين بل لهم جميعاً، لأنها قائمة فيهم جميعاً. ومنطق الحوار ينفي "منطق" احتكار الحقيقة واحتكار الوطنية وأي احتكار آخر. لذلك ندعو إلى اعتماد مبدأ الحوار والنقد الايجابي والتطور السلمي لحل جميع الخلافات بالتسوية والتفاهم، وهذه من أهم سمات المجتمع المدني ومزاياه.

ولا تتجلى حيوية المجتمع المدني في شيء أكثر مما تجلى في إنشاء تنظيمات طوعية غير حكومية مستقلة ومتنوعة جوهرها الخيار الديموقراطي وغايتها دولة حق وقانون تكفل الحقوق المدنية وتصون الحريات العامة. لذلك نرى في الدفاع عن المجتمع المدني دفاعاً من المجتمع المدني عن دولته وعن السلطة الممسكة بزمامها.

ولكي تثمر الاصلاحات الاقتصادية ولكي تنجح عملية مكافحة الفساد والإفساد لابد أن يمهد لها ويرافقها اصلاح سياسي ودستوري شامل، وإلا فإن هذه الاصلاحات لن تحقق المأمول منها. لذا ينبغي أن تتحول عملية الاصلاح ومكافحة الفساد إلى آلية عمل قانونية دائمة تحفز المشاركة الشعبية وتعزز الرقابة والإشراف المستمرين على مؤسسات الدولة التي هي مؤسسات نفع عام، وعلى أنشطة القطاع الخاص أيضاً في جو من الشفافية يتيح لجميع الفئات والقوى الاجتماعية والاحزاب السياسية فرص المشاركة الفعلية في التخطيط والإعداد والتنفيذ والتقويم، والتنبيه إلى الخطأ والهدر والفساد فور

وقوعها، وتمكين القضاء والهيئات الرقابية من المساءلة والمحاسبة. فان المعالجات الجزئية والاستنسابية والانتقائية لا تؤدي إلى الإصلاح.

وإذ تنطلق رؤيتنا وممارستنا من اعتبار الإنسان غاية في ذاته، واعتبار حريته وكرامته ورفاهيته وسعادته هي هدف التنمية والتقدم، والوحدة الوطنية والمصلحة العامة مبدأين ومعيارين لجميع السياسات والممارسات، والمواطنين جميعاً متساوين أمام القانون فلا تمييز بينهم على أي اعتبار كان ولا تفاضل في المواطنة، مادام التمييز والتفاضل ينتجان دوماً أصحاب امتيازات ومحرومين من الحقوق، ويبذران من ثم بذور التفرقة والشقاق وينحطان بالعلاقات الاجتماعية إلى ما دون السياسة، وإذ تنطلق رؤيتنا وممارستنا كذلك من حقيقة أن السياسة الحقة هي التي تنعقد جميع دلالاتها على المصلحة الوطنية/ القومية والانسانية لا على المصالح الخاصة والأعمال الفردية، وأن الإنجازات الوطنية تنسب إلى الشعب لا إلى الافراد وأن الفئات الاجتماعية والاحزاب السياسية إنما تتحدد بالكل الاجتماعي والوطني ولا تحدده، وأن الشعب هو مصدر جميع السلطات فإننا نرى في الإصلاح السياسي مدخلاً ضرورياً ووحيدا للخروج من الركود والتردي وإخراج الإدارة العامة من عطالتها المزمنة، وأن المقدمات الضرورية للإصلاح السياسي والتي لم تعد تحتمل التأجيل هي الآتية:

١-وقف العمل بقانون الطوارئ وإلغاء الأحكام العرفية والمحاكم الاستثنائية وجميع القوانين ذات العلاقة، وتدارك ما نجم عنها من ظلم وحيف. وإطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين وتسوية أوضاع المحرومين من الحقوق المدنية وحق العمل بموجب القوانين والاحكام الاستثنائية، والسماح بعودة المبعدين إلى الوطن.

٢-إطلاق الحريات السياسية ولا سيما حرية الرأي والتعبير، وقوننة الحياة المدنية والسياسية بإصدار قانون ديموقراطي لتنظيم عمل الأحزاب والجمعيات والنوادي والمنظمات غير الحكومية، وخاصة النقابات التي حولت إلى مؤسسات دولتية، ففقدت كلياً أو جزئياً الوظائف التي أُنشِئت من أجلها.

٣-إعادة العمل بقانون المطبوعات الذي يكفل حرية الصحافة والنشر والذي تم تعطيله بموجب الأحكام العرفية.

٤-إصدار قانون انتخاب ديموقراطي لتنظيم الانتخابات في جميع المستويات، بما يضمن تمثيل فئات الشعب كافة تمثيلاً فعلياً، وجعل العملية الانتخابية برمتها تحت إشراف قضاء مستقل، ليكون البرلمان مؤسسة تشريعية ورقابية حقاً تمثل إرادة الشعب ومرجعاً أعلى لجميع السلطات وتعبيراً عن عضوية المواطنين في الدولة ومشاركتهم الإيجابية في تحديد النظام العام. فإن عمومية الدولة وكليتها لا تتجليان في شيء أكثر مما تتجليان في المؤسسة التشريعية وفي استقلال القضاء ونزاهته.

٥-استقلال القضاء ونزاهته وبسط سيادة القانون على الحاكم والمحكوم.

٦-إحقاق حقوق المواطن الاقتصادية المنصوص على معظمها في الدستور الدائم للبلاد ومن أهمها حق المواطن في نصيب عادل من الثروة الوطنية ومن الدخل القومي، وفي العمل المناسب والحياة الكريمة، وحماية حقوق الأجيال القادمة في الثروة الوطنية والبيئة النظيفة. فإنه لا معنى لتنمية اقتصادية واجتماعية إنْ لم تؤدِ إلى رفع الظلم الاجتماعي وأنسنة شروط الحياة والعمل ومكافحة البطالة والفقر.

٧-إن الإصرار على أن "أحزاب الجبهة الوطنية التقدمية" تمثل القوى الحية في المجتمع السوري وتستنفد حركته السياسية وأن البلاد لا تحتاج إلى أكثر من تفعيل هذه الجبهة، سيؤدي إلى إدامة الركود الاجتماعي والاقتصادي والشلل السياسي فلا بد من إعادة النظر في علاقتها بالسلطة وفي مبدأ الحزب القائد للدولة والمجتمع وأي مبدأ يقصي الشعب عن الحياة السياسية.

٨-إلغاء أي تمييز ضد المرأة أمام القانون.

وبعد فإننا من منطلق الاسهام الايجابي في عملية البناء الاجتماعي وفي عملية الاصلاح، نتداعى وندعو إلى تأسيس لجان إحياء المجتمع المدني في كل موقع وقطاع، هي استمرار وتطوير لصيغة "اصدقاء المجتمع المدني" علّنا نسهم، من موقع المسؤولية الوطنية، ومن موقع الاستقلال في تجاوز حالة السلبية والعزوف والخروج من وضعية الركود التي تضاعف تأخرنا قياساً بوتائر التقدم العالمي. وعلّنا نخطو الخطوة الحاسمة التي تأخرت عقودا في الطريق إلى مجتمع ديموقراطي حر سيد مستقل "يسهم في ارساء أسس جديدة لمشروع نهضوي يضمن مستقبلا أفضل للأمة العربية".

(ملاحظة: تمّ استثناء أسماء الموقّعين رغم أهميتها، بسبب ضيق المساحة على العدد الكبير).

إعلان بيروت- دمشق...إعلان دمشق- بيروت

تَشهد العلاقات اللبنانية السورية تدهوراً متسارعاً بات يُهدِّد بتكريس شرخ عميق بين البلدين الجارين والشعبين الشقيقين. لقد اتسع نطاق هذا التدهور منذ إجراء عملية التمديد للرئيس اللبناني إميل لحود، في انتهاك لروح الدستور اللبناني وفي استهتارٍ برأي أكثرية اللبنانيين، ثم تصاعد، بوتائر شديدة الخطورة، مع ارتكاب جرائم الاغتيال السياسي التي أودت بحياة شخصيات سياسية وحزبية وإعلامية ومواطنين أو طاولتهم وفي المقدمة منها جريمة اغتيال الرئيس رفيق الحريري.

شعوراً بالقلق الشديد من هذا التدهور الخطير، تداعى عدد من أصحاب الرأي في سورية ولبنان لعقد سلسلة من النقاشات والحوارات، خلال شهري شباط وآذار، توافقوا خلالها على ضرورة العمل، قولاً وفعلاً، من أجل التصحيح الجذري للعلاقات السورية اللبنانية بما يلبّي المصالح والتطلعات المشتركة للشعبين في السيادة والحرية والكرامة والرفاه والعدالة والتقدم.

لسنا بغافلين عن أنَّ العلاقات بين سورية ولبنان محمَّلة بعدد من المشكلات تراكمت مفاعيلها عبر عقود منذ قيام الكيانين السياسيين ابتداءً من العام ١٩٢٠. وقد جاء تدخل النظام السوري في

الحروب اللبنانية (١٩٧٥ . ١٩٩٠) والوصاية التي مارسها على لبنان فترة ما بعد الحرب، وتحكمه الأمي بقرار لبنان السياسي والاقتصادي، لتزيد تلك المشكلات حدَّةً وتعقيداً. نعتقد أن تلك التجارب المريرة تحتاج إلى وقفات تأمُّل ونقاش ومراجعة نقدية مشتركة على شتى الصعد، ونحن نعلن، هنا، استعدادنا الكامل للمساهمة في الاضطلاع بتلك المهمة.

لكننا نود، في حيِّز هذا الإعلان، أن نستعيد أيضاً ما يختزنه تاريخ شعبينا من نضالات وتضحيات مشتركة، متذكِّرين، في هذا الصدد، شهداء ساحتي المرجة، في دمشق، والبرج، في بيروت، خلال العامين ١٩١٥ و١٩١٦، والانتفاضات الوطنية والشعبية ضد الانتداب الفرنسي عندما كانت المدن اللبنانية تقفل وتتظاهر ويتلقى شبّانها الرصاص بصدورهم تضامناً مع انتفاضات المدن السورية والعكس بالعكس. ولقد توقفنا أمام المسؤولية الكبرى التي تتحمَّلها الطبقات الحاكمة في البلدين في الدفع نحو القطيعة الاقتصادية عام ١٩٥٠ ووأد الحلم المشترك لروَّاد الاستقلال في تأسيس دولتين مستقلتين تقيمان أوثق العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية بينهما. على أن طغيان تلك المصالح الضيِّقة لم يمنع الشعبين من تجديد نضالهما المشترك من أجل قضية فلسطين وضد الأحلاف العسكرية الدولية والإقليمية وصولاً إلى تضامنهما، خلال العقود الأخيرة، في التصدي للعدوان الإسرائيلي عليهما واحتلاله لأجزاء من أراضيهما وقد أثمر التصدي في لبنان تحرير جنوبه المحتل.

تأسيساً عليه، وفي زمن تتكاثر فيه العوامل الضاغطة من أجل المباعدة بين السوريين واللبنانيين، نعلن إصرارنا على الحوار والتضامن والعمل المشترك من أجل التصحيح الجذري للعلاقات بين البلدين والشعبين وفقاً لرؤية وطنية مستقبلية مشتركة هذه بعض مكوناتها:

أولاً: احترام وتمتين سيادة واستقلال كل من سورية ولبنان في إطار علاقات ممأسسة وشفافة تخدم مصالح الشعبين وتعزز مواجهتهما المشتركة للعدوانية الإسرائيلية ومحاولات الهيمنة الأميركية. وإننا ندعو في هذا المجال إلى إرساء تلك العلاقات على أسس نابذة لمشاريع الإلحاق والاستتباع من جهة والاستعلاء والتقوقع والقطيعة من جهة أخرى.

في هذا الصدد، يطالب المشاركون السوريون بضرورة الاعتراف السوري النهائي باستقلال لبنان ومغادرة كل تحفظ وموارية في هذا المجال. ويُعلن المشاركون السوريون واللبنانيون معاً تمسُّكهم الحازم بالحيلولة دون أن يكون لبنان أو سورية مقراً أو ممراً للتآمر على البلد الجار والشقيق أو على أي بلد عربي آخر. وإننا معاً نرى أن الخطوات الأولى في هذا الاتجاه تتمثَّل بترسيم الحدود نهائياً والتبادل الدبلوماسي بين البلدين.

ثانياً: نعلن تمسكنا بحق سورية في استعادة كامل أراضيها المحتلة في الجولان واستعادة لبنان أرضه التي لا تزال محتلَّة في مزارع شبعا وتلال كفرشوبا بكافة الوسائل المتاحة بعد الإعلان الرسمي السوري عن لبنانيتها تحت مظلة الشرعية الدولية، كما نؤكِّد تمسكنا بحق الشعب الفلسطيني في إقامة دولته

المستقلة وعاصمتها القدس وبما يضمن لفلسطينيي الشتات حق العودة إلى وطنهم التزاماً بالمواثيق وتنفيذاً للقرارات الدولية.

ثالثاً: نؤكِّد أنَّ الاختلاف في الأنظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية بين بلدينا قابل لأن يكون مصدر غنى وتنوّع وتكامل لا يحول إطلاقاً دون التعاون والتنسيق والتكامل بينهما. على أن هذا يشترط إجراء تصحيح لتلك الأنظمة بناءً على مراجعة نقدية شاملة للتجارب الماضية في البلدين معاً. وإننا نعلن في هذا الصدد عن اقتناعنا العميق بأنَّ البلدين قادران على ابتكار رؤية للتنسيق والتكامل بينهما بما يحقِّق تزخيم الطاقات والإمكانات والمزايا التفاضلية التي يزخران بها خصوصاً في مواجهة التحديات المتعددة التي تطرحها العولمة وفي الآفاق الواسعة التي تفتحها.

رابعاً: نطالب بضرورة احترام وتنمية الحريات العامة والخاصة وحقوق الإنسان وبناء دولة القانون والمؤسسات والانتخابات الحرة والنزيهة وتداول السلطة ووحدة الدولة وبسط سلطتها على كامل ترابها الوطني. ونؤكِّد على الأهمية الاستثنائية التي تكتسبها مسارات التحوُّل الديمقراطي في حماية الاستقلال وتعزيز قدرات شعبينا في معاركه الوطنية والقومية. بل نصرُّ على أنَّ سيادة نظم ديمقراطية في البلدين يشكل أفضل ضمانة لقيام ورسوخ علاقات متكافئة وسليمة بينهما. لكننا نتمسَّك، في الآن ذاته، بحق الشعبين في أن يختارا، وبكامل الحرية، النظام الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الذي يتلاءم وتطلعاتهما من دون أي إكراه.

خامساً: ندعو إلى إرساء العلاقات الاقتصادية بين البلدين على الشفافية والعلانية والتكامل بما يراعي المصالح الشعبية لا جشع حفنة من المتحكِّمين بالاقتصاد والسلطة. على أن هذا يستلزم، أول ما يستلزم، تحرير اقتصاد البلدين من النهب المنظَّم لثروة البلدين ومواردهما الذي كانت تمارسه، وما تزال، مافيات مشتركة مستفيدة من مواقع حماية وانتفاع في سلطة البلدين.

سادساً: ندين الاغتيال السياسي بما هو وسيلة جرمية للتعامل مع المعارضين وحل النزاعات السياسية، ونشدِّد على ضرورة تسهيل مهمة لجنة التحقيق الدولية من أجل كشف المحرِّضين والمنظِّمين والمنفِّذين في جريمة اغتيال الرئيس رفيق الحريري ورفاقه وفي الجرائم الأخرى وتحميلهم المسؤولية الجزائية والسياسية على جرائمهم وإنزال العقوبات التي يستحقونها أمام القضاء الدولي والرأي العام. ونرفض، في مطلق الأحوال، أي محاولة لفرض العقوبات الاقتصادية وسواها على الشعب السوري.

سابعاً: نستنكر أشكال التمييز والعنف التي تمارس ضد العمال السوريين في لبنان. ونطالب السلطات اللبنانية بتعقُّب المتَّهمين بجرائم الاعتداء على هؤلاء العمال وصولاً إلى القتل وكشفهم واعتقالهم وتقديمهم إلى المحاكمة ليلقوا الجزاء الذي يستحقون.

ثامناً: لسنا بغافلين عن المشكلات التي يثيرها وجود العمالة المتبادلة بين البلدين وخاصة العمالة السورية في لبنان وما تتركه من آثار على أوضاع الفئات العاملة ولا سيما في موضوع الأجور والضمانات

الاجتماعية ما يتطلب ضرورة سن قوانين تنظم انتقال العمالة واستخدامها بين البلدين لضمان مصالح العمال وحقوقهم.

تاسعاً: نطالب السلطات السورية باتخاذ الإجراء الفوري لإطلاق سراح جميع المساجين والمعتقلين اللبنانيين في السجون والمعتقلات السورية والكشف النهائي عن مصير المفقودين.

عاشراً: إنَّ العمل المشترك لتصحيح العلاقات بين البلدين وتحقيق استوائها على مقام الندية والثقة والاحترام المتبادل يستدعي مراجعة مجمل الاتفاقات والمعاهدات الموقعة بين سلطات البلدين، اختتاماً لمرحلة منقضية وافتتاحاً لأخرى تقوم على التكافؤ والتعاون والمصالح المشتركة.

إنَّ هذا الإعلان يكتسب شرعيته وقوَّته من قِبَل الموقعين عليه.

بيروت في ٢٠٠٦/٦/٤

(ملاحظة: تمّ استثناء أسماء الموقّعين رغم أهميتها بسبب ضيق المساحة على العدد الكبير).

جمال الشوفي

دكتوراه في الفيزياء النووية جامعة القاهرة، ٢٠٠٨. كاتب وباحث في الدراسات الفكرية والثقافية والسياسية.

حاصل على جائزة مسابقة ياسين الحافظ في الفكر السياسي/مركز٣، عن بحث بعنوان: كسر الأطواق وسؤال القيمة، المثقف بين هزيمة وتحول، مركز حرمون للدراسات، ٢٠١٧.

له العديد من الكتب المنشورة.

الكتابة والحرية: سيميائيات المفارقة المغايرة

ملخص

الكلمة وجود يحاول الاكتمال حين ترتقي بذواتنا الضعيفة لمصاف الانوجاد الإنساني، والحرية شرطها الأول، وحيث إن الواقع الإنساني متعدد الأبعاد يصبح إيجازه في نص أو كلمة غاية في القسوة. وهو ما يلقي بتلك المسؤولية الكبرى على دور الكلمة، فقد تشكل رافعة وجودية وتحدث دلالة في تجاه إنساني، وذاتها ستمثل دلالة موت حضاري أو صنم فكري يقوض الحياة ما دونها! ولنا في كلمة الحرية وإرادة الشعب الحية اتساع في المعنى والدلالة، فحيث تكتسي اللغة بعداً وجودياً وتعاطفاً إنسانياً، تتحول لثقافة وعقل تواصلي، هي سيمياء دلالية وتواصلية بآن، هي مدلول كما هي موضوعة وتصور مفهومي وبالضرورة هي حلم لم يتحقق بعد.

الكتابة اليوم، نمطية كانت، أدبية، فكرية، سياسية، فلسفية، ضرورة وجود وبقاء، حقيقة كبرى تشق وعر الثقافة والفكر المرتهن لسياسة السلطات التي تحرم على شعوبها الحرية، وعليها ألا تعجز، عليها أن تنحت من صلادة الحروف جملاً وكلمات تليق بقدرة الشباب ومستقبلهم، وإلا صعب على العابرين من بعدنا أن يعلموا ماذا جرى؟ وكيف جرى؟ وكيف تجرأت شعوب على الحلم غير نادمة على امتشاقها كرامتها الإنسانية والحقوقية، رغم ما عملت بهم أدوات القتل الفكري والثقافي كما السياسي حتى حولتهم لشعوب منثورة في كل شتات الكون...

المقدمة

النقد ليس مجرد تجربة غايتها المتعة العقلية للكاتب أو القارئ، فحيث تبدو عملية النقد سلباً وإيجاباً هي الأسهل بالمبدأ، لكنها التجربة الأصعب على أولئك الباحثين عن روح أمة في حضورها العصري والتحرري.

النقد والكتابة النقدية تغدو وكأنها لحنٌ على لحم يحترق وجلد يتمزق حين تختار الانحياز لصورة العالم الجديد وإثبات أحقيته خلاف السائد والمألوف! هي لغة تمتلك دهشة الاختلاف والمغايرة مع أنها تكتب بذات الحروف والكلمات؛ مغايرتها واختلافها أنها ذات دلالات ورموز باعثة على القدرة الوجودية والكلامية وفق معنى مختلف، تحاورها أدوات التحليل لعلوم السيميائيات الوضعية منها والمحدثة.

الكتابة النقدية وهي تحاول الانفلات من قواعد اللغة النمطية الوصفية وأقفاصها الحديدة المرصودة بمرجعية الموروث والثقافة والإيديولوجيا المغلقة بحكم المألوف والمعروف والسائد، تنتقل فجاءةً من عالم يبدو "مفهوماً" كليةً وقابلاً للتنميط والاتساق، حاملة معها صورة الواقع الحسي بكل تجلياته، إلى وجود مختلف يرتقب لغة الخلق والانبعاث، ولنقل: وجود أكثر إنسانية. لغة تنعتق من أسوار السلطة المتعددة الأوجه والمتموضعة في شكل خضوع مثلته ذات اللغة! لغة الحرية في مواجهة السلطات، والسلطة لغة بالجذر والهوية! ولربما جاز لنا القول خلف رولان بارط (بارت) أن ((الشيء الذي ترتسم فيه السلطة ومنذ الأزل هي اللغة، أو بتعبير أدق هي اللسان، فاللغة سلطة تشريعية، اللسان قانونها))[1].

في لحظة التغيرات الكبرى، لحظة "الطّف، الفضل، الفارق" الوجودي، امتلاك بواكير الحمل الجديد وتشكلِ براعم الحياة، تغدو الكتابة العمل الأشقى والأكثر قسوة وانفعالاً، وسيميوطيقا توترية من حيث ((إخضاع الوجداني والذاتي والانفعالي والجسدي لما هو خارجي في ضوء معايير قياسية وكمية لمعرفة الشدة والمدى معا))[2]، وضرورة وجود حتى وإن لم تطرح البديل المكتمل كما لحنّها كانط: ((إذا كان النقد يعد بمثابة الخطوة الأولى نحو بناء النسق الفلسفي، فمن الممكن أن يعد الخطوة الأولى والأخيرة، ولا ينتقص ذلك من مكانة الناقد))[3].

بين هذا وذاك تنفرد جملة "الشعب يريد"! كلمتان قابلتان للإعراب والتنميط اللغوي والنحوي بالمبدأ، لكن أن تكتسي صورة حياة وفعل متعدد الانتشار، كانتشار عدوى التثاؤب، حينها تصبح دلالة سيميائية وتصور مفهومي وحضور تواصلي جمعي؛ محاولة لتغيير صورة وواقع الاستبداد القائم، لعالم آخر يكافيء موضوعياً قدرة الشعب الذي يريد، وارادته هذه حرية وحياة كريمة تاق لها. لكن، وأكرر ألفاً، هذه الـ "لكن" لعنة كبرى واستدراك يشوبه الموت والقهر!

---

[1] - بارط، رولان، درس السميولوجيا، ١٩٩٣، ط٢، ترجمة بنعبد العالي، دار توباقال للنشر، الدار البيضاء، ص ١٢.

[2] - حمداوي، جميل، سيميوطيقا التوتر بين النظرية والتطبيق، المجلة الثقافية الجزائرية، ٢٠١٣/٨/٧. https://thakafamag.com/?p=3540

[3] - كانط، إيمانويل، أنطولوجيا الوجود، ٢٠٠٩، ترجمة جمال محمد أحمد سليمان، دار التنوير، بيروت، ص ١.

لكن، في المعبد آلهة تتلو قصة الموت، أسطورة الوجود حيث كانت النار شهية طهي؛ النار وقد التهمت جسد البوعزيزي[٤] معلنة تفتح ثورات الربيع العربي، كما ومتواليات القتل الجزافي والهدر الوطني أيضاً! إذاً، ضع في القدر أطفالاً ونساء، أضف عليها قليلاً من ثقافة "السلام" نكهة، ولا تنسى ملح "حقوق الإنسان"، أضف للنار حطباً من "حضارات الشرق"، وكثير من ثارات الأديان حين يصبح القتل شهوة الحاضر! ولتنفخ فيها بأحلام القوة وشهوة المُلك وسطوة الحكم! تستعر النار وتستوي على مهلٍ طبخة اللحم الشهي، وجبة الشعوب وحقوقها وحرياتها المَنهوبة، وجبة من شهوة العهر البشري في الالتهام. صراخ أطفال وأجيال يأكلها معبد الموت هذا، معبد اللغة العجفاء حين تعجز عن وصف عُشر المشهد، فكيف المشهد بكليته وكثافة حضوره؟ وكيف للغة بدايةً، والسيميائية كعلم حديث، موضوعنا المنهجي، ثانياً أن تبعث فيه الحياة والمعنى وتضعه في سياق ثقافي ذو دلالة ورمزية للحرية ومبعث للكتابة النقدية باتساع بحورها؟

لكن، واللكن بوابة أخرى للنور، حيث الضمّة حركة عطف، والفتح ايماءة جديدة، والسكون لحظة تأمل، ومجموعها دلالة ورمز حياة تنوجد. فكلما آثرت جملة للقول، في سياق التوصيف، "ماركسيةً" أو "اسلاميةً، "قومية" أو نهجاً في "العَلمانية"، كانت اللغة عاجزة، وربما كان الفكر البشري أيضاً قد أصيب بعقم التجديد؟ كيف لا وكلما سطرت جملتين متعاقبتين ونحتّ القول وشددت في المعنى أخذني الاستدراك بعيداً، وكان الوصف قَبضُ ريح!

الدخان دلالة نارٍ، وعتمة المعبد دلالة ثقافة مظلمة موغلة في الموت. وقد يحلو للكثير التأويل والتغيير في نماذج اللغة والتنميط، فتنقطع الصورة عن مشهدها وتصبح مجازاً قابلاً للقولبة حسبما يريد صاحب السلطة/اللغة! فلربما الدخان المنبعث من جسد البوعزيزي "مؤامرة كونية" على الأمة، أو أن البوعزيزي ذو مشاكل نفسية، أو أنه قد قبض ثمن فعلته! كما وصوت طفل نادى أباه "أمانة عيوني" حين داهمت شظية عينيه ففقد بصره، تمثيلية في عتمة كواليس التلفزة والقنوات الإعلامية المغرضة والمشبوهة! ولربما ولربما...

المنهجية والأسئلة البحثية:

"تكلم حتى أراك" هكذا أراد سقراط الكلمة تعبير دلالي عن الوجود المتعين في حديه المنطوق لغة والمرئي شكلاً، الواضح تعبيراً والجلي حضوراً. هي الكلمة إذا أداة التعبير والفكر، وكثافة المعنى والحضور، لكن هل تكفي الكلمة حين يغدو الحدث أشد ألماً وتعقيداً فتعجز اللغة عن الوصف؟ وهل يمكن الاكتفاء بالكلمات النسقية والنمطية دون الأخذ بدلالتها وشكل تموضعها المختلف والمغاير عن المألوف، ولنقل بلغة السميولوجيا علامتها المفارقة/ المغايرة لغة وصوتاً وحدثاً، وبالضرورة صورة عالم يتشكل بمفاهيم جديدة كما وحياة تباد؟

---

[٤] - طارق الطيب محمد البوعزيزي، الذي أوقد في نفسه النار أمام مقر ولاية سيدي بوزيد التونسية احتجاجاً على مصادرة السلطات البلدية لعربة كان يبيع عليها الخضار والفواكه لكسب رزقه، وذلك في ١٧/ ديسمبر ٢٠١٠.

متى يمكن للكلمة ان تبقى أمينة لمحتواها دون تأويل أو تفريط بالمعنى؟ وهل يمكن الاكتفاء بالبعد السميولوجي الذي حدده بارط/ بارت بمراوغة اللغة وخيانتها، حيث ((هذه الخيانة الملائمة وهذا التلافي والهروب، هذه الخديعة العجيبة التي تسمح بادراك اللغة خارج سلطتها، في عظمة ثورة دائمة للغة، هذا هو ما أطلق عليه أدباً، والكتابة الأدبية تجعل المعرفة احتفالاً))[٥]، وربما لزاماً علينا القول أنّ ممارسة الكتابة أدباً، وفناً وشعراً، ايماءة وتصريحاً، هي ضرورة وجود يحاول الانبعاث، أنه زمن التغيير وعلى الكلمة ان تكون على قدره وأكثر.

للكلمة دلالة ثقافية وفكرية، تحاولها السميولوجيا (Semiotics) ألسنياً و/أو دلالياً، فكما الدخان دلالة على النار، الكلمة في محتواها تدلل على المعنى المقارب كما الحدث. وفي سياق الكلمة وأثرها الفكري والثقافي سنستعين بالسيميائية كعلم دلالي يربط بين الكلمة والسيكولوجيا والمعنى وبالضرورة الهدف، كمحاولة منهجية في التحليل المقارن لمحتوى الكلمة وبعض أمثالها في ركب الربيع العربي، سواء من حيث قدرتها على تشكيل محتوى ثقافي انساني أو انزلاقها للالتصاق بالأيديولوجيات الشمولية التسلطية شكلانيةً وتحريضياً على العنف وهدم محتوى حياة.

السيميائية والخلفية التاريخية:

على الرغم من أنه، تاريخياً فلسفياً وفكرياً، قد عرفت السيميائية (السيميوطيقا، السميولوجيا) كظاهرة لغوية تدلل على الرمزية التي تدلل على حدث ما كالدخان التي تدلل على النار، وعلامات الدلالة على المرض وتشخيصه عند الإغريق ولليوم، إلا أن السيميائية، كعلم بذاته، لم تظهر إلا حديثاً مع بدايات القرن العشرين مع كل من اللغوي السويسري فريناند دي سويسر (Ferdinand de Saussure)، والفيلسوف الأمريكي شارلز ساندرز بيرس (Charles S. Peirce).

تنبأ دي سوسير بظهور علم السميولوجيا (Semiologie)، المشتق من الكلمة الإغريقية دلالة (Sémion)، كعلم ((يدرس العلامات والدلالات في الحيز المجتمعي كجزء من علم النفس العام، له الحق في الوجود وقد تحدد موضوعه بصفة قبلية، وليس علم اللسان إلا جزءا من هذا العلم العام))[٦].

هذا، بينما ذهب بيرس في اتجاه فلسفي لعلم السيميوطيقا (Semiotique)، حيث أن العلامة ثلاثية هي: الدال/ المدلول الذي له علاقة بموضوع، وهذه العلاقة تفترض صورة ذهنية للعلامة. وحسب بيرس فإن السيميائية يمكن أن تكون مرجعية لكل العلوم وتشملها جميعاً فأية ظاهرة رياضية أو فيزيائية او لغوية أو جيولوجية ...إلخ، هي علامة ذات أبعاد ثلاث: ((الأولية والتي تفهم بمعنى الإحساس، وهي مجرد إمكانية وتمثل في السيمولوجيا العلامة، والثانوية وتمثل الحقائق الفجة التي تنتج من

---

[٥] - بارط، رولان، مرجع سابق، ص ١٤.

[٦] - دي سوسير، فريناند، محاضرات في علم اللسان العام، ١٩٨٧، ترجمة عبد القادر قنيني، ط١، أفريقيا الشرق، المغرب، ص ٢٦.

ظاهرة ما، وتمثل الموضوع، بينما الثالثية وهي مجال القوانين العامة والتي تعود للمفهوم وبالضرورة الصورة الذهنية))[٧].

تشترك السيميائيات في كل أنماطها وأنساقها في موضوعتي الدلالة والرمز حسياً (طبيعياً) و/أو لغوياً (نصياً وفكرياً)، ليتطور علوم السيميائيات في تخصصاتها وافتراقها بين السيمولوجيا والسيميوطيقا، وكل واحدة تحاول احتواء الأخرى. فسيميائيات اللسان مختصة في علوم اللغة واللسان والصوت، متجاورة ومتوازية مع سيميائيات برمجية ورقمية ودلالية وحسية طبيعية، يتفقان معاً بجذر واحد هو الدلالة والعلامة والمعنى المتشكل ظاهراً منها أو كامناً (باطناً). وجميعها تحاول البحث عن الدلالة وفق مظاهر متباينة بشكل صور افتراضية للمعنى سواء بكليته أو تفاصيله الجزئية، لتأخذ شكلاً معيناً قابلاً للتصنيف سيميائياً، كتلك التي عالجها غريماس تصنيفياً بين احتمالات متعددة تتشابك وتتقابل دلالياً في النماذج المجتمعية فـ((المجتمعات البشرية تقسم عوالمها الدلالية إلى بعدين، الحضارة والطبيعة، وتعرف الأولى من خلال المضامين التي تؤسسها أو التي تركز فيها، أما الثانية فتعرف من خلال المضامين التي ترفضها))[٨]. ومع المدرسة الفرنسية، يولي غريماس أهمية بالغة لتلك التضايفات بين العالم المحسوس واللغة الطبيعية لما لها من أهمية على صعيد العلامات الثقافية عموماً والصورة خصوصاً، حيث ((يتولى العالم الطبيعي من خلالها دور تكوين الأشكال اللسانية ومنحها الدلالة المحايثة))[٩].

وتبحث اللسانيات في العلامات والدلالات اللغوية والنصية ذات الترابط والتشارك كما الاعتباطية والعشوائية بغية ردها لمرجعية عمومية عامة، تفيد بشمول علوم اللسان العامة وذلك ((وفق منهج علمي يضاهي منهج العلوم البحتة ربطاً ودقة وموضوعية، ويسمح باستنباط قوانين وكليات تتوافر في الألسن مهما كانت الفصائل اللغوية التي تنتمي إليه))[١٠].

في الكلمة والثقافة كما اللغة، ثمة أنساب قديمة حاولت في الاعراب والتصريف والنحو، لكنها ومع تطورها اللافت والكبير، بقيت أسيرة المرجعية الثقافية او القَبْلية، فثمة العربية، واللاتينية والصينية والفرنسية، كأعراق قومية بذاتها، لكن العصر الحديث بات يؤشر لوحدة كونية، لمرجعية إنسانية عامة، ففي اللغة بدأت تبرز الألسنية وعلوم الصوتيات والفونتيك[١١]، كما وبدأت تتحرر علوم الرمز والدلالة وعلاقتها باللغة من جهة وبالحدث الحسي من جهة أخرى. فقد برزت في العصر الحديث عدة محاولات أبستمولجية تحاول الوصل بين المعرفة ونظرياتها وبين العلم وتطور أدواته التقنية، ومنها السيميائية، والتي تحاول أن تكون علماً ذا شمول معرفي وعلمي بآن مكتمل القواعد. تلك المحاولات

---

[٧] - كوبلي، بول وجانز، ليستا، ٢٠٠٥، علم العلامات، ترجمة جمال الجزيري، المجلس العلى للثقافة، القاهرة، ص ٣٣- ٣٤.

[٨] - غريماس، جوليان الجيرداس، في المعنى، دراسات سيميائية، ١٩٩٩، ترجمة نجيب غزاوي، مطبعة الحداد، اللاذقية، سورية، ص ٥١.

[٩] - الشيباني، عبد القادر فهيم، معالم السيميائيات العامة: أسسها ومفاهيمها، ٢٠٠٨، ط ١، سيدي بلعاس، الجزائر، ص ٤٣.

[١٠] - مارتان، روبير، مدخل لفهم اللسانيات، ٢٠٠٧، ترجمة عبد القادر المهير، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ص ١٣.

[١١] - طحان، ريمون ودنيز، فنون التقعيد وعلوم الألسنية، ١٩٨٣، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

قادت الباحثين للعمل في علومه المتخصصة وتبويبها في أنساق وأنماط، كسميولوجيا الدلالة والتواصل واللغة والثقافة وهي محاولتنا المنهجية في موضوع الكلمة والثقافة ومفارقات دلالات الحرية في الربيع العربي.

لكن من الضرورة القول أنّ اللسان والمنطوق من القول هو فيصل العملية المعرفية تلك: فحسب، الشيباني ((تظل إمكانية التأسيس لأي نموذج دال جديد مرهونة بمدى تقاطعه مع اللسان، ضمن مظهر أو أكثر. تتمتع العلامة بوصفها عنصرا دنيويا داخل اللسان بمظهر دلالي مستقل، تستطيع من خلاله أن تؤسس للمظهر السيميائي للسان، أي لنسقيته الدالة))[١٢]. والمظهر السيميائي مشروط بالدوال والتكرار الزمني، فهل تلك الجمل اللفظية التي قدمتها لفظيات المظالم الكارثية والدموية يمكنها أن تشكل نسقاً لسانياً ومظهراً سيميائيا في نمو نزعتي الحرية والكلمة؟ وليست أي كلمة، بل تلك الكلمة الموطنّة في عرف الإنسان كأداة للفكر، ودلالة محتوى، ورمز دلالي، كما هي تعبير وجودي بآن، دون هذا الفصل الاجرائي المتخذ في أنساق السيميائية.

سيميائيات الإرادة، الدلالية والتواصلية

"الشعب يريد" دهشة وجود وحاضر شعبٍ قرر أن يختار حرية وجوده المختلف! حضوره الإنساني التواصلي، لغته العصرية وقد تكلم بعد أن صمت دهراً. الشعب يريد فعل تواصلي باللغة والكلمة، بالتوافد والشعور الجمعي، بقوة الحياة وإرادة التغيير لمستقبل في دولة تمثله، لا حاضر في بوتقة استبداد قهري يأكل تاريخه وحاضره ومستقبله. سيمياء تواصلية انتقلت من مرحلة الدلالة العفوية للقصدية الجمعية، والقصدية كانت هنا مبعث حياة وولادة جديدة، فهل ثمة لغة وثقافة تواكبها وتحدّث في بنيانها؟

كلمتان مثلتا منحى تغيري في عالم اليوم، خط اختلافي وخلافي بآن! اختلافه في كونه شكل موجات متعاقبة من صعود الوجع الشعبي الرازح تحت آلة القهر والقمع السلطوية في معظم عواصم الوطن العربي المسماة زوراً جمهوريات (للوحدة والحرية الاشتراكية)! وخلافي أيضاً كونه حمل بين طياته تفارق في التفسير والتأويل، التباين والتنازع، كما محاولة التوجيه القصدية لتقديم موقعتي الكبح السلطوي والمعاوقة المجتمعية بما تمثله من بنى ثقافية وفكرية وموروث تقليدي متكلس؛ فكانت الحرية في نزاع مع أصنامها، لا السلطوية والعسكراتارية وحسب، بل اللغوية والفكرية أيضاً. وبالضرورة يمكن التمييز سيميائياً بين سيمياء دلالية، هي فعل سيميائي مكتمل الأركان وتحاول أن تصبح سيمياء تواصلية تعيد للكلمات معناها وفق صير ركب الحرية، في مقابل سيمياء قصدية تواصلية موجهة وغرضية سلطوياً يجب تعرية علامتها وكشف مدلولاتها.

---

[١٢] - الشيباني، عبد القادر فهيم، مرجع سابق، ص ٣٥.

سيميائيات الدلالة: العفوية والمفلقة

"أمانة عيوني"[١٣]، "يا بابا شيلني"[١٤]، "سأخبر الله بكل شيء"[١٥]، نصوص ثلاثة وردت على لسان أطفال سوريين، تكررت مئات المرات بل آلافها، لتكرار تعرض الأطفال لآلة القمع والقتل المتوالية، لكن ربما لم تظهر على وسائل الاعلام المرئي والمكتوب والتفاعلي إلا بشكل محدود. وربما يقول ناقد سيميائي مختص انها لم تكتمل أركانها للدراسة التحليلية لعدم تكراراها وتواليها. لكن لو اكتفينا بانقطاع اللغة عن الحدث ذاته، فلو بقي حادث حرق البوعزيزي لنفسه حدثاً وسلوكاً شخصياً، لكان المشفى كفيل بعلاجه، والتأمينات كفيلة بدفع الضرر الذي تعرض له من جراء اعتداء الشرطة عليه. ولبقت صرخات الأطفال هذه وجملهم كدلالة نتف الثلج على الشباك بوجود الصقيع، لا تتضمن أية دلالة سوى أن الثلج والصقيع موجود، لكن قصة موت بائعة الكبريت متجمدة تحولت لسيمولوجيا دلالية أولاً، وتواصلية ثانياً تفيد لغةً بالكتابة عن الظلم والقهر والفقر وأدباً وفكراً وفلسفة وتوجه سياسي ومؤسساتي أيضاً.

الجمل الثلاث هذه تتكرر بنموذج طبيعي في كل زمان ومكان، فالطفل يوصي والديه بنظره دوماً، ويطلب من أباه أن يحمله ليلعب معه، وكل فتى يقول بأنه سيخبر الله عن أحلامه أو عما تعرض له من ظلم؛ وبالتالي: "الأمانة"، "الحَمْل والرعاية"، و"القول والاخبار"، كانت ستمثل مفاهيم مجردة، ولن تمثل نصاً شهياً قابلاً للتحليل السيميائي. بينما لو دخلنا لصلب الحدث الملموس وتتبعنا مؤشراته ودلالاته، فالطفل الذي فقد عيناه، وآخر فقد قدماه، والثالث فقد أبوه وأمه وأخوته ببرميل مرمي من طائرة، قد صاغوا جملة عفوية، تختزل حجم الكارثة المهولة في كلمات قليلة لا يمكن فصلها عن الحدث المتكرر مع الآلاف.

الأطفال الثلاث استطاعوا تجريد آلاف الأحداث الحسية في كلمات عفوية، تشكل سيمياء دلالية منهجياً ومؤشرات تلقائية، والتي هي حسب لوي بربيتو ((الاحداث والوقائع او الاشياء التي تمدنا بمعلومات دون ان تكون انتجت من اجل هذه الغاية))[١٦]. فالسيميائية حسب بربيتو هي ثلاثة علوم تتداخل موضوعاتها فيما بينها هي: اللسانيات وسيمولوجيا التواصل وسميولوجيا الدلالة حيث ((تدرس سيمولوجيا التواصل كل الظواهر التي تدرسها اللسانيات أي العلامات اللغوية مع إضافة العلامات غير اللغوية. وتدرس سميولوجيا الدلالة كل الظواهر التي تدرسها سميولوجيا التواصل أي الاشارات مع إضافة المؤشرات العرفية التي ليس لها صفة الإشارات))[١٧].

---

[١٣] - محمد الغوطاني: الطفل السوري ابن العشرة أعوام الذي داهمت منزله وأهله قصف صاروخي صباح ثاني أيام عيد الفطر ٢٠١٧ ليفقد بصره منادياً أباه "أمانة عيوني" وذلك أثناء حصار الغوطة الشرقية الشامية قبل تهجير أهلها قسرياً.

[١٤] - كلمات الطفل السوري عبد الباسط الصطوف، الذي نادى أباه حين قطعت قدماه وقتلت أمه وأخته باسقاط طائرات السلطة على منزلهم برميل متفجر بالهبيط/ ريف ادلب الجنوبي، في ٢٠١٧/٣.

[١٥] - جملة رددها طفل سوري، عمره ٣ سنوات، حين وجد كامل أسرته (الأب والام والأخوة) قد فنيت أمامه ببرميل متفجر قبيل أن يفارق الحياة والوجود بدوره، في ٢٠١٣/١٢.

[١٦] - بيير، عبدالله، قراءة في كتاب السميولوجيا والتواصل، الحوار المتمدن، عدد ٥٨١٥، ٢٠١٨/٣/١٤.

[١٧] - بويسنس، أيريك، مرجع سابق ص ١٢.

هذه الدلالات في المعنى بتلقائيتها لم تشكل سيمياء تواصلية بقدر ما تشكيل سيمياء دلالية وفق ذات المنهج، ودلاليتها أو رمزيتها، للأسف، كانت قصة موت معلن وجريمة إنسانية كبرى، تحاول السياسة ومكر التاريخ (حسب هيجل) طمسها.

بالعودة للخلفية المنهجية والتحديد الأولي للسيميائية، فحسب دي سوسير ثمة تلازم بين الدال، الجانب المادي للعلامة، والمدلول، جانبها المفهومي الذهني، فالعلامة لديه تحدث دلالتها لاختلافها عن العلامات الأخرى ((وهذا الاختلاف هو الذي يولد إمكانية وجود مجتمع لغوي، فاللغة ليست مكتملة عند أي متحدث، فهي توجد مكتملة وسط جماعة فقط))[١٨]، وبالضرورة لو اقتصرت الدلالات والمؤشرات العفوية هذه للأطفال في مجتمع اسرهم المُبادة، لانطمست حكايتها، وفقدت مدلولاتها عن العنفية والبطشية التي مارستها السلطات، وبالتالي لفقدنا موضوعة نقدية أساسية في سياق الربيع العربي وثوراته تفيد في التحليل البنيوي والنفسي والاجتماعي وبالضرورة السيميائي لبنى السلطات القهرية هذه، ولمرجعياتها الثقافية والأيديولوجية أيضاً، حيث تُدرك ((السيمياء من خلال الربط بين ما هو ملموس وما هو مجرد بآن معاً))[١٩]، وهذا ما يفتح المجال لثقافة نقدية ذات دلالة على الوضوح تفك الارتباط الريبي بين مقولات الحرية والحياة الكريمة التي رددت زيفاً لدى السلطات من جهة، وتبحث في مكنون هذه السلطات العنفي والقهري والبطشي ذاتها من جهة أخرى، وهذا مجال معرفي وسيميائي اليوم، كما هو سياسي وفكري.

الأمانة والحملُ والاخبار، كمدلولات هي صور مفهومية معروفة سلفاً، لكن افتراقها في دالها الصوتي لحظة صراخ انفعالي عالي الوتيرة، وإن لم يمتلك خاصية التواتر الكامنة لكنه ظاهر للعيان، هي دلالة سيميائية تشير إلى موضوعة التدّلال (Semiosis)، والتي هي ((العملية التي يتم من خلالها انتاج الدلالة، فالدلالة ليست معطىً جاهزاً ولكنها سيرورة مستترة، فالدال متوالية صوتية، وهناك مدلول هو الصورة الذهنية))[٢٠]. ومن ثم تصبح الجمل الثلاث أعلاه قابلة للدراسة والاستنتاج والتصنيف سيميائياً وفق مدارس عدة. هي في المبدأ سيمياء دلالية وفعل سيميائي مكتمل الأركان حيث ((الفعل السيميائي هو باختصار سلوك ملموس غايته التعريف بحالة وعي ملموسة))[٢١]، وقابلة لأن تتحول للغة تواصلية، ولسيمياء تواصلية، اذا ما باتت لغة يتم احتواؤها حسياً وانسانياً وانتصاراً لمظالمها، عندما تفعّل الشرعة الدولية لحقوق الإنسان، وخاصة حقوق الطفولة، وتفعل المحاكمات الدولية للجرائم ضد مرتكبي الجرائم الإنسانية ومنتهكي المعاهدات الدولية، وعندما تتحقق العدالة الاجتماعية والتغير الوطني المطلوب لدولة عصرية تحترم دستورها وتصون حقوق وحريات أبناء

---

[١٨] - كوبلى، بول وجانز، ليستا، مرجع سابق، ص ٢٠.

[١٩] - بويسنس، أيريك، مرجع سابق، ص ٦٠.

[٢٠] - كريماص وجاك فونتني، سيميائيات الأهواء: من حالات الأشياء إلى حالات النفس، ٢٠١٠، ترجمة سعيد بنكراد، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، ص ٥٣.

[٢١] - بويسنس، أيريك، مرجع سابق، ص ٦١.

مجتمعها، وقبل هذا ضرورة ايصالها عبر الكلمة والجملة لتصبح لغة تواصلية ذات دلالة حياة وحرية قابلة للتدلال السيميائي، لا دلالة موت وكارثة وحسب!

في الكتابة حياة: التواصلية في مقابل الأداتية

لماذا الكتابة؟ ((أنا انسانوي، ليس لأني أفكر، ولا لأني اقرأ، بل لأني أكتب، ولأني أنتج نصوصاً. انا اكتب اذا انا موجود))[٢٢]، لهذا سيخبر أبن الأعوام الثلاثة، الذي فني أهله أمامه، الله بكل شيء، وهذه ليست نصَ أدبي وحسب، ولا نص سريالي يمثل نوازع نفسية غريبة تمثل نموذجاً اعتباطياً، بل جملة من الحروف والكلمات يستحقها الإنسان حين يواجه ((ضعفه وهوانه ومذلته، لم يفكر حال نطقه بها أن يهتم بتشكيلها بالفتح أو الكسر أو النصب أو الضم، كلمات تشكلت بالعجز التام لطفل بلا وعي وبلا إرادة سوي إحساسه بالرعب))[٢٣]، هذا الوجود المعتم الذي لم ينتج نصوصاً بعد تقول ما جرى في حقيقة الواقع، لخصتها تلك الجملة، فيبدو أن البشر لا تريد أن تسمع ولا ترى، فأرادها الطفل تواصلاً مع الله فلسفياً وفكرياً وروحانياً وسيميائياُ أيضاً.

إذا لماذا نكتب؟ سؤال التاريخ، سؤال الوجود، سؤال المعنى، سؤال الأمة في عتمة حضورها تحاول الإبصار، سؤال المعرفة والكلمة والابصار في المبدأ، والبصر تعدد الرؤى وتمايزها. تشكيل العقل صورة العالم وتكونه هي الكلمة وقد اكتست حساً انسانياً رؤيةً ووجوداً، وعند هذا تكون فعل وعقل التواصلي، حياتي وفلسفي، يحطم دوائر الانغلاق ((كفاعلية تتجاوز التمركز حول الذات، والعقل الشمولي المنغلق الذي يدعي أن يتضمن كل شيء، والعقل الأداتي الوضعي الذي يفتت ويجزء الواقع))[٢٤]، وسيمياء تواصلية أيضاً حيث اللغة وعلاماتها والواقع الحسي ومدلولاته في تشاركية الكشف عن المعنى، فحسب جورج مونان ((ينبغي من أجل تعيين الوقائع التي تدرسها السيميائية تطبيق القياس الأساسي القاضي بأن هناك سيميوطيقا أو سميولوجيا إذ حصل التواصل))[٢٥]. هي سؤال التكون رغم هول الكارثة، والكارثة باتت ألفُ ألفٍ من الظلمات، من أطفال يتامى، من أطفال باتوا بلا أرجل، بلا مأوى، بلا رب يحميهم! فكانوا شهود عصر على هول الكارثة، فكيف للغة أن تعجز عن الوصف؟

((الحياة الخالية من التأمل والنظر لحياة لا تليق بالإنسان))[٢٦] هكذا أرادها أرسطو قبل قرون، دعنا نضيف أن صير الوجود بلا الكتابة المكتسية حساً انسانياً، بلا النقش على جسد يحترق، لا تليق بزمن التغيرات الكبرى، وبالضرورة حسب فونتاني هي ((إعادة صياغة الإدلال كعلاقة قائمة بين الصور الكونية والصور الفكرية))[٢٧]، وتحقق الفعل التواصلي الإنساني.

---

[٢٢] - شولز، روبرت، السيمياء والتأويل، ١٩٩٤، ترجمة سعيد الغانمي، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص ٢٣-٢٤.

[٢٣] - الزهيري، محمود، سأخبر الله بكل شيء، الحوار المتمدن، العدد ٥٥١٦، ٢٠١٧/٥/١٠.

[٢٤] - أبو النور حسن، أبو النور حمدي، يورجين هابرماس الأخلاق والتواصل، ٢٠١٢، التنوير، بيروت، ص ١٣٥.

[٢٥] _ أحمد، جاب الله، الصورة في السميولوجيا والتواصل، الملتقى الوطني الرابع السيمياء والنص الدبي، جامعة محمد خضير بسكرة، الجزائر، ٢٠٠٦.

[٢٦] - أرسطو، "دعوة للفلسفة"، ٢٠٠٦، تقديم وتعليق عبد الغفار مكاوي، دار التنوير، بيروت، ص ٤٢.

[٢٧] - فونتاني جاك، مرجع سابق، ص ٢٩.

فبينما تقسم السيمياء التواصلية ((الى ابلاغ لساني يتم عبر الاستخدام اللغوي، وابلاغ غير لساني يعتمد أنظمة سننية غير انساق اللغة))[٢٨]، وبالضرورة فإن التواصلية ليست لغوية وفقط، بل ترتبط بالمعنى والرمز وغير الظاهر، وبصيغة أخرى في الجانب اللاواعي أو النفسي ((اذا ان كان التواصل يظهر جلياً في النشاط اللغوي فهناك نشاط آخر مرتبط بالحياة النفسية اللاواعية))[٢٩]، وحيث ثمة ضرورة لإعادة احياء المعنى واظهاره جلياً، خاصة وان الدور المنوط بالعلوم والمعرفة بالمبدأ، لا التنميط والتأريخ وحسب، بل جعل هذه المعرفة والعلوم إنسانية، أي تخدم الانسان في لحظته ومستقبله. من هنا تكمن أهمية الكلمة والكتابة في احداث فعل تواصلي يتسع مع قدرة الانسان وامكاناته، وهذا ما يعطي السيميائية التواصلية والدلالية مكانة مهمة في عالم اليوم، عالم المظالم الإنسانية الكارثية وتناقضها مع عالم الحريات والانعتاق والبحث عن الوجود. وما تحطيم أصنام اللغة وقدسيتها سوى فعل سيميائي تفكيكي لنماذج السلطة القهرية، وموقف تحرري وثقافي وانساني، لا بل وحداثي وحضاري، خاصة في مجال نقد السلطة والخطاب والإعلام عامة وخاصة سلطات الأمر الواقع في الجمولوكيات العربية (حسب مصطلح واسيني الأعرج في روايته رمل المايّة).

انقطاع الصورة عن المشهد واعتباره لغة مجردة أو حدثاً دون دلالة ومعنى، تخفيض للوجود الإنساني أولاً، واغلاق للغة وجعلها صورة نمطية خالية من الروح والحس الإنساني ثانياً، وقصدية وظيفية أداتية مبيّتة غرضياً ثالثاً. وهذه القصدية وإن كانت بإحدى معانيها تعني التواصلية سيميائياً، لكنها هنا سميولوجيا تواصلية للتوظيف في معنى مختلف عن الحدث تريده سلطات الأمر الواقع في مواجهة مد الثورات واستهدافها حريتها وكرامتها، وبالضرورة نسج صور مختلفة لذات الحدث تفقده معناها وصورته المكتملة دلالة وحساً وموضوعاً، ومفهوماً أيضاً، لكن في مجموع متكامل يسمى: لحظة موت واستمرار في الجريمة مقابل الحرية! وبين هذه وتلك سيميائيات متفارقة!

ثمة أطروحة عالجها هابرماس تلقي الضوء على الفرق والتشارك بآن بين العقل الأداتي والعقل التواصلي فعلى الرغم أن القواعد التقنية للفعل الأداتي ((تتكون ضمن شروط التواصلية اللغوية، ولكن ليس لديها ما هو مشترك مع القواعد التواصلية للتفاعل))[٣٠]، لا يتسع البحث لمناقشتها، لكنها قد تمثل مدخلاً أبستمولوجيا للعلوم السيميائية لوضح الحدود المعرفية والعلمية بين القصدية كسيمياء تواصلية وبين قصدية وظيفية تشتركان فقط باللغة وتنقطع عنها بالواقع والدلالة الحسية، وهذا الانقطاع هو بوابة التأويل والمغالطات والترويج والإعلام المزيف، فحيث ترتبط السيمياء التواصلية بالنص والإشارات العلامات بغية تنميطها وتحليلها، يتطلب وضع ضوابط لها في ارتباطها بالحدث، لتصبح بذاتها رمزاً أو أيقونة..

---

[٢٨] - أحمد، جاب الله، مرجع سابق.

[٢٩] - يوسف، أحمد، السيميائيات والتواصل، مجلة علامات، عدد ٢٤، مكناس/المغرب، ٢٠٠٥.

[٣٠] - هابرماس، يورغن، العلم والتقنية كأيديولوجية، ٢٠٠٣، ترجمة حسن صقر، الجمل، كولونيا/ألمانيا، ص ٢٩.

في هذه المحاكمة الأولية، تبرز موضوعة السيميائية كضرورة منهجية تتعدى وتتجاوز، حدي اللغة المنقطعة عن معناها، والواقع المتبدل في تغيراته وانعكاساته، لتقوده السيميائية باتجاه أكثر معرفة ابستمولوجياً من ناحية الرمزية والأيقونة، لا وصفياً وفقط، بل توثيقاً وتحليلاً، وجعله نموذج لغوي وبالضرورة ثقافي مُحدث، كما هي علم مُحدث بذاته.

الخاتمة: النتائج والتوصيات

الكلمة وجود مكتمل حين ترتقي بذواتنا الضعيفة لمصاف الانوجاد الإنساني، والحرية شرطها الأول، وحيث ان الواقع الإنساني متعدد الأبعاد يصبح ايجازه في نص أو كلمة غاية في القسوة. وهو ما يلقي بتلك المسؤولية الكبرى على دور الكلمة، فقد تشكل رافعة وجودية وتحدث دلالة في تجاه انساني، وذاتها ستمثل دلالة موت حضاري أو صنم فكري يقوض الحياة ما دونها! ولنا في كلمة الحرية وإرادة الشعب الحية اتساع في المعنى والدلالة، فحيث تكتسي اللغة بعداً وجودياً وتعاطفاً إنسانياً، تتحول لثقافة وعقل تواصلي، هي سيمياء دلالية وتواصلية بآن، هي مدلول كما هي موضوعة وتصور مفهومي وبالضرورة ((ذات بعد دلالي أنطولوجي هي الرمز والمؤشر والأيقونة حسب بيرس))[٣١] للدولة والقانون والحريات، وحيث باتت مجرد لغة منقطعة عن حيزها الوجودي، باتت وظيفية التأويل وأسلوب هيمنة وتحكم كعقل أداتي تتقنه أحزاب السلطات فتحولت لوبال وموت كارثي يومي.

الكتابة اليوم، نمطية كانت، أدبية، فكرية، سياسية، فلسفية، ضرورة وجود وبقاء، حقيقة كبرى تشق وعر وعهر المادة في القتل الحرام وعليها ألا تعجز، عليها ان تنحت من صلادة الحروف جملاً وكلمات تليق بهذه الأسطورة، وإلا صعب على العابرين من بعدنا أن يعلموا ماذا جرى وكيف جرى، ولازال أنكيدوا يعاند قصة موته باحثاً عن الخلود، والخلود اليوم كتابة لا تتوقف ...

فقد "بدأت الحضارة عندما قام رجل غاضب لأول مرة بالقاء كلمة بدلاً من حجر" حسب فرويد، رائد مدرسة التحليل النفسي، وذات زمن مضى، تساءلت مع الآخرين فيمن تساءلوا ماذا سيكتب التاريخ عن مجريات الحدث العام في عالم الربيع العربي عامة وسورية خاصة؟ وإن أجزنا لذواتنا الحرة تجاوز السياسية فيها، فما لم يكتب التاريخ أن اللغة والسلطة والحرب قد تعاونت وتحالفت على مواجهة كلمة صغرى تسمى حرية وعيش كريم! فمالم نكتب اليوم، فبئس كل ما نكتب وبئس هذا التاريخ بزوره ومكره وبهتانه، وبئس كل تلك العلوم والمعرفة ما لم تكن في موقع الحدث دلالة وفكراً.

لربما باتت الكلمة وعصر الحرية هذا، مهما بلغت أهواله، فتحاً واسعاً في كل شتى ألوان الحياة، ما يجعل المعرفة والثقافة والكتابة أيضاً في امتحان يومي نحاول في هذه السطور اجلائه في النقد أولاً، وتقصي الجديد ثانياً، والدفاع عن أحقية الحرية عامة وحرية الكلمة خاصة مهما كانت كلفة حضورها ثالثاً.

---

٣١ ـ حنان، سلامة، الدرس اللساني المعاصر في ظل التأويلات السيميائية، ٢٠١٧، أطروحة ماجستير في اللسانيات، جامعة أبو بكر بلقايد، الجزائر، ص ٣٢.

د. عبد الله تركماني
كاتب وباحث سوري

إشكاليات الثقافة العربية المعاصرة وآفاقها المستقبلية

المسألة أننا لم نحسن الخروج من عجزنا وقصورنا لكي نتحول إلى مشاركين في صناعة العالم بصورة غنية وخلاقة. ولعلَّ ما أعاقنا عن ذلك هو الحمولات الأيديولوجية والمسبقات الدوغمائية التي منعتنا من استثمار طاقاتنا على الخلق والتحوّل، بقدر ما حملتنا على أن لا نعترف بإنجازات الغرب والتعلّم منه، أو التي جعلتنا نتعامل مع هذه الإنجازات بعقلية تقليدية شعاراتية عقيمة وغير منتجة.

إنّ الخطاب الثقافي، في ظل ما تشهده المجتمعات المعاصرة من تحديات وتحوّلات، هو خطاب الأزمة: فمن جهة، هناك الانهيارات السياسية والأيديولوجية التي أصابت العديد من الأفكار والنظم والمشاريع. ومن جهة ثانية، هناك الطفرات المعرفية التي شهدتها الفلسفة وعلوم الإنسان، والتي أسفرت عن انبثاق قراءات جديدة للحداثة وشعاراتها حول العقل والحرية والتقدم. ومن جهة ثالثة، هناك الثورات العلمية والتقنية والمعلوماتية التي ندخل معها في طور حضاري جديد "الذكاء الاصطناعي".

ولعلَّ أحد أهم ملامح أزمة الخطاب الثقافي المعاصر تكمن في محاولة التعرّف على عناصر ومكوّنات ثقافة العولمة وأدواتها الوظيفية، وكذلك ما تنطوي عليه من قضايا: الثقافة الوطنية، والهوية الحضارية، والخصوصية القومية. وإزاء كل ذلك، يبدو أنه من الضروري أن يعمل المرء على إعادة صياغة وترتيب أفكاره، بما يمكّنه من فهم وتشخيص هذه التحوّلات العميقة بداية، ومن ثم الانخراط في تحويل وتغيير الواقع الثقافي في اتجاه التكيّف الإيجابي مع معطيات وتحوّلات العالم المعاصر.

وبالنسبة للعالم العربي، تنطوي الثورات المعرفية والتكنولوجية والمعلوماتية المعاصرة على تحديات وأخطار وفرص تمسُّ الكيان العميق للعروبة، وتعرّضها لما يسمى بـ"صدمة المستقبل". وتزداد الأخطار تأثيراً بسبب ما يعانيه الكيان العربي نفسه من عوامل الضعف المتمثلة في: انتشار الأمية، وتخلّف برامج التربية والتعليم عن حاجات المجتمعات العربية ومتطلبات العصر، ونقص الحريات، وعدم شمولية السياسات الثقافية، وضعف الصناعات الثقافية، وسيادة الإعلام السطحي.

وإذا كنا قد خسرنا العديد من لحظات الانتماء والفعل في التاريخ الثقافي- المعرفي الكوني، خاصة في العصر الحديث، فإننا في الوقت الراهن نقف مكتوفي الأيدي أمام ثقافة العولمة. فبالرغم من المحاولات الجسورة لنخبة رائدة من المفكرين العرب في عصر النهضة العربية، بمرحلتيها الأولى والثانية، فإنّ العالم العربي ما زال يرسف في أغلال التقليد، ويضع قيوداً متعددة على حرية التفكير والتعبير.

ومع العصر الرقمي والانفجار المعلوماتي ومجتمع واقتصاد المعرفة يبدو أنّ إشكاليات اليوم تتجاوز النهضة إلى ما بعدها، ولذا لا غنى عن تجديد المصطلحات وإعادة صياغة الإشكاليات. فليست المسألة الآن كيف ننهض من السبات أو كيف نجدد النهضة، أو كيف نندرج في الحداثة، بالرغم من أهمية كل ذلك، بل التكيّف الإيجابي مع عالم اليوم الذي يكاد يتحول إلى عالم جديد من فرط انكشافه وفيض معلوماته وفائق أدواته.

المسألة أننا لم نحسن الخروج من عجزنا وقصورنا لكي نتحول إلى مشاركين في صناعة العالم بصورة غنية وخلاقة. ولعلَّ ما أعاقنا عن ذلك هو الحمولات الأيديولوجية والمسبقات الدوغمائية التي منعتنا من استثمار طاقاتنا على الخلق والتحوّل، بقدر ما حملتنا على أن لا نعترف بإنجازات الغرب والتعلّم منه، أو التي جعلتنا نتعامل مع هذه الإنجازات بعقلية تقليدية شعاراتية عقيمة وغير منتجة. وفي هذا السياق، يظل من واجبنا الحذر والتحذير من إسقاط التشرذم السياسي العربي على البعد الثقافي. فإذا كان من الخديعة أن نتنكّر للخصوصيات القطرية العربية بدعوى وحدة الأمة، فإنه من الواجب أن لا ننخرط في تضخيم هذه الخصوصيات بحيث تمنعنا من رؤية المشترك الثقافي الذي يعتبر الحصن الأخير لوحدة العرب. إنها ثقافة عربية واحدة تضمُّ تيارات وخصوصيات تصبُّ في مجرى واحد، من دون هيمنة أو إقصاء. فقد تعددت المراكز الثقافية العربية، وتعددت قوى الإنتاج الثقافي في توزيعها الجغرافي الذي لم يعد محصوراً في دولة واحدة بعينها. وكانت النتيجة أننا أصبحنا نتحدث عن مستقبل الثقافة العربية في كل الدول العربية التي تتبادل الفاعلية والتأثير. وأصبحت المشكلات الثقافية عروبية بقدر ما هي قطرية، وإقليمية بقدر ما هي عالمية.

ومن المؤكد أنّ الثقافة هي المدخل إلى معالجة مختلف إشكاليات العالم العربي، على أن تُفهم بمعناها الأوسع والأغنى والأكثر فاعلية، أي بوصفها تجسد حيوية التفكير بقدر ما تمثل منبع المعنى ومصدر القوة لكل العرب، وبقدر ما تجسد سيرورة التحول والازدهار في العالم العربي. ومن أجل

تجسيد حيوية التفكير بات من التبسيط والتضليل مقاربة إشكاليات الثقافة العربية من خلال فكر أحادي الجانب والمستوى، فالعالم هو في بناه ونظامه وصيرورته من التعقيد والتشابك والتحوّل، بحيث لا تفي بفهمه نظرية واحدة ولا ينجح في تغييره نموذج أوحد. الأجدى أن تتضافر المقاربات والمعالجات، عبر استثمار نتائج الدراسات العلمية والإبداعات المعرفية في مختلف الاختصاصات، وبما يؤول إلى ابتكار الاستراتيجيات والآليات والوسائل التي تسهم في بلورة رؤى ثقافية مستقبلية.

وهكذا، يطرح واقع الثقافة العربية المعاصرة مجموعة تساؤلات: ماهي مشكلات الثقافة العربية؟ وأين يقف العالم العربي من التغيّرات العميقة التي يشهدها العالم؟ وهل فهم منطق المرحلة الجديدة بمقوّماتها ومعالمها ومنطقها النوعي الجديد؟ وما مدى الاستجابة للمرحلة على أصعدة الرؤية والتخطيط والتنظيم والممارسة؟ وما هي التحديات والفرص الجديدة التي تطرحها ثقافة العولمة على الثقافة العربية؟ وهل نستطيع أن نبلور أسئلة تحدد أجوبتها استراتيجية ثقافية للمستقبل؟

I – أهم إشكاليات الثقافة العربية المعاصرة

لا شكَّ أنّ أزمة الثقافة العربية المعاصرة هي جزء لا يتجزأ من أزمة الدولة الوطنية العربية من جهة. وهي، من جهة ثانية، أزمة بنية ثقافية عربية تندرج في إطار بنية اقتصادية - اجتماعية متوارثة منذ عقود طويلة من الركود والتأخر والتبعية. مما يسمح لنا بأن نطرح السؤال المقلق الذي أثاره الأمير شكيب أرسلان في مطلع القرن العشرين: لماذا تراجع العرب وتقدم غيرهم؟ وتفسير عبدالله العروي لأزمة الثقافة العربية المعاصرة بأنها اختلال العلاقة بين الوعي والفعل، بين الوعي المنقوص والفعل العاجز، بين التوفيقية الملتبسة وافتقاد القدرة على الحسم؟!

وفي الواقع، تعود أزمة الثقافة العربية، في جانب أساسي منها، إلى أزمة الحامل الاجتماعي لهذه الثقافة. فمنذ بداية سبعينيات القرن العشرين بدأ المجتمع العربي يعيش أزمة جديدة تمثلت في تصدّع الفئات الوسطى، أي الفئات التي كانت الحامل الاجتماعي للثقافة العربية منذ الإخفاق العربي النهضوي في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. كما أنّ النظام الثقافي العربي ساهم، إلى حدٍّ بعيد، في إبعاد العرب عن دائرة المشاركة الفعلية في النظام الثقافي الكوني، وجعلهم أسرى الثقافة الاستهلاكية. وفي المقابل، حوّل الثقافة التراثية إلى قلاع مُغلقة تحاول تسوير نفسها خوفاً من رياح التغيير، وتحتمي وراء التقليد وترديد مقولات السلف الصالح. إنه نظام متناقض مع نفسه، خالٍ من الاتساق والمصداقية، يسعى إلى إشاعة ثقافة الغفلة والامتثال والخضوع والعاطفية الجوفاء، بينما يهمل أو يغفل ثقافة الوعي الموضوعي بحقائق الأشياء وواقع المجتمع وواقع العصر الذي نعيش فيه.

وقد أدّى كلُّ ذلك إلى تصاعد نزعات التعصّب والتطرّف، وتزايد عمليات الإرهاب التي تتمسح بالدين الحنيف، وارتفاع درجة العنف الذي صاحب الدعوة إلى الدولة الدينية، أو صاحب الاتجاهات التقليدية الجامدة التي تصف التحديث ببدعة الضلالة المفضية إلى النار. هكذا، رأينا الاعتداء على

المواطنين الأبرياء، ورموز السلطة المدنية، وتهديد المثقفين المستنيرين بكل وسيلة ممكنة. وأضيف إلى ذلك تحوّل هذا الإرهاب من إرهاب محلي إلى إرهاب دولي، وذلك في سياق متصاعد وصل إلى ذروته في غزوة الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ في نيويورك وواشنطن، وهي الأحداث التي فرضت أوضاعاً جديدة تماماً، وجعلت العالم كلَّه يرى أبشع وجه للإرهاب.

ومن المؤكد أنّ أصحاب نزعة التعصّب والعنف لم يدركوا التراث العربي - الإسلامي في صراعاته واختلافاته وتعدده في تنوعه، ولم يدركوا لماذا كان هناك المعتزلة والأشاعرة، ولكنهم أخذوه كما هو في مظهره السطحي وتضاريسه الخارجية. بسبب غلبة الوعي الأصولي النقلي على تفكيرهم، وذلك على نحو يغدو معه سؤال المستقبل سؤالاً غائباً عن حياتهم وليس عنصراً تكوينياً من عناصرها الحيوية. ودليل ذلك يسير جداً، نلمسه في ندرة كتاباتهم ورؤاهم التي تشغل نفسها بسؤال المستقبل، وذلك في مقابل الوفرة الوافرة من الكتابات والخطابات والممارسات المهمومة بسؤال الماضي وحضوره الذي يتحول إلى ما يشبه حضور العلة الأولى أو المركز المطلق للحضور. والنتيجة هي قياس كل شيء على الماضي، والعودة بكل جديد إلى أصل يبرره من القديم، والنظر إلى التغيير في ريبة، وإلى التجدد بعين الاتهام.

في حين أنّ الثقافة التراثية ثقافة متنوعة لا ينبغي أن نأخذها في مظهرها السطحي، وعلينا نحن أبناء القرن الحادي والعشرين ألا نتبنى هذا التراث بطريقة مطلقة، وإنما نتعقّله في سياقه التاريخي، وكيف ظهر وانتهى في زمنه، ثم بعد ذلك نضيف إليه بحسب عصرنا وظروفه، وبرؤية عقلانية نقدية، وبذلك يصبح التراث قيمة متحركة، ويخرج عن إطار الجمود أو أن يكون مجرد ماضٍ.

ومن الشواهد البارزة على وجود الأزمة على المستوى الثقافي أنّ المجتمعات العربية لم تصبح بعد مجالاً لإنتاج العلوم النظرية والمعارف العملية، كما كان الحال ماضياً في عصور الازدهار التي شهدتها الحضارة العربية – الإسلامية، وكما هي الحال في المجتمعات الغربية الحديثة التي تحولت إلى مصدر للإنتاج الفكري في مختلف فروع المعرفة والثقافة، بقدر ما اشتغلت على نفسها بالدرس والتحليل العلمي وبالنقد والفحص العقلاني.

وهنا يجدر بنا أن نقلع عن تحميل مسؤولية عجزنا وتأخّرنا على الآخر الغربي، فإذا نسبنا مسؤولية كل ما نتعرض له من إجحاف وظلم إلى الآخرين، فلن يكون من الممكن أن نحدد لأنفسنا مهاماً ثقافية خاصة بنا، وسنظلُّ أسرى منطق دائري يجعلنا نعكف على انتظار الخلاص بالصدفة. بينما المطلوب أن نتحرر من هذه النزعة، وأن نجري تغيّرات ثقافية جوهرية، تتضمن - قبل كل شيء - الاعتراف بمسؤوليتنا المباشرة عن أوضاعنا الراهنة وعن مصائرنا، ومن ثم عن المعطيات الأساسية لمستقبلنا في الإطار العالمي.

وفي الواقع هناك ما هو مشترك إنساني في ثقافة العصر، لا سبيل إلى تجاهله، وإلا كنا كمن يتجاهل التراث الإنساني الذي أسهم تراثنا العربي - الإسلامي في تخليقه، وكان معنى ذلك أيضاً تكريس تخلّفنا، وبالتالي تبعيتنا. ومن أجل تدارك ذلك يجدر بثقافتنا أن تُبنى وتنمو وتتطور بالاستيعاب النقدي لتراثنا

القديم، والتراث الغربي الراهن، ليس هذا فحسب وإنما بتجديد حياتنا وتحديثها ودمقرطتها وتحريرها، وتوحيدها، والمشاركة الفاعلة في معارك الحضارة في عصرنا الراهن من غير تبعية أو تقليد أو استعلاء.

II – المخاطر المحدقة بالثقافة العربية في زمن العولمة والفرص المتاحة

في زمن العولمة، لعلَّ أهم ما يستدعي الانتباه والقلق هو منحى التفكير العربي الذي ينزع إلى تجريد ظاهرة العولمة من سياقها التاريخي والموضوعي، وتصويرها على أنها امتداد للسياسة الإمبريالية، أو أنها نتاج مؤامرة خارجية على شعوب بلدان عالم الجنوب، بما فيها الشعوب العربية. إنّ العولمة هي نتاج التقدم العلمي والتكنولوجي الجاري منذ عقود، أي أنها ظاهرة موضوعية كونية شاملة لا يمكن ردّها وإبطالها برغبة ذاتية، إنما المطلوب هو إجراء التكيّف الإيجابي اللازم للتعاطي مع آلياتها، بما يكفل دفع عملية التقدم الإنساني إلى الأمام وتقليص الأخطار الناجمة عنها، ولا سيما إزاء التفاوت في التقدم بين المناطق المتأخرة والمتقدمة في العالم، والبحث عن وسائل وإمكانات توسيع الفرص الطيبة التي تتيحها هذه الظاهرة لخير البشرية وازدهارها، بعيداً عن استغلال العالم المتقدم والشركات المتعدية الجنسية لعالم الجنوب والإضرار بمصالح شعوبه وثقافاتها ومكاسبها الوطنية.

إنّ الخطاب العربي مُبهَمٌ حول الظاهرة، تتحكم فيه معطيات ظرفية، وعوامل ضاغطة "صدمة المستقبل". وبالتالي، فهو يشكو من التناقض، معلناً في أحسن الأحوال أنّ العولمة الاقتصادية قضاء وقدر لا مفرَّ منها، ولكن بشرط المحافظة على هويتنا وخصوصياتنا الحضارية. وحين تسأل عن سمات هذه الهوية ومَنْ يحددها وكيف يمكن المحافظة على الخصوصية ضمن حضارة الصورة التي تكتسح عقر بيوتنا دون استئذان؟ فإنك لا تحظى بجواب عقلاني واضح.

ففيما تتعولم الأسواق والمعلومات والأفكار والعلاقات والهويات، تنفجر أمام البشر إمكانات لا سابق لها للمعرفة والعمل، أو للتداول والتبادل، أو للاختلاط والتهجين، أو للانتقال والتغيير، وهي إمكانات يمكن العمل عليها باستثمارها ومضاعفتها، من أجل ترجمتها إلى إنجازات وابتكارات في مختلف المجالات، وعلى النحو الذي يتيح لنا ممارسة علاقتنا بوجودنا وبالعالم المعاصر.

إنّ الخيار ليس متاحاً، في واقع الأمر، أمام مجتمعاتنا وشعوبنا، نتعولم أو لا نتعولم، إنما السؤال هو: هل نحن قادرون على مواجهة تحديات واقع بشري معولم لا محالة؟ وكما أنّ الخيار لم يعد متاحاً أمامنا، كذلك لا مجال أمامنا إلا أن نبدأ في استخلاص الدروس النقدية الواعية، بعقل منفتح ودون عقد أو خوف، والسعي بجدية كاملة إلى الاستيعاب الفاعل لما حدث من تحوّلات وإلى امتلاك القدرة على التعامل مع ما هو قادم.

هل يمكن إصدار حكم قاطع فيما يتعلق بقبول أو رفض العولمة وتداعياتها؟ إنّ إصدار حكم نهائي برفض العولمة يكشف عن تعجّلٍ في إصدار الأحكام بغير تأمّل في منطق التطور التاريخي، إذ إنّ ثقافة العولمة أدخلت إلى المجتمعات البشرية سمات الحداثة والمعاصرة والتواصل والوحدة الكونية. فالمهم بالنسبة لنا أن نتدارس ونتفهم طبيعة آليات العولمة، كي نحدد ما تستطيع عمله للحدِّ من تأثيراتها

السلبية واقتناص فرصها وتعظيم فوائدها. فمن الضروري السعي إلى تأسيس كتلة اقتصادية عربية موحدة، تولي اهتماماً خاصاً بالبعد الثقافي والتربوي للتنمية، إذ يمكن تسهيل انفتاح الجامعات العربية على بعضها البعض، وتبادل المناهج الدراسية، وعقد ندوات ثقافية مشتركة. شريطة أن يتمَّ ذلك في إطار التفتّح وليس التزمّت والانغلاق، لأنّ كل شيء منغلق لا ينفتح على الآخر سيضرُّ بمستقبلنا.

وبعيداً عن المبالغات والتوصيفات والتهويمات الأيديولوجية، فإنّ العولمة ترتبط أشد الارتباط بالثورة العلمية والمعلوماتية الجديدة، التي تمثل أحد أهم معالم اللحظة الحضارية الراهنة، بحيث يمكن القول: إنّ العولمة والثورة العلمية والتكنولوجية هما وجهان لا ينفصلان لسياق تاريخي وحضاري واحد. إنّ العلم الذي نقل البشرية من طور إلى آخر هو الذي يقوم حالياً بخلق عالم جديد ولحظة تاريخية مختلفة كل الاختلاف عن كل ما هو قائم حتى الآن. لقد تحوّل العلم والثورات العلمية إلى قوة من القوى الكاسحة التي تصنع الأحداث وتشكل المستقبل وتعيد ترتيب أولويات الدول والمجتمعات والأفراد. فمن يمتلك هذه القوة، ويحسن توظيف نتائجها يمتلك مصيره، ويعرف كيف يتدبر شؤونه، ويتمكن من التأثير في الآخرين.

وفي زمن العولمة، فإنّ طبيعة المخاطر المهدّدة للثقافة العربية لا تتعلق بعمليات العولمة وتداعياتها الثقافية والسياسية والاجتماعية، بقدر ما تتعلق بمدى قدرة هذه الهوية الثقافية العربية على تجاوز أزمتها، خاصة ما يتعلق منها بالتنمية الشاملة وتوسيع إطار الديمقراطية، وتعزيز مؤسسات المجتمع المدني، وتفعيل قيم الحوار والتعددية، وقبول الرأي والرأي الآخر، وتوفير حرية البحث العلمي، وإنشاء منظومة تربوية تقوم على تأهيل وإعداد كوادر تعليم عالية المهارات، واحترام عقل المتلقي، وتوفير وسائل تمكينه من الاستيعاب الناقد للمعلومات والآراء وإبداع الأفكار، واختصار الزمن في مناهجنا التعليمية، وإطلاق العنان للطاقات الشابة في كل المجالات لكي تفكر وتبدع وتعزز ثقتها بإمكاناتها.

ومن المنظور العالمي، وبعد أن تداعى الاستقطاب التقليدي بين عالمي الرأسمالية والشيوعية، ظهرت النزعة العالمية أو الكونية، القائمة على الاعتماد المتبادل بين الشعوب والدول لمواجهة سطوة نظام عالمي جديد، واحد ووحيد. فالتعددية التي يشهدها العالم، بسبب تباين المراكز الاقتصادية العالمية التي تحولت إلى مراكز ثقافية متكافئة نسبيا، تستبدل الاستقطاب الثنائي القديم بالتعددية الواعدة التي يتجاور فيها الشرق والغرب، الشمال والجنوب، وتبرز فيها الأدوار الغربية إلى جانب الأدوار الأسيوية، ضمن سياق مختلف من توزيع الأدوار في ثقافات العالم التي أصبحت ساعية إلى تأكيد التنوّع الخلاق.

وتقوم النزعة الكونية على أسلوب جديد من التفكير الذي يتعقل الكون في شموله، ويردُّ أجزاءه إلى هذا الشمول، مؤسساً رؤية إنسانية مفتوحة على كل الأجناس والأفكار. ويترتب على هذه النزعة ما أصبح يطلق عليه اسم "الاعتماد المتبادل"، وهو مفهوم يناقض التبعية، ويضيف معنى جديداً

للاستقلال، ويؤسس ضرورة التعاون بين الدول لمواجهة المشكلات العالمية الكبرى التي لا تقدر عليها دولة بمفردها، انطلاقاً من تعقّد المشكلات العالمية واتصالها بمصائر الأمم كلِّها، فالإرهاب العالمي لم يعد يميّز بين دولة وأخرى، ومخاطره سرعان ما أصابت بأضرارها الدول التي حسبت نفسها بعيدة عنه، ومشكلات البيئة وصلت إلى درجة من التعقّد والتشابك الذي لم يعد في استطاعة دولة واحدة أو حتى قارة واحدة مواجهتها. وليس ذلك سوى مجرد مثال يؤكد أهمية التعاون العالمي، في ظل التسليم بمبدأ التنوّع الخلاق الذي لابدَّ أن تنهض عليه العلاقات بين الأمم والشعوب، وفي مواجهة الأخطار والتحديات المشتركة.

ولعلَّ التحدي الأكبر الذي يستوجب على المجتمعات العربية مواجهته هو التحكم في نقاط ضعفها نفسها وفي مقدمتها نظمها السياسية، ومنظوماتها الإدارية والاجتماعية والثقافية، واكتشاف هذه النقاط وإدراك النقائص والسعي إلى معالجتها دون عقد كبيرة. هذه هي الخطوة الأولى نحو تكوين الفاعل التاريخي القادر على تحديد أهداف وبلورة استراتيجيات، والدخول في تنافس أو صراع أو تفاهم مع الأطراف الدولية الأخرى، أي نحو الوجود العربي على الساحة العالمية، كطرف من بين أطراف أخرى لديه قدرة على المبادرة والفعل، وبالتالي على انتزاع اعتراف الآخرين. فلا أمل اليوم لطرف في التأثير على مصيره الخاص، إلا إذا نجح في أن يكون شريكاً مع الآخرين في التعاطي الإيجابي مع التحديات العالمية. فالمشاكل التي يعاني منها، هي نفسها التي تعاني منها بقية المجتمعات، ولا مجال لبلورة حلول ناجعة لها إلا من خلال منظورات إقليمية وعالمية.

إنّ مجابهة أخطار وتحديات، وكذلك اقتناص فرص العولمة، لا يتأتى من التنديد بها واعتبارها خطراً خارجياً داهماً، بل بالبحث عن أسباب الضعف العربي الداخلي ومعالجته جدياً للنهوض بالقدرات العربية إلى مستوى التطورات الجديدة والتعامل معها على أساس من التكافؤ والاقتدار في الميادين المختلفة.

III – مجالات التغيير المطلوبة للتكيّف الإيجابي مع معطيات المستقبل

إنّ حضور سؤال المستقبل في أية ثقافة هو دليل حيويتها، فبقدر حضوره في تكوينها تتحدد قابليتها للتطور، وقدرتها على التقدم، ورغبتها في الإبداع الذاتي. إنّ الوعي المستقبلي يقيس على الحاضر في حركته إلى المستقبل، ولا ينشغل بالماضي إلا بوصفه عنصراً من عناصر الحاضر الذي يقبل التحوّل والتطور والمساءلة. وسؤال المستقبل عنصر تكويني في هذا الوعي وعلامة عليه، سواء في حرصه على الارتقاء بالإنسان من مستوى الضرورة إلى مستوى الحرية، أو الانتقال بالمجتمع من التأخر إلى التقدم.

وهكذا، يبدو واضحاً أننا أحوج ما نكون إلى إعادة صياغة الخصوصية الثقافية العربية، بمعنى أننا في أمسِّ الحاجة إلى عملية إحياء ثقافي. فالثقافة العربية الراهنة تمرُّ في مرحلة انحطاط وردّة واضحين، فهناك تراجع عن الفكر العلمي لفائدة الفكر الخرافي، وهناك استفحال ظاهرة الخطاب الماضوي

الذي يجهد في محاولة إرجاع العالم العربي إلى العصور المظلمة، ويحفّزه على التشبث بمرجعية ماضوية، وكأن الماضي ينبغي أن يحكم الحاضر والمستقبل.

وإزاء ذلك يبدو أنّ الخطوة الأولى في محاولة التعاطي مع أسئلة المستقبل تكمن في فهم لغة الخطاب العالمي المعاصر، التي يتمُّ التعامل بها بين أطراف هذا العالم الجديد، وخاصة القوى الغربية المؤثرة، وبالتحديد فهم توجهات هذا العالم نحونا. إذ إنّ البحث في الاعتماد المتبادل بين العالم العربي والخارج هو بحث في المستقبل، وأية دراسة للمستقبل لا بدَّ أن تنطلق من صورة العالم، ونماذج تطور النظام العالمي في أبعاده السياسية والاستراتيجية والاقتصادية والثقافية.

ومن جهة المنظور، لا يخفى أنّ الدراسات المستقبلية ليست جديدة، ولكنها تشهد اليوم ازدهاراً واضحاً يستقطب اهتمام المفكرين والمنظّرين الاستراتيجيين. ومن المؤكد أنّ الاهتمام بالمستقبل لا يعني نفي الماضي، فالذي يحسن فهم حاضره يهيئ لمستقبله بقدر ما يحسن توظيف ماضيه. وتلك هي المعادلة التي تتيح لنا صوغ العلاقة بين الأزمنة بصورة متوازنة وخصبة، حية وراهنة، بقدر ما تتيح لنا التحرر من الأدلوجات التي تجعلنا أسرى ماضٍ يستحيل أن يعود كما كان عليه، أو التخلص من الطوباويات التي تغرقنا في أوهام مستقبل لا ينفكُّ يبتعد.

والفكر المستقبلي لا يمكن إلا أن يكون تعددياً، بمعنى انه يتغذى من جميع فروع المعرفة بقدر ما ينفتح على جميع وجوه الحياة، كما تتجلى في العلوم الاجتماعية، أو في ميدان التاريخ والحضارة، أو في مجال الفلسفة والأخلاق، أو في ميادين الفن والأدب، أو في علوم الاقتصاد والمال، أو في الدراسات السياسية والاستراتيجية، أو في العلوم الطبيعية والبيئية، أو علوم الوسائط والاتصال.

وهكذا فالتفكير من منظور مستقبلي يتوقف على العمل الكوكبي بعقل تواصلي، من هنا تتبلور اليوم شبكة جديدة من المفاهيم تتلاءم مع التحوّل الذي تشهده البشرية. بحيث تتركز الجهود الفكرية والعملية على تشكيل المجتمع الكوكبي التداولي، لمجابهة الداء الأعظم الذي يفتك بالبشرية، كما يتجسد في أنشطة العنف والأعمال البربرية التي تقوم بها قوات الجيش الإسرائيلي ضد أبناء الشعب الفلسطيني (والجرائم ضد الإنسانية التي مارسها النظام وحلفائه الروس والإيرانيين بحق الشعب السوري). وهذا أحوج ما يحتاج إليه العرب: المساهمة في تنمية المجال التداولي وتوسيعه وإتقان لغته، خاصة ما يتعلق منه بـ "المجتمع المدني العالمي" ومنظماته غير الحكومية، لأنه الفاعل الجديد في العلاقات الدولية.

وانطلاقاً من المعطيات، الموصوفة أعلاه، ثمَّة أهمية كبرى لصياغة استراتيجية عربية للحوار والشراكة مع الثقافات الأخرى، مما يستدعي القيام بدور نقدي مزدوج:

(١) - الاستيعاب النقدي لفكر الآخر، بمعنى المتابعة الدقيقة للحوار الفكري العميق الذي يدور في مراكز التفكير العالمية، وفي العواصم الثقافية الكبرى.

(٢) - النقد الذاتي للأنا العربية، بما يعنيه ذلك من ضرورة أن نمارس النقد الذاتي لممارساتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في عقود مرحلة استقلالنا الوطني على الأقل.

وهنا تبرز مهمة المثقفين بالتوجه إلى الحداثة كهدف وككل متكامل، بما ينطوي عليه ذلك من تبنّي لسلطان العقل على النقل، والفصل بين الخطابين الديني والسياسي، والتخلّي عن الشعارات والأوهام، وفهم اتجاه الحقبة التاريخية المعاصرة، والدعوة إلى التحديث السياسي باعتباره المدخل الحقيقي لأي تحديث آخر، والدفاع عن المواطنة التي قوامها المساواة بين المواطنين في الحقوق والواجبات، والتمسك باحترام الحق في الاختلاف انطلاقاً من نسبية المعتقدات والقناعات.

ومما لا شكَّ فيه أنّ عصر الحداثة لم ينغلق في نمط نهائي، بل هو في تطور متواصل، بهدف الإجابة على التحديات التي تواجهها المجتمعات البشرية، عبر عقلانيته النقدية. فهو العصر الذي حققت البشرية فيه أثمن مكاسبها وأعظم إنجازاتها في المجالات السياسية والاجتماعية والمعرفية.

وللخروج من الحالة الماضوية للثقافة العربية، خاصة في ظل ثقافة العولمة، لا بدَّ من التأكيد مع الدكتور محمد السيد سعيد على مجموعة جوانب مترابطة للتغيير الثقافي، الذي يمكّننا من القطيعة مع التأخر والانطلاق إلى مسارات النمو والتنمية الذاتية، والتحرر من المحنة العربية:

(١) - ثقافة الدور أو الواجب الحضاري، أي إحياء فكرة الإعمار التي هي من أهم الأرصدة الثقافية للحضارة العربية - الإسلامية، بما هي واجب الإنسان في الكون. خاصة وأنّ القول قد حلَّ محل الفعل في أداء رسالة الدور الحضاري في ثقافتنا العربية، حين اطمأن العرب إلى دورهم في الماضي، فعكفوا على تمجيده، دون الإضافة إليه.

(٢) - ثقافة الامتياز والإنجاز، إذ إنّ الفائزين في المنافسة الحضارية هم مَنْ يسعون لتحقيق أعلى معدلات وأرقى مستويات الأداء في مجالات الحضارة المختلفة.

(٣) - الانفتاح والمبادرة الإيجابية، حيث أنّ الانكماش واتخاذ موقف الدفاع حيال ما يسميه البعض بـ "الغزو الثقافي" هو استراتيجية بائسة وفاشلة تماماً، فلم تعد الاستراتيجيات الدفاعية والفصامية قادرة على إنقاذ الذات الحضارية من الهزيمة أو التبعثر، وإنما صار الأمل الحقيقي في الصمود رهناً بالتعلّم واستيعاب وإتقان ما لدى الآخرين من رصيد المعارف وفنون الإنتاج، ثم في الثقة بالذات والشعور بالواجب الحضاري، وإصلاح شؤوننا الداخلية بعدما فسدت وتدهورت بدءاً من أنظمة الحكم ومروراً بنظام الجامعات ومواقع الإنتاج والخدمات.

(٤) – المؤسساتية، إذ تحتاج الثقافة العربية احتياجاً أساسياً وعميقاً لاستيعاب أهم منجزات الحداثة وهي المأسسة. التي تعني، قبل كل شيء، الاهتمام بتمييز الخط الفاصل بين الشخصي والعام، وخاصة فيما يتعلق بالدور، ولكن أيضاً فيما يتعلق بالملكية والسلطة. كما تعني شيئاً من الاتصال والتراكم والديمومة في أداء الوظائف.

(٥) - التصحيح المستمر والنظر للمستقبل، فبسبب المساحة المهيمنة للمطلقات، والتعلق الشديد بالماضي، لا يحتلُّ المستقبل المساحة الجديرة به في الثقافة العربية، فالمستقبل "ليس سوى مجرد استمرار للماضي، بل أنّ أفضل مستقبل هو ما يتقيد بأفضل ما في الماضي"، وكأن الزمن لا يفعل سوى إعادة إنتاج نفسه في نموذج مثالي سرمدي مطلق الصلاحية والحضور.

وهكذا، لم يعد مستقبل الثقافة العربية محصوراً في التعليم رغم أهميته، أو مقتصراً على مشكلة الكتاب رغم تصاعد دوره وتنوّع وسائل تيسيره وإشاعته، وإنما أصبح المستقبل أفقاً من الإمكانات المتعددة التي تتعدد فيها وسائط التثقيف التي وصلت إلى درجة هائلة من الانتشار الإعلامي الجماهيري بواسطة التلفاز ووسائط التواصل الاجتماعي. وكان من نتيجة التعقد اللافت في علاقات العمل الثقافي وأدوات إنتاجه أن اتسع معنى التثقيف العام ليشمل جهود وزارات: التعليم، والثقافة والإعلام، والشباب، والعمل، والاتصالات، وغيرها. وتتناغم في هذه الجهود أدوار المؤسسات الحكومية وتنظيمات المجتمع المدني، بالقدر الذي تتشابك وتتقاطع فيه مصالح متعددة من الداخل والخارج، تستعين بأحدث منجزات الثورة المعلوماتية.

أوراق حقوق الإنسان

ناهد بدوية

كاتبة مهندسة سورية مقيمة في فرنسا

نقد وتطوير فكر عصر التنوير

التعدديّة ترتقي بحقوق الإنسان إلى مستوى أعلى

قال لي أحد نشطاء الثورة السورية في بداياتها: "نريد أن نبني سوريا على أساس آخر طبعة للديمقراطية وحقوق الإنسان."

حصلت الكثير من الشرور بحق الإنسان والمواطن وحقوقه بعد الطبعة الأولى لإعلان حقوق الإنسان لذلك كان لا بد من تطويره وتعديله باستمرار على ضوء التجربة التاريخية.

شكلت الطبعة الأولى لإعلان حقوق الإنسان حدثاً تاريخياً مفصلياً أطلقته الجمعية التأسيسية الوطنية الفرنسية في ٢٦ آب/أغسطس ١٧٨٩ والذي يعتبر وثيقة حقوق من وثائق الثورة الفرنسية الأساسية وتُعرَّف فيها الحقوق الفردية والجماعية للأمة. وفقاً للإعلان، يُعتبر القانون تجسيداً لإرادة المواطنين، وتكمن وظيفته في ضمان مساواة الحقوق ومنع أي تحقير "للهيئة الاجتماعية".

وقد وفر الإعلان وسائل وآليات مشابهة لتلك المذكورة في الدستور الأمريكي وميثاق الحقوق الأمريكي اللذين تمت صياغتهما في السنة نفسها، يتناول الإعلان، مثل الدستور الأمريكي، حاجة ضمان الأمان، ويحدد مبادئاً عامة للضرائب، ويُشدد خاصة على المساواة في الضرائب.

تطورت في العصور الحديثة مفاهيم الديمقراطية وحقوق الإنسان لتتضمن تعددية واحترام الاختلاف والتنوع. وأصبحت الديمقراطيات الحديثة تقدم مساحة أوسع للمشاركة السياسية والتعبير عن الآراء المختلفة. وبفضل تقدم التكنولوجيا ووسائل التواصل الاجتماعي، أصبح من الممكن تبادل الأفكار والآراء بسهولة أكبر.

يبرز الإعلان حق المواطنين في الشفافية، مما يلزم السلطة بالكشف عن كيفية استخدام الأموال العامة. وبشكل مهم، يُمنع تنفيذ القانون الجنائي بأثر رجعي، ويضع مبادئ أخرى مثل اعتبار الإنسان بريئًا حتى تُثبت إدانته، ويُؤكد على المساواة وحرية التعبير وحرية الصحافة وحرية العقيدة. كما يقر الإعلان حق الملكية مع الحفاظ على المصلحة العامة: بما أن حق الامتلاك من الحقوق المقدسة التي لا تُنقض فلا يجوز نزع الملكية من أحد إلا إذا اقتضت المصلحة العمومية ذلك اقتضاءً صريحاً وفي هذه الحالة يُعطي الذي تُنزع منه ملكيته تعويضاً كافياً.

شكلت فلسفة التنوير الأساس الفلسفي والفكري لهذا الإعلان من نظريات العقد الاجتماعي والحقوق الطبيعية وأهمها الحرية، لمفكري عصر التنوير أمثال جان جاك روسو، جون لوك، فولتير، مونتيسكيو وهوبز، داخل مُناخ تنويري بالنضال ضد النزعة الفردية المطلقة في الحكم وضد التعسف والاستبداد. وكانت هذه القيم هي أساس الدخول في عصر الحداثة.

إن عصر التنوير (القرنين السابع عشر والثامن عشر) يرتبط غالبًا بالتقدم والعقلانية وتعزيز حقوق الفرد، إلا أنه كان يحمل أيضًا عناصر معقدة وتناقضية، بما في ذلك تعزيز بعض الأفكار التمييزية. رغم أن الإعلان حدّد حقوق البشر دون استثناء (وليس حقوق المواطنين الفرنسيين أو الامريكيين فقط) إلا أن المشكلة الأساسية تجلت بتأثره بالذات الفاعلة التي أنتجت فكر عصر التنوير، الرجل الأبيض الأوروبي المسيحي، لذلك بقيت تلك الذات بالصورة الخلفية عند الفرنسيين والانكليز وبقية الدول الأوروبية التي أسست أنظمتها الديمقراطية انطلاقا من هذا الفكر الذي كان أهم ثورة فكرية سياسية حقوقية في حينها. وأضحت هذه الذات المؤسسة المعيار القياسي الذي يقف خلف تعريف الإنسان لذلك يمكن أن يفهم من قبل الكثيرين بأن هذا التعريف لا ينطبق على السود والصفر والأعراق والأديان الأخرى والمرأة، الأوربيون هم ورثة الديمقراطية الاغريقية التي كانت لا تشمل العبيد والمرأة وهذا كان أساس الشرور التي ارتكبتها الدول ذاتها التي تم صياغة دساتيرها انطلاقا من ميثاق حقوق الانسان ففي أمريكا مثلا لم يلغى التمييز العنصري ضد السود إلا في الستينات من القرن العشرين.

كما أدى تطور الحضارة الأوروبية إلى دخول العالم كله عصر الحداثة الذي اعتمد على الثورة الفكرية التي أنتجها عصر الأنوار، و تزامن عصر التنوير مع ذروة الاستعمار الأوروبي، الذي أدى الى التفاعل مع ثقافات مختلفة إلى تطوير آراء ذات مركزية أوربية، حيث كانت الثقافات الأوروبية في كثير من الأحيان تُرى كأفضل من غيرها. ساهمت هذه المركزية الأوروبية في خلق وتكريس الأفكار العنصرية، حيث كانت الثقافات غير الأوروبية غالبًا ما يتم تشويهها والتقليل من قيمتها. وهذه المركزية شيء فريد لم يوجد في التاريخ البشري ما يماثله من قبل. لم تماثله سيطرة الإمبراطوريات القديمة بأسرها التي اقتصرت على السيطرة العسكرية، في حين لم تقتصر الحضارة الأوربية على السيطرة العسكرية في عصر الاستعمار وانما امتدت بعده إلى السيطرة الاقتصادية والهيمنة الفكرية والثقافية. و تحول إنتاجها الفكري والثقافي والعلمي إلى تراث إنساني عام، بحيث تصدرت الحضارة الأوروبية مكان النموذج المرتجى وجعلت شعوب الدنيا قاطبة تسعى إلى التشبه به أي أنها أضحت هيمنة بالاختيار. ولكن جذور العنصرية كانت موجودة في فكر عصر التنوير ذاته.

جنور الأفكار العنصرية في فكر عصر التنوير

لم يكن الفلاسفة في عصر التنوير، على الرغم من مساهماتهم في حقوق الإنسان والمساواة، محصنين ضد التحيزات العنصرية. بعض الفلاسفة البارزين عبروا عن آراء كانت، من وجهة نظر مستقبلية، متحيزة عنصريًا. على سبيل المثال يعتبر كانط وهو من أبرز مفكري عصر التنوير في بعض السياقات من المفكرين الذين عبروا عن تحفظات أو آراء تمييزية. ففي كتابه "الأفكار العامة لفلسفة الفهم"، عبّر كانط عن اعتقاده في تفوق ثقافة الشعوب الأوروبية على الشعوب الأخرى أشار إلى أن الشعوب الأوروبية تتمتع بالقدرة على التقدم الثقافي بشكل أكبر من غيرها. مع ذلك، يجب أن يُفهم أن هذه الآراء ليست فقط نتاجًا للمفاهيم العنصرية، وإنما قد تكون أيضًا نتيجة للتحفظات التي كانت موجودة في زمانه بخصوص التفوق الثقافي والتقدم، وكذلك لمستوى تطور الفكر الإنساني في تلك الحقبة ولا يمكننا تحليل آراء كانط في هذا السياق بدون فهم السياق التاريخي والثقافي الذي كان يعيش فيه. فقد تميز ذلك العصر بالتأكيد المتزايد على التحقيق العلمي والتصنيف. ولكن وللأسف، تم استخدام هذه الروح العلمية أيضًا لدعم الأفكار العنصرية. فتطوير نظام تصنيف وتصنيف في علوم الطبيعة كان في بعض الأحيان يمتد إلى محاولات تصنيف وتصنيف السلالات البشرية استنادًا إلى الخصائص الجسدية والثقافية. وقد وضع هذا الأمر أسسًا لنظريات العنصرية الزائفة لاحقًا التي حاولت توفير أساس علمي للتسلسل العنصري. كانت هذه النظريات غالبًا تعتمد على تفسير انتقائي للاختلافات التشريحية والثقافية لتبرير استعباد بعض السلالات البشرية.

وحتى نظريات العقد الاجتماعي التي أسست للفكر السياسي الحديث ، التي ظهرت خلال عصر التنوير مع فلاسفة مثل جون لوك وجان-جاك روسو وغيرهم، والتي لم تكن عنصرية بطبيعتها، لكن يمكن تفسيرها أو استخدامها بطريقة تسهم في توارث أفكار تمييزية. مثل استبعاد مجموعات معينة عند تحديد حدود المواطنة. فقد اقترح بعض المفكرين أفكارًا حول المواطنة والحقوق تستبعد فئات معينة من الناس، مثل العبيد أو السكان الأصليين أو المجموعات الأخرى التي تعتبر أقل شأنا.

وكذلك جرى تطبيق أفكار العقد الاجتماعي بشكل انتقائي أحيانًا، حيث تمنح حقوقًا وحمايات بشكل غير متساوٍ لفئات مختلفة استنادًا إلى معايير عرقية أو ثقافية. لكن عصر التنوير نفسه لم يكن حركة منسجمة تماما، وكان لكل فيلسوف شخصيته المختلفة، وكانت هناك الآراء متفاوتة حول العنصرية والمساواة بين أنصاره ولم يشارك جميع مفكري العقد الاجتماعي في هذه الأفكار، كما دافع العديد منهم أيضًا عن المساواة والحقوق العالمية ودافع الكثير منهم عن المساواة والحقوق العالمية بالإضافة إلى ذلك، فإن الأفكار العنصرية في عصر التنوير وضعت الأسس لأيديولوجيات عنصرية لاحقة، لكننا لا يمكن نعتبرها نظريات عنصرية متطورة بشكل كامل كما أصبحت في القرون التاسع عشر والعشرين.

أفكار عصر التنوير تحت سهام نقد الفن والأدب

لعب الفن والأدب في الجزء المبكر من القرن العشرين دورًا مهمًا في نقد وتحليل فلسفة الأنوار من خلال التعبير عن التحفظات والتساؤلات حول المفاهيم الرئيسية للتنوير. مثل التشكيك في التقدم اللامتناهي الذي أكد عليه عصر التنوير من خلال التركيز على العقل والتفكير العلمي. وأظهرت الأعمال الفنية والأدبية

في هذه الفترة شكوكًا حول هذا التفاؤل الزائد. على سبيل المثال، روائيون مثل فيودور دوستويفسكي في رواياته "الجريمة والعقوبة" و "الأخوة كارامازوف" نقلوا مخاوفهم بشأن الفجوة بين الطبقات الاجتماعية والآثار النفسية للتحولات الاجتماعية.

بينما ركز صمويل بيكيت على فشل اللغة وعجز الإنسانية عن التغلب على حالتها، وهي المواضيع التي تم ظهورها لاحقا في أعمالٍ مثل في انتظار غودو. وكتب البير كامو رواية الغريب التي تعتبر من الأعمال الأدبية التي تشكك في القيم التقليدية وتتناول موضوعات العزلة والخوف والمعنى الحقيقي للحياة. تبرز الرواية جوانب من الإنسان تتجاوز التحليل العقلاني المألوف في فكر عصر التنوير.

كما أدى اهتمام العديد من الكتّاب والفنانين بالتنوع الثقافي إلى التشكيك في الافتراضات الأوروبية حول التفوق الثقافي وبدأت الأعمال الأدبية والفنية تبرز التنوع في العالم والقيم المتنوعة للثقافات العالمية، مما أسهم في تزايد الاعتراف بالقيم الفريدة لكل ثقافة. وسلطت بعض الأعمال الفنية في العصر الحديث الضوء على الآثار السلبية للتكنولوجيا والصناعة على الإنسان والبيئة. ونقدت هذه الأعمال الفكرة المركزية في عصر التنوير وهي أن الانسان هو سيد الطبيعة وينبغي ان يخضعها لمصلحته. الذي أدى الى التدهور الكارثي الراهن للبيئة.

بدأت في القرن العشرين بعض الأعمال الفنية والأدبية في التشكيك في الإيمان الكامل بالعقل والعقلانية. الكتّاب والفنانون بدأوا في استكشاف جوانب الإنسان التي لا يمكن فهمها بالكامل من خلال المنهج العقلاني والعلمي وأظهروا الأبعاد العاطفية والروحية التي تجاوزت إطار تفكير عصر التنوير مثل رواية الخيميائي لباولو كويلو إذ تعتبر هذه الرواية عملًا أدبيًا يستكشف أبعادًا روحية وعاطفية. تدور القصة حول رحلة روحية لشاب يبحث عن معنى الحياة ويستخدم العديد من الرموز الروحية والفلسفية. يعبر الكاتب في هذا العمل عن إيمانه بالروحانية وأهمية البحث عن الهدف الحقيقي للإنسان..

أفكار عصر التنوير تحت سهام نقد الفلسفة والفكر النسوي

انطلق نقد ما بعد الحداثة للأصولية الحداثية في النصف الأول من القرن العشرين. دافع ليوتار عن الاختلاف والتعدد في كتابه "الشرط ما بعد الحداثي" يرى ليوتار بأن الاختلاف يحتفي ب"الحكايات الصغرى" بالتعارض مع "الحكايات الكبرى" لدى العقل الغربي الكلاسيكي، والتي تقمع سرديات الأقليات في واقع الأمر. وقد توافقت معه النظرية النقدية ومدرسة فرانكفورت في ذلك، ووجهوا أعنف النقد للعقل الغربي (الأداتي)، وذلك بسبب إلحاحه على السيطرة والتحكم، وكذلك الطريقة التي يدفع بها أوجه الحياة الأخرى المختلفة إلى الهامش. غير أن النظرية النقدية لم تستسلم للفكرة التي ترى أن "الاختلاف" ذاته هو فضيلة، والاقتصار على الحقيقة السياقية ونفي كل ما هو مشترك وكوني وكلي. ووصفوا راديكالية ما بعد الحداثة بأنها يمكن أن تؤدي إلى موقف جاهل ومحافظ بحيث نقبل جميع الخصوصيات ونؤكد شرعيتها مهما كانت في حين أن بعض "الحكايات الصغرى" ينبغي أن تقمع.

فالنظرية النقدية تنتقد دائما تطرفين وتؤكد ضرورة العلاقة بين قطبين، لا يستغني أي منهما عن الآخر، فمثلا تقف الفلسفة الماركسية ضد الاضطهاد الذي تمارسه البورجوازية على الطبقة العاملة والفئات

الفقيرة وتحاول أن تفضح الشروط الظالمة التي تعيش فيها عامة الشعب ويصل الماركسيون عادة إلى حد الدفاع عن الثقافة الجماهيرية والإعلاء من قيمتها، في حين يؤكد فلاسفة ما بعد الحداثة أن الثقافة الجماهيرية التي يتمتع بها البشر إنما تضطهدهم. يحاول أصحاب النظريات النقدية تأكيد العلاقة الجدلية بينهما من دون السعي إلى وضع حلول اجتماعية وهمية. وترى النظرية النقدية أن رفض فلاسفة ما بعد الحداثة لفكرة، أن المستقبل يمكن أن يكون مختلفاً، يعطي حجة أيديولوجية للدفاع عن الحاضر وما تتمسك به النظرية النقدية هو إمكانية أن تكون الأشياء مختلفة والإنسان أكثر حرية.

انتقد هربرت ماركوز في كتابه "إيروس والحضارة" فرويد الذي يعتقد أن الكبت الاجتماعي هو خاصية حتمية من خصائص الحضارة، وقام بالجمع بين ماركس وفرويد حين بين بطريقة نظرية محضة أن أفكار فرويد عن تطور الفرد يمكن أن تتوافق مع إمكانية مجتمع بعيد عن الكبت. فإن الواقع متبدل تاريخيا وهو ليس ذلك الشيء الواحد الثابت كما تصوره فرويد، بل يتخذ أشكالا مختلفة في المجتمعات المختلفة. وهذا ما أعطى دفعاً كبيراً للمنظور الحقوقي للبشر ولإمكانية تغيير علاقات السلطة مع تغير المجتمعات وتطورها..

جاءت محاولات هابرماس في العمل على هذا التوازن أيضا وذلك عبر حماية العقل من التشكك المطلق وحمايته من الأداتية الصرف، إذ تلعب السياقات عند هابرماس دوراً كبيراً فيما نعده معرفة في أي لحظة محددة، لأن هذه السياقات تنطوي على اللغة، والممارسة الاجتماعية، والافتراضات الأخلاقية التي نعيش من خلالها. لكن هذا لا يعني أننا لن نحتاج إلى الكليات لفهم العالم. وقد بين في كتابه "المعرفة والمصالح البشرية" أن هناك أنماطاً من المعرفة. فالمعرفة ليست شيئاً واحداً بل أشياء متعددة، منها "مصلحته المعرفية" فالمصلحة البشرية في السيطرة، التي تقوم على حاجتنا إلى البقاء المادي، أدت إلى ظهور العلوم الطبيعية. كما إن لدى البشر حاجة إلى البقاء الجمعي وهذه المصلحة العملية تعبر عنها أفكار العلوم الإنسانية بإلحاحها على منجزات المجتمع القائمة على اللغة، وبين الذاتية: ممارستنا الاجتماعية، وقناعاتنا الأخلاقية، ومنتجاتنا الثقافية، وهناك مصلحة ثالثة في التحرر، هي مصلحة مستمدة من الحاجة البشرية إلى استقلالية الذات في عالم يقيدنا بصورة غير شرعية. وهذه المصلحة تنتج معرفة تشترك بشيء ما مع كلا المعرفتين الأخريين وتؤدي إلى قيام فروع نقدية معينة، خاصة التحليل النفسي والنظرية النقدية

استفاد الجانب الحقوقي العالمي من فكرة هابر ماس في تعددية المعرفة، فالمعرفة تنتج عن تعددية حاجات الإنسان، أي من الحاجة إلى السيطرة والبقاء الجمعي والتحرر. كما عمل هابرماس على العقلانية التواصلية وراح يبين كثافة المعرفة الاجتماعية، وتعقيدها، بحيث لا نستسلم لفكرة أن المعارف الاجتماعية تتعلق بالسياق وحده وترتد إليه، أو أنها تتعلق بالسيطرة وحدها وتقتصر عليها. أي، بعبارة أخرى، لا ينبغي أن نرفض "الحكايات الصغرى" لمصلحة الكوني والمجرد، بل ينبغي تعزيز العلاقة بين الاثنين. لا نقع في الواقعية المفرطة التي تفضي إلى عالم خال من المعنى إذا ما اكتفينا بتصور بودريار و"الحكايات الصغرى"، ونذهب إلى عالم أكثر حيوية تستطيع أن تنيره النظرية النقدية وتساعدنا على الفهم المتبصر لما يمكن للمستقبل أن يكون عليه. وأن المستقبل يمكن أن يكون مختلفاً بالعمل النقدي الجاد وبتأكيد حاجة البشرية إلى كل مكوناتها كي تتوازن وتزدهر.

تلتقي النظرية النقدية النسوية مع فكرة هابر ماس في تعددية المعرفة، ولكنها تؤكد أن تعددية المعرفة لا تنتج من تعددية حاجات الإنسان، أي من الحاجة إلى السيطرة والبقاء الجمعي والتحرر فحسب بل تنتج أيضا من تعددية الذات العارفة. وقد قدم الفكر النسوي الحديث الدعم الأساسي لفكرة التعدد والتنوع والاختلاف ورفض طغيان المركزية والمعيار الواحد من خلال النقد العميق لمفهوم المساواة المتضمن ضرورة التشابه مع المسيطر حتى يتم الاعتراف بالحقوق المتساوية، أو حتى من أجل الاعتراف بحق الوجود والكينونة. وقد بين الفكر النسوي في أن المساواة مع الرجال مقولة مزيّفة، تتضمن قياساً وفق معيار ذكوري، حيث أن فكرة المساواة دائما كانت تتطلب معياراً أو نموذجاً مما يؤدي إلى طغيان النموذج وقمعه للمختلف. فالمساواة الحقيقية تعتمد على التساوي في حرية الاختيارات في الحياة والعمل والحب.

العنصرية تشل حقوق الإنسان

ما زالت شرور العنصرية تنتهك حقوق الإنسان والكرامة الإنسانية وسيتطلب التغلب على آثارها المدمرة جهوداً واعية مدروسة ومستمرة. لذلك ينبغي إعادة النظر في أشكال النضال ضد العنصرية حيث تكمن العنصرية الخفية في طغيان نموذج ومعيار في تعريف الإنسان. فلم يكن هذا التعريف يشمل النسل الإنساني كله. عبر أحد مديري المدارس الداخلية التي كانت تقبل الهنود في صفوفها في العام ١٨٨٧ أي في المراحل الأخيرة من الغزو الأوروبي للعالم الجديد: "إن هدفنا هو "قتل الهندي.... وإنقاذ الإنسان.

إن تطور دراسات ما بعد الاستعمار منذ أواخر السبعينات ساهم في تحليل وتفكيك وإدانة هذه الجذور المعرفية للعنصرية، وقد لفت إدوارد سعيد في كتابه "الاستشراق"، إلى الطريقة التي انتهجها الخطاب الأدبي الغربي في وصف الشرق أو اختلاقه، إذ نظر هذا الخطاب إلى الشعوب والثقافات غير الأوروبية بصفتها "الآخر" بالنسبة إلى الغرب، لا بصفتها جزءاً من الثقافة الكونية، تلك التي يمثلها الغرب وحده. وهكذا فقد كان: "السكان الأصليين" هم جماعات أقلية محددة على نحو جائر بوساطة "تحديقة الرجل الكولونيالي" .. التي حولتهم إلى قوالب جامدة لا تنتمي الى الجنس البشري (وحشي، همجي)...". لقد رفضت الحضارة الاستعمارية منحهما هوية مستقلة عنها. فكان الرجل الأبيض هو النموذج الذي تنشأ على أساسه تعريفات الآخر. وهكذا جاءت هوية الهندي الأحمر والإفريقي والآسيوي حسب إنشاء الرجل الأبيض والافتراضات الغربية التي تتلخص أسبابها بالتسيّد والإصرار على عدم رؤية وسماع بقية شعوب.

وساهمت الأحداث الرئيسية للقرن العشرين، مثل الحروب وظهور الفاشية والنازية والهولوكوست كمحفزات لتطوير وسائل حقوق الإنسان الدولية. والتي أدت إلى إنشاء الأمم المتحدة واعتماد الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في عام ١٩٤٨ والعهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية والعهد الدولي الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والمحكمة الجنائية الدولية، واعتقال أوغستو بينوشيه ومحاكمة سلوبودان ميلوسيفيتش، والتكنولوجيا والإنترنت، وتأثير المنظمات غير الحكومية مثل منظمة العفو الدولية وهيومن رايتس ووتش صحفيون بلا حدود وأطباء بلا حدود .....الخ وكذلك ساهمت شجاعة وتصميم أعداد لا حصر لها من الأفراد من الرجال والنساء والكتاب والفنانين في تطور حقوق الإنسان الدولية.

إذن تطورت في العصور الحديثة مفاهيم الديمقراطية وحقوق الإنسان لتتضمن تعددية واحترام الاختلاف والتنوع. وأصبحت الديمقراطيات الحديثة تقدم مساحة أوسع للمشاركة السياسية والتعبير عن الآراء المختلفة. وبفضل تقدم التكنولوجيا ووسائل التواصل الاجتماعي، أصبح من الممكن تبادل الأفكار والآراء بسهولة أكبر.

على الرغم من هذه التطورات الإيجابية، هناك تحديات مستمرة تواجه تحقيق التعددية واحترام الاختلاف والتنوع في الديمقراطيات الحديثة. تشمل هذه التحديات التطرف والتمييز والعنصرية وعدم احترام حقوق الإنسان في الكثير من الأماكن. وفي عدم تطوير المؤسسات الحقوقية الدولية. ولكن التطور المستمر للفكر الديمقراطي والتفكير التنويري يشير إلى أنه يمكن التغلب على هذه التحديات من خلال تعزيز الوعي بأهمية تعددية المجتمع واحترام الاختلاف والعالم متعدد الثقافات.

إن تجاوز العنصرية الخفية والمعلنة الحالية. سوف يساهم في استكمال الثورة الديمقراطية العالمية وتجديد شبابها وتجديد إعلانها لحقوق الانسان، وسوف ترفعها الى درجة أعلى من درجات سلم الديمقراطية الطويل.

المراجع:

١- فلسفة الأنوار– فولغين – دار الطليعة بيروت

٢- الإمبراطورية ترد بالكتابة، ترجمة خيري دومة، دار أزمنة، ..

٣- إيمَّانويل كانط، أسس ميتافيزيقا الأخلاق، ....

٤- النظرية النقدية- ماكس هوركهايمر....

٥- إدجار موران- هشام شرابي- عثمان أشقرا، مقالات منشورة على موقع الأوان.

٦- الخروج من العزلة - ناهد بدوية دار النايا

أوراق
الشعر
VIVIAN.ALSAEGH
2023

تهامة الجندي
شاعرة وكاتبة وإعلامية سورية

توتُ الشَّام

يا غريب
وددْتُ
لو أَتيتكَ سائحة
أرتدي سحر الشَّرق
أُهديكَ
كرزي
توت الشَّام
وأرى قمري
يبتسمُ على شفتيك
....
يا غريب
أنا من هناك
أَنجبتني
ياسمينة بيضاء
شَرّدني
طغيان أسود
أنا الآخر
الذي تَزْدَريه

أتحايلُ على الزمن المر
ليل نهار
وأَجِدُني وحدي
على شاطئ المهجور
أرتقُ جرحي
أطرقُ أبواب ذاكرتي
علَّني أحظى
بنظرة حُب
أهبطُ أدراج عتمتي
أضيعُ في الدهاليز
ولا أرى غيرَ أحلامي
تتأرجحُ
على حِبال المشانق
أبكي
وأسألُ دمعي
أين اختفتْ حكاياتي
من أَعدمني
هنا وهناك...؟!

حسن شهاب الدين

شاعر وباحث من مصر، صدر له العديد من دواوين الشعر نذكر منها:

أشجار هاربة من الغرفة، مجاز مختلف، مُتَّهَمٌ بخداعِ العالم، جغرافيا الكلام،

شُرفة للغيم المُتعَب، مُتَوَّجٌ باسْمي، خيمة لمجنون الصحراء.

خياناتٌ

خانَكَ حتَّى الدَّرْبُ
وقتَ الرَّحيلْ
لم يَقْترِحْ ظِلًّا
لشمسٍ تَسيلْ
كانتْ مَراياه تَرَى عابرا
يُقايضُ التيهَ
بِتِيهٍ بديلْ
يرمي إلى الأيَّامِ صَحْراءَه
ويرتدي أُخرَى
وما مِنْ دليلْ
...
خانكَ حتى الظِلُّ
لم يتَّبِعْ خُطاكَ
لم يسألْكَ أينَ السبيلْ
كانَ يرى سِدْرَةَ غيبٍ
ولا..
يرى نبيًّا
غيرَ هذا الضليلْ
...

والبابُ..
قد خانَكَ إذْ جُزْتَه
ولم يَحُلْ بينَكَ والمستحيلْ
كأيِّ وجهٍ عابرٍ ربَّما
كنتَ له
أو أيِّ طَيْفٍ دخيلْ
...
وَسُلَّمٌ..
لم يرجع القَهْقَرَى
وأنتَ بالعالَمِ حُزْنًا تميلْ
ألم يَخُنْ بِصَمْتِه إذْرأى
مجرةً..
مِنْ أُفْقِها تستقيلْ
خُطاكَ إذْ تهوِي
وقد جرَّرَتْ
من خلفِها إرْثَ حنينٍ ثقيلْ
...

والشُّرفةُ الخئونُ
إذْ أسْدلتْ
-كي لا تراها -
سترَ غَيْمٍ طويلْ
كأنَّها أرملةٌ علَّقتْ
ثوبَ حدادٍ
على حبالِ الغسيلْ
...
وَغُرْفةٌ..
جُدْرانُها شاهدَتْ
وثرثرَتْ
بكلِّ قالٍ وقيلْ
مِرْآتُها..
تلكَ التي خبَّأتْ في طيّها
قميصَ ليلٍ نسيلْ
وساعةٌ..
(جُرْحٌ على حائطٍ)
تدورُ في تيهِ زمانٍ كليلْ

مصباحُها..
في رُكْنِه المُنزوي
ينسجُ خيطًا
مِنْ ضياءٍ نحيلْ
سُجَّادُها الموطوءُ
إذ يرتضي
تلكَ الخُطا تصفعُه
كالذَّليلْ
سَريرُها المجنونُ
قد أشعلَتْ
- مذ كنتما -
فيه الليالي الفتيلْ
...
كُلٌّ إذنْ خانَكَ
يا قاتلا
يعودُ كي يبكي
بصدرِ القتيلْ.

ناريمان حسن

شاعرة كردية سورية مقيمة في تركيا، من مواليد ١٩٩٧

لديها مجموعة شعرية قيد الطباعة بعنوان: "أشياء يدَّخرها المرء لنفسه"

اللوحة الصامتة

نرى الأشياء من بعيد
كطفرة مصغرة
لا يعيرها الجموع انتباهاً
نراها
ولا نكاد نلاحظ
ما تخبِّئه بين براثنها
والتي قد تكون
مهيَّأة لإصلاح تلف قديم.

*

أنتبه أننا ضائعون
والمتاهات التي نغوص بها
غير قابلة للتفكيك
الجلد الذي يتقشَّر من أجسادنا
والأصابع الصلبة
التي تغرز في جلودنا، الأيادي المرتفعة
للطمة
كلها تدلُّ على سجون عملاقة
دونما أبواب،
البريق الغامض الذي يخترق جدارها
إنما هو
بريق أرواحنا وهي تشعُّ بالحب.

*

نربي الحب أحياناً

برقة فيجرحنا

وأحياناً نركله بوحشية

فيأتينا بالثمار.

*

أحب اللوحة الصامتة

على الجدار

وعلبة السجائر المتروكة

دلالة لهزيمة الذات!

سحر بلاري مانيلو وهو يكرِّر منذ الصباح

"I can't smile without you"

شَعري وهو ينمو بغزارة

وجسدي الذي يتعافى تلركاً

ندوباً..

أحبُ كوني أتعافى، وأزهر كنبتة

زُرعت في أرضها

الحقيقية.

غمكين مراد
شاعر سوري من القامشلي

تراتيل

(١)

رُوحي:
قيثارةُ شِعرٍ
بريشةِ ألم
على وترٍ وجع

(٢)

رُوحي:
تُربةُ أحرُفٍ للحُزنِ
تُزْهِرُ كلماتٍ
ليفرَح

(٣)

رُوحي:
مغروزةٌ كدريئةِ نقاء
من شوائب الحياة
تُطْعَنُ بخنجرِ الآهةِ

(٤)

رُوحي:
أخيِّلةٌ
خالِقة
ناسكة
ناحِتة
في محرابِ الكلمات
بإزميلِ رعشتها:
تحفرُ في الحياةِ الصخرِ لتنبجسَّ غيرُها

(٥)

رُوحي:
عدميّةُ الحياةِ
وريثةُ كُلَّ الفناء
تعيشُ الحُبَّ:
كنارٍ منفوثٍ من فم تنين
كوجعٍ ملفوفٍ كجنين
طوبى للحياةِ:
حينَ نَفْتنا للخيالِ
بروحٍ كرُوحي تخلُّق لتُحَلِّق

(٦)

رُوحي:

طيرٌ بأجنحةِ الكلمات

لئلا تنفجرَ بقُنبلةِ صمت:

تُسَرْبِلُ وسعَ كونٍ يحتوي أنايَّ

تتركُ عمري ممحاةً لِما كان لي من حياة

بالأحرُفِ فيَّ:

رُوحي تُهادِنُ حربي مع أنايَّ

(٧)

رُوحي:

كأُمٍّ تلرِكةً رضيعها

دون كتابةٍ هي حليبُها

رويداً رويداً

أجفُّ وأُدْفَنُ

(٨)

رُوحي:

ميزانُ ثُقلٍ لعدمٍ في كفتين

مُتلأجحتينِ دوماً:

دونَ وزنٍ لحياةٍ كانت

دونَ وزنٍ لعدمٍ عاش

(٩)

رُوحي:

مِعوَّلٌ في يدِ فلاح

تحفرُ أرضاً من ورق

تزرعُ خُضراً من كلمات

(١٠)

رُوحي:

ميزابٌ لغيمةٍ بيضاء

في ترحالٍ دائم

طريقُها ليست السماء

داخلي لها محطةُ سوَّاد

تمرُّها:

مِسوَّدَّةً بوجعي

تُمطِرُ وجَعَها

(١١)

رُوحي:

مدينةُ خرابٍ

لفظتها الحربُ

مُلْتَمَّةً على نفسِها كرُكام

يقينُها:

الرُكامُ قاموس

التدوين ترجمةُ الخرابِ إلى سيِّرة

(١٢)

رُوحي:

مكتومةُ حياة

دونَ كتابةٍ

دون شِعرٍ

مدفونةُ قبرٍ في منفى الحياة.

أوراق
القصة

موسى رحوم عباس
كاتب وقاص سوري عضو رابطة الكتاب السُّوديين
مقيم في إسكلستونا، السويد

لا توتَ في هذه البلاد!

هذا الولد الضَّئيل الجِرْمِ، الشارد النَّظرات، الصَّامت معظم النَّهار، هو أنا، وهذا الذي يركض في دروب القرية المُترِبة، يطارد العصافير، وينثر لها الحَبَّ وبقايا الخبز اليابس، ويحفر على جانبي الطَّريق حُفرًا صغيرة يتجمع فيها ماء المطر الشَّحيح؛ لتكرَعَ الطُّيورُ منه بمناقيرها الكليلة، وتلِغَ فيها الكلابُ الشَّاردةُ؛ لتداريَ ظمأها في قَيْظٍ اشتد صَهَدُهُ، والولد الذي يرفض أن ينصب الفِخاخ للطيور، مستغلاً حاجتها للماء والفتات من بقايا طعامٍ أهلُه فقراءُ وجائعون، كما يفعل الآخرون من الصِّبية الذين احمرَّت عيونُهم من "التراخوما" وتشقَّقت أقدامهم الحافية من الرَّكض على حصى الدُّروب وأكتاف السَّواقي، أيضا هو أنا!

ما زلتُ ألاحقكَ على شاطئ الفُرات، وأنتَ تصنعُ من الرَّمل هضاباً، وبيوتاً لا أبواب لها، وتكتفي بالابتراد في أولِ النهرِ الذي لا يستر عورتك، وصوت أمك الخفيض يهمسُ، لا تغامرْ بالسِّباحة في نهر غادرٍ، يبتلعُ في كلِّ عام بعض أبنائنا، له غضبة سنويَّة في موسم الفيضان، يتحول فيها إلى وحشٍ لا رحمة في قلبه، إنْ كان له قلب! ينقلب ماؤه الفرات إلى أحمرَ كعيني ذئب جائع، تطفو على سطحه جثثُ الحيوانات النَّافقة، وملابسُ لبشر لا نعرفهم، وأباريق شاي لم يختمر بعد، وتظل جدتك تقول: " **مَنْ يعاشر البِسَّ يتحمل خرمشته**" وكنت تهزُّ رأسك متبرِّما، عاشرنا قطط الحيوان والبشر وهاهي أجسادنا ممزَّقة، وجراحها لا تلتئم، يا جدَّتي! كنتَ تضحك، كمن يبكي، نعم أعنيك أنتَ، وأمسحُ سطح المرآة أمامي؛ لتتضحَ صورةُ مَنْ أتحدث عنه.

شجرة التُّوت الوحيدة في قريتك، هي تلك الدَّومة التي تتوسط حوش حسين المحمد، إنها تبدو أجَمَةً رغم أنَّها شجرةٌ واحدةٌ، تجذب العصافير والطيور بأنواعها؛ حتى تشكِّل فوقها أسرابا أسرابا، وربما كانت محطَّة استراحة في طريق هجرتها نحو الشّمال!

كنتَ تمسكُ ببعض أوراقها وتضعها بين فخذيك، وكأنَّك تقيس اتساعها، كنتَ تضحكُ من مدرسِّك الذي أخبرك أنَّ أجدادنا في القرون الغابرة كانوا يسترون عوراتهم بورقها، لم تقتنع بذلك، لكنَّك تشعرُ بشيء من الامتنان للشجرة المباركة، وتطرد الأولاد الذين يحاولون صيد عصافيرها بمقاليعهم، وكنتَ تلعنُ القائل إنَّ شجرةً واحدةً لا تصنعُ غابة!

لن تستطيعَ الإفلات مني، حتى لو هربتَ إلى هذه البلاد البعيدة، فالمرايا في كلِّ مكان، لا تحملقْ فيها كثيرا، أستطيع أن أرى تلك التَّجاعيد التي بدأت تُظهِر خارطة للألم وأخاديد حول فمك المزموم أبدا، كمن يودُّ الكلام، ثم يتراجع في اللحظة الأخيرة، وفي كلِّ مرَّة تقف فيها في طابور الانتظار في المطارات، ويدك ترتجف؛ فيهتزُّ جواز السَّفر الأزرق بلونه الحائلِ، تكون الهدف المنشود لرجل الأمن المتخفِّي بلباسه المدنيِّ، والذي يتجوَّل بين الصُّفوف؛ ليرصدَ عيِّنة عشوائية للتفتيش الدَّقيق؛ فتكون أنتَ المرشَّح الدَّائم لهذه المهمَّة الصَّعبة

- هل تسمح يا سيد بالخروج من الصَّف؟

- ولماذا؟

- لن يأخذ الأمر وقتا، تفضَّل!

- ولماذا أنا؟

- لا، يا سيدي، لا يوجد شيء ضدَّك.

تتمتمُ، أعرفُ هذه السُّمرة التي أكسبتنيها شموس الشَّرق، والرَّجفة المزمنة عند الاقتراب من الرجال المسلَّحين أو الرَّسميين من رجال الحكومة ونسائها، بل حتى من صوت سيَّارة الإطفاء، أعرفُ، ثمَّ تبصقُ جانباً!

- ماذا قلتَ يا سيِّدي؟

- لا، لا شيء، لا شيء.

تشعرُ بالخزي لأنَّ الشُّرطي أدخل يده في مناطق حساسة من جسدك، إنَّه يبحث عن أسلحة، يريد حماية بلاده، وهل يحميها منِّي؟ وهل أنا خطير لهذه الدَّرجة؟ ربما، نحن نعيش في بركة من الدماء منذ قرون، ونقتل بعضنا شرقيَّ النهر وغربيه، ونغنِّي للنَّصر على بعضنا، قلتُ لك: لا تكثر من الحملقة في المرايا!

هذا هو جارك السُّويدي يرحل من بيته، بعد أن باعه بسعر زهيد، أعرف أنَّه لا يريد جوارك، تزعجه بشرودك المثير للريبة، ولكنني لم أزعجه، حتى إنني دعوته للعشاء أكثر من مرَّة، صحيح لم أقدم له الشَّراب؛ فأنا لا أحب سوى القهوة والشَّاي، نعم، نعم، أعرف ذلك، لكن صورة جدك يمتشق سيفه على ظهر حصانه مشنوقة إلى جدار غرفة الضُّيوف! لكن هذه صورة عزٍّ وفخرٍ، أيام محاربة المستعمر الفرنسي، لا، لا، هي نية مبيَّتة للقتال، تستطيع أن تغير مكان جلوسك بعيدا عن هذه المرآة اللعينة.

منذ الصَّباح وأنتَ تتجوَّل في شوارع استوكهولم، مدينة البحيرات والشَّواطئ الجميلة، الجو البارد قليلا جعلك تلبس معطفا خفيفا، لكنَّه طويلٌ يكفي لإخفاء سلاح، مثلاً، أعرف حبَّك للتحف واللوحات الفنية والموسيقا الكلاسيكية، وأعرف أنَّك تفكِّر بزيارة القصر الملكيِّ القديم في مركز المدينة، ففيه ما يروي ظمأك، ما الذي يفاجئك؟ ليست المرة الأولى التي تخرج من طابور الانتظار، أصبح التفتيش

الشَّخصي معتاداً، ويد المفتش وأصابعه التي تتقرى ثنايا جسدك معتادة هي الأخرى، فلمَ كل هذا الحزن؟!

أحاول اللَّحاق بكَ، وأنتَ تركضُ من بوابة القصر الملكي، دستَ على المعطف في طريقكَ، ثم رأيت حقيبتك الصَّغيرة وجواز سفرك مقلوبًا تدوسه أحذية الهاربين من طريقك، تابعتك تنعطف نحو اليمين، وتدلف للساحة الخلفية مروراً بمتحف " نوبل" وأنت تلقي بساعة يدك بعيداً، وتتخلص من آخر قطعة ثيابٍ داخليةٍ، وتعلِّقها على القائمة الذَّهبية في اللوحة المُضاءة بعد المدخل الكبير، إنه يحجب تلك الأسماء الكبيرة خلفه، تتجاوز المكتب الصَّغير المخصَّص للتذاكر، يلحق بك الموظفون، ويفسحون بالمجال للرجال المسلَّحين وضبَّاط الأمن التَّابعين للحراسات المشدَّدة في مؤسسة "نوبل" كنت عارياً تماماً، ثم توقفتَ لاهثاً وسط صالة كبيرة محاطة بالصور لرجال غريبي الهيئات بقبَّعات وبدونها، ولنساء متقدمات في العمر بدون زينة أو مجوهرات، يمكن لي أن أحدِّدَ النُّقطة التي اخترتَها،؛ لتريهم عريكَ، وتؤكدَ أنكَ لا تخفي أيَّ سلاح أو حزام ناسف، أو قنبلة، الصُّورة الكبيرة التي تقف أمامها، كانت لرجل ملامحه عربية كما يبدو بنظارته الكبيرة، وشامته الكبيرة أيضاً، وجهه متعب، لكنه يبدو كأنه فرعون هارب من أحد أهرامات الجيزة، سمعتكَ تقولُ لهم، هأنذا عارٍ في "نوبل" كان صوتكَ يختفي، ويشبه صوت أمِّك وهي تهمس، احذرْ أن ترمي نفسك في نهرٍ، لا تتقنُ السِّباحة فيه!

رأيتكَ تضع كلتا يديك محاولا سترَ عورتكَ، وأنتَ تنظرُ محملقًا في المرايا التي تحيط بك من كلِّ جانب.

كتبتِ الصُّحف في استوكهولم عن رجلٍ شرقيٍّ يتعرَّى في متحف نوبل أمام جمهور كبير من الزُّوار، ورأيتُ صورتي واضحة تماما في صدر الصفحة الأولى، وأنا منكمشٌ محاولا تغطية ما أستطيع، حزنتُ لأنَّ هذه البلاد لا ينمو فيها شجرُ التُّوتِ.

أيلول، ٢٠٢٣

سوزان خواتمي
كاتبة وقاصة سورية

عصر الديناصورات

كان زاهر يقف متأففاً بانتظاري عند الباب عندما سألتها.

رفعت نظارتها عن عينيها، فانكشفت لي جهة من وجهها بزاوية أظهرت ذقناً مدبباً يلتصق برقبتها. أجابتني:

- الصوفية مذهب....

- أمي دخيل الله.. سألتك عن البلوز الصوفية الزرقاء..!

- آه، طبعاً.. طبعاً إنها في مكان ما... ابحث بنفسك.

أعرف أن أمي ما كانت ستزعج نفسها، وتترك ما بين يديها لتلبي حاجتي، أتوقع ذلك وأتجاهله. يحدث هذا عندما تكون فرداً من عائلة مهووسة بالكتب، يظهر في بيتنا كتاب جديد بمعدل شبه يومي ولو على حساب أي حاجة للبيت.

عند موقف الباص شكوت همي لزهير:

- عائلة مجانين يا أخي، القراءة أطارت كل أبراج أدمغتهم.

- غريب أمركم، نشكر المولى ما عنا في البيت سوى الكتاب المقدس.. قل لي هل هو فايروس يحتاج علاجاً!

يمازحني زهير، فهو لا يتخيل مصيبة عائلة تقرأ.

لم تستهوني القراءة، نجوت من الفيروس بأعجوبة على حد تعبير زاهر.

الصدفة البحتة أدت لالتقاء أمي وأبي في مكتبة للكتب المستعملة، كان شجارهما حول أحقية كل منهما بالاستئثار بكتاب نادر وجداه في نفس اللحظة، السبب الوحيد لارتباطهما، تناوبا على قراءة الكتاب بعد عقد شرعي أتمَّ زواجهما، وأجّلا الإنجاب حتى الوقت المناسب لمجيئي، ثم لمجيء ابنتين لاحقتين ننعم جميعاً بصحة جيدة، ومنزل متواضع يشبه إلى حد كبير أي مكتبة في الشارع.

جميعهم عداي تستهويهم القراءة، التي لا أجد فيها فائدة تذكر، على العكس يزعجني استغراق أمي بكتبها، وإهمالها لمهامها المطلوبة تلك التي تقوم بها أمهات أصدقائي وقريباتنا اللواتي يجهلن من هو نجيب محفوظ، ولا يعرفن إذا ما كان دوستويفسكي شخصاً أو ماركة ملابس، ومع ذلك يطبخن ويعجن، وينظفن الأطباق والأوعية قبل أن تتراكم، أما أنا فمجبر على تنويعة من المذاقات السائطة أو المحروقة، ولفرط اعتقاد أمي بأن الكتب غذاء الروح، قشرت يوماً كتاباً والتهمته كبيضة مسلوقة على دفعتين.

أبي ليس أوفر حظاً بكتبه، كلما أنهى كتاباً انعكست ملامحه عليه.

يثق بإفراط بكل ما يقع تحت عينيه، يصدق السطور من ألفها إلى يائها، حتى أنه انتسب لكل الأحزاب السياسية، وإن كان للأمانة يفضل الكتب الفلسفية والطبية والتاريخية وكتب التنمية الذاتية، لكن المشكلة أنه كلما قرأ نظاماً داخلياً لحزب وقعت أهدافهم في قلبه، واشتعل حماسة.

نقاشاته البيزنطية تكفلت بسقوطه عن شجرة الحياة الاجتماعية.

معهم حق، من سيصغي إلى شخص يستفرد بالحديث ليستعرض معلوماته الوفيرة.! هو يعرف أسباب ترقق العظام، وتاريخ المنطقة أيام الآشوريين، وأسباب النزاعات والحروب، وما يخفيه السياسيون.. لم يبق بينه وبين إطلاق مكوك فضائي سوى بضعة كتب!

آخر خلاف نشب بيننا كان بسبب اقتراحي بيع الكتب التي انفجرت في أنحاء البيت، فهي تتموضع فوق رفوف مكتبتين، وتملأ السقيفة، وتجدها فوق الغسالة، بل وهناك سلة بجانب كرسي المرحاض -أعزكم الله- لمن لا يريد تضييع وقته أثناء قضاء حاجته، وتكاد لا تخلو منضدة من كتاب أو مجلة أو جريدة.

تحول بيتنا إلى مكتبة عامة بما يحتويه من ثروة ورقية أتعثر بها كلما خطوت بهذا الاتجاه أو ذاك.

كان يمكنني الشكوى حتى أبد الآبدين، وسماع انتقادات يومية "افتح كتاباً يا ولد... القراءة تزيد من وزن الدماغ، ودماغك بخفة فراشة" لولا الخلل المفاجئ الذي جعل الأرض تتوقف عن الدوران لنعلق في فصل متجمد لا يتغير.

توقع أبي ذلك، وإن لم يعرف متى سيحدث!

لم تمتلك الدولة خطة طوارئ عاجلة، وما من اقتراحات لحل مشكلة لا نعرف كم ستدوم ومتى تنتهي، أعلنت نشرة الأخبار الرسمية حالة الطوارئ، واقتصرت البرامج على تقارير تصف الوضع العام، أما أعضاء الحكومة فشجبوا واستنكروا، فيما توارى السيد الرئيس خلف حيطان قصره الدافئ.

بعد نفاذ المخزون الاحتياطي من الوقود الذي بيع في السوق السوداء، واجه الناس مصيبتهم بقمصان وسترات رقيقة لا تنفع ولا تستر، كما ارتفعت وعلى نحو مفاجئ أسعار الكتب والمنشورات الورقية والصحف، وقبل أن تكتمل فرحة الأدباء ودور النشر والمكتبات بمرابحهم غير المتوقعة، اقتحم الناس مخازنهم ومستودعاتهم، واستولوا على كل ما يؤجج النار ويبعث الدفء في عظامهم.

الارتجاف العام ونوبات القشعريرة لم تكن بفعل البرد نفسه، بقدر ما كانت بسبب الرعب.

الرعب يولد الحماقة، الرعب يولد الرعونة، الرعب يولد المزيد من الرعب.

أُحرق آخر كتاب. وكان بيتنا مليء حد الانفجار بثروة لا تقدر بثمن.

صار بيتنا عرضة للسرقة والمداهمة، فمن المتوقع اقتحامه في أي لحظة ومن المتوقع قتلنا.

من يدري!.

"يجب أن نحفر ونطمر ما لدينا"، صاح أبي

"أيضاً الادعاء بأن حالنا مزر كحال أقربائنا وجيراننا.." أضافت أمي

"من سيصدق!" علق ساخطاً

نرتجف تحت الأغطية، وعلينا إخفاء رائحة الكتب التي تتسرب من فتحات التهوية، صرنا نخشى أن تخترق الكلمات المطبوعة الجدران وتصل الآذان.

في تلك اللحظة.. وجدت نفسي أبحث عن كتاب سينقرض كالديناصورات.. لأقرأه.

لجين فهد حمزة

قاصة وطبيبة سورية، من أعمالها المنشورة: صقيع ٢٠١٥ – موشور ٢٠٢١.

السيدة أمل

- من التالي؟

هَتَفْتُ. وقد عقدْتُ العزم أن تكون هذه آخر حالة أستقبلها اليوم، ضغطت زر الحفظ في ملف برنامج "إكسل"، جذبتُ الملف الورقي، وفي الصف التالي في الخانة الأولى كتبت الرقم، اثنان وثلاثون، داهمني شعور ضاغط في جبيني، فركت ما بين حاجبي بقوة، وزفرت.

- يعطيك العافية يا ابنتي.

رفعت رأسي، كانت عجوز هرمة تقف عند الباب، طلبت منها الدخول، خيل إليّ أنني أستطيع سماع حفيف ثوبها الداكن، وأن قدميها لزجتان، كلما خطت على الأرض تركت تحتها أثراً دبقاً.

- هاتِ ما عندك.

وبقيتُ أنظر في الورقة، مثبتة القلم عند الخانة الثانية، الاسم.

لم تقل شيئاً، رفعتُ عينيّ إليها، كانت تحدق بي، أومأتُ برأسي "أسمعُكِ".

- خالد، ابني.. هل تجدون الضائعين؟

سألتني بغتة، ارتبكت، "هل نجد الضائعين حقاً؟"، سألتُ نفسي.

- هذه مهمتنا، ندوّن المواصفات و.. نبحث، أخبريني عن خالد.

تجنبتُ النظر إليها، ورنوتُ إلى الساعة في هاتفي المحمول.

- خالد ضائع، منذ سنتين، خرج من البيت في الثانية ظهراً، ولم يعد.

- اسمه الكامل من فضلك.

- خالد العمار، من أم البيادر، كان في التاسعة عشرة، لم يتمّها.. بقي له شهر وعشرة أيام حتى يتمّها. وتنهدَتْ.

- طيب، أريد أوصافه كاملة، وإذا كنت تذكرين ماذا كان يرتدي؟

- كان نحيلاً، أسمر، وعيناه واسعتان، عسليتان. حاجباه كثيفان، وله لحية خفيفة. كان يرتدي كنزة عليها شعار فريقه الرياضي المفضل، وبنطلون جينز داكن، أذكر أنه كان يرتدي.. نعم ساعة يد مدورة، وسواراً جلدياً بنياً.

كانت عيناها غارقتين في بحر بعيد، راقبت لونهما، لم يكن أخضر، ولا أسود، كان لوناً غريباً، كثيراً ما صادفته في عملي الجديد، حتى أنني أطلقت عليه اسماً، إنه لون الحزن.

استرقتُ نظرة إلى صورة ابني الموضوعة في إطار على زاوية المكتب.

- هل تعرفين إن كان على خلاف مع شخص ما؟ أو إن كانت له أي نشاطات سياسية؟

- كان شديد الكتمان، لكنني لم ألحظ تغيراً في سلوكه ذلك اليوم، استيقظ كعادته، استحم سريعاً، وأخبرني أنه خارج إلى العمل، طلب مني أن أصنع له "الكِشك" على الغداء، ورحل.

ارتعش صوتها، وتدفق احمرار إلى عينيها.

- ولم يذق الكِشك.

شعرت بقطرة ماء تتراقص على حافة جفني، ذكرت نفسي بأن البكاء في هذه المواقف محظور، ثم تساءلت.. من حظره؟!

- ما زال فراشه ممدداً على أرضية الغرفة.

توقفْتُ عن تدوين المعلومات، كنت أتابع تقلصات وجنتيها، وارتعاش شفتيها المشققتين، تبين لي أنها لم تجاوز الخمسين، وأن الأخاديد التي حفرت وجهها ليست دليلاً على مرور الزمن، بل على استيطان القهر.

- هل تحملين صورة له؟

تناولَتْ من حقيبتها المهترئة قطعة من الورق المقوى.. تأمَّلَتْها ملياً ثم دفعتها إلي. أخبرْتُها بأننا سنبذل جهدنا في البحث عنه.

وهالَني الضوء الذي أشرق في عينيها.

- حقاً؟ ستجدونه لي؟

- سنبحث..

- هل يمكن أن أسجل رقمك حتى أطمئن كل حين؟

"لا يجوز أن أعطي رقمي لأي من المسجلين عندنا لأن علاقتكم مع المنظمة وليست معي شخصياً.."، لم أقل هذا. "إذا كان كل هذا الألم جائزاً في هذا العالم المختلّ، فبعض التعاطف جائز أيضاً"، فكرت في نفسي:

- صفر تسعة... اسمي: أمل.

تعلقت عيناها بعيني، مثلما تتعلق ورقة مصفرّة بالغصن كلما هبت ريح..

وجرّت قدميها الثقيلتين مبتعدة.

رن هاتفي.

- نعم، أنا قادمة، عشر دقائق فقط، يلعب بالتراب؟ لا بأس.. دعيه.

وفي الطريق كنت أفكر بأم خالد.

وصباح اليوم التالي، كنت قد نسيت أمرها.

ولكن، بعد يومين، أو ربما ثلاثة، تلقيت مكالمة هاتفية:

- أنا أم خالد.. هل من جديد؟

"من أم خالد؟.. آه.. تلك المرأة"..

تلك الليلة واتتني في الحلم، كانت تمطر بجنون، والمرأة الغريبة تتوسد الأرض، يلفّها الضباب، وهي مبللة تماماً، وحيدة تماماً، وكابية.

توجهت إلى مكتب أحد زملائي، كان يعمل هنا مدة طويلة.

- هل عثرتم على أحد من قبل؟

- أعتقد.. نعم، بالتأكيد، عثروا على كثيرين..

صمت برهة، ثم أردف..

- اسمعي، مهمتك هنا هي التدوين، وليس العثور.

"مهمتي هي تحويل البشر إلى أرقام مثل السجون، والمستشفيات.."، قلت في نفسي.

اتصلت المرأة من جديد.

خيّبت أملها من جديد.

فتحت مواقع التواصل الاجتماعي، وقصدت الصفحات التي تتحدث عن المفقودين، عدت بذاكرة المواقع والصفحات عامين، بحثت كثيراً، وأخيراً، عثرت على منشور يحمل نفس الصورة التي أعطتني إياها المرأة، ويعلن عن فقدان الشاب خالد العمار في ظروف غامضة، نفس رواية المرأة، لا شيء جديداً ولا دليل بين الكلمات.

سحبت صورة الشاب إلى هاتفي، وتأملتها. شاب على عتبة الرجولة، لم يكن في وجهه شيء مميز، سوى أن عينيه كانتا، لم أجد وصفاً دقيقاً لإحساسي.. عيناه تفكران، لنقل إنه لم يكن ينظر حقاً، كان يبصر.

فتحت صفحة أخبار مدينة أم البيادر، وكتبت منشوراً:

"خالد العمار، من الحي السابع، فقد التواصل معه في الخامس عشر من تموز عام ٢٠١٤، لم ترد أي معلومات عنه حتى الآن، إذا توفرت لديكم أي معلومة يرجى التواصل معي أو الاتصال على الرقم: ..٠٩".

وأدرجت رقمي الخاص، وصورة الشاب.

وتابعت التعليقات.

"منذ عامين! الله يرحمه يا أختي!"

"عظامه أصبحت مكاحل"

"وأنا أيضاً ابني مفقود منذ سبعة أشهر.. قلبي يحترق"

"أتمنى أن يعود سالماً، لا تقنطوا من رحمة الله"

لا شيء جديداً، لا دليل بين الكلمات. ورسالة من زميلي تقفز فجأة على الشاشة:

"آه منك!"

واتصلت أم خالد..

وخذلتها.

أرسلت بريداً إلكترونياً إلى مكتب المنظمة المركزي، طلبت منهم التحقق من اسم خالد العمار، لم يصلني الرد. فتشت عن رقم المسؤول المباشر عن تدوين أسماء المفقودين الذين تم العثور عليهم، وأجريت اتصالاً معه، طلبت منه أن يقاطع معلوماتي عن خالد مع المعلومات الموجودة لديه.

"ماما أنا جائع"..

- انتظر..

واتصل المسؤول ليخبرني أنه لم يجد أي أثر لخالد في سجلاته.

تملكني غضب مبهم، قمت لأجهز الطعام لطفلي، وجدته نائماً على البلاط ونصف جسده عارٍ.

صباح اليوم التالي خابرتني معلمته في الروضة لتطلب مني المجيء فوراً، لأن طفلي مرض بشكل مفاجئ وتقيأ مرتين. هرعت إلى السيارة. "إنها خطيئتي، لقد غرقت في هموم الناس وأهملت طفلي"..

وإذ بهاتفي يرن..

- نعم؟ يا أختي لم أجد له أثراً! أنا مشغولة الآن.

وأطبقت الخط.

- إنه يغلي.

هتفت المعلمة، خيل إليّ أن يدي ستذوب من حرارة جبينه، وفي الطريق إلى المشفى قرّعت نفسي، مراراً وتكراراً.

تمدد الليل على سقف المدينة، حملت طفلي إلى سريري، احتضنت جسده الصغير بين ذراعي، وتحسست جبينه.. كان بارداً ورطباً.

- ياه كم أخَفْتَني يا بُنَي!

وبغتة، قفز وجه المرأة البائس إلى رأسي، تذكرت مكالمتها، ونبرتي الحادة.. ماذا كانت تقول؟ لا أذكر، لم أسمعها. مسكينة، ربما أرادت أن تخبرني شيئاً هاماً؟ وماذا ستخبرني، سوف تسأل السؤال المعتاد، وتخبرني أنها متعبة ومريضة، ولا تنام إلا لِماماً ولا تأكل إلا نزراً يسيراً، وستنعق مثل البومة. لقد أخطأت عندما أعطيتها رقم هاتفي، وأخطأت عندما أبديت تعاطفي معها، إنها ليست مهمتي، مهمتي التدوين والإحصاء وحسب.

وبعد ربع ساعة كنت أطلب رقمها.

- خالة أم خالد، كنت مشغولة، اعذريني، لا عليك.. يمكنني أن أقدر معاناتك، أنا أبذل قصارى جهدي.

" قصارى جهدي"؟ تساءلت.

وماذا يمكنني أن أفعل أكثر من ذلك؟

استقصيت عن فرق البحث الميداني، عدد أفرادها ومسقط رأسهم. وتوصلت إلى معرفة شيء أسعدني، هناك بين أعضاء إحدى الفرق شاب ينحدر من أم البيادر، توصلت إلى رقم هاتفه.

- معك أمل، من وحدة تدوين المعلومات، أريد أن أبحث في سجلات المستشفيات في أم البيادر، وأيضاً في سجلات السجون، عن شاب يدعى خالد العمار.

- سنبدأ البحث في الغد، سنمشط المدينة وكل القرى المحيطة بها، سنفتش في البيادر وفي البيوت والساحات.

- و.. ماذا لو كان اسمه غير مدرج في السجلات؟

- سأجده، إذا كان في أم البيادر. وإذا كان في السجن، سأجده.

أشعل الرجل في قلبي جذوة.

ومرت الأيام ببطء، الأمل يحدوني، والانتظار يمِضُّني.

وبعد أسبوعين، اتصل الرجل من أم البيادر:

- ما من أثر لخالد العمار، لقد تبخر تماماً.

تبخر تماماً! لم يبق منه سوى ذكرى ترسبت في قلب أمه.

- انظروا إليها، منهكة وشاحبة!

هتف زميلي في العمل ساخراً.

- أتعرفين عدد المفقودين حتى الآن؟ لقد بلغ الآلاف.. عشرات الآلاف.. ارجعي إلى السجلات.. بعضهم اختفى منذ أكثر من خمس سنوات، أتعرفين عدد المعثور عليهم؟ هه! ولكن.. لماذا..؟ لماذا هذه المرأة بالذات؟

كنت أتلمّس صورة ابني الموضوعة في إطار، لكأنه وَجَه السؤال لشخص آخر، لم أنبس.

- أنت تلاحقين السراب، ستموتين عطشاً، أنصحك أن تتوقفي عن استقبال المكالمات من هذه المرأة، ارحمي نفسك وارحميها.

وفي المساء، رن هاتفي، راقبت الاسم، اضطربت، اغتظت، تألّمت وفزعت.

- نعم، لقد فعلت كل ما بوسعي، ابنك مفقود تماماً، أرجو أن تتفهمي هذا جيداً، رقمك مسجل عندي، إذا عرفت شيئاً سأتصل أنا بك، هل فهمت؟

لا أعرف كيف صوّبت إلى قلبها الرصاصة الأخيرة!

كيف اعتقدت أن من حقي قطع السبيل؟ وإطفاء الشمعة؟

كيف اعتقدت أن من حقي سلبها حقها الأخير؟

حقها في الأمل.

كيف أطبقت قبضتي على أنفاسها.. وما بَرِحْتُ حتى لَفَظَتْها جميعاً؟

كان ذلك منذ ثلاث سنوات، لكنني أذكره جيداً.

تلك الليلة بكيت كثيراً.

لم يفارق وجهها مخيلتي، أمضيت ليالي طوالاً أتأمل المطر من خلف النافذة، ترتسم في الضباب عيناها، بنفس اللون الحزين والأجفان المتهدلة، سوى أنهما لم تشعا بالأمل كما فعلتا في مكتبي، كانتا مطفأتين.

لازمني شعور بأنني أنا من أطفأهما.

كنت كل ليلة أنتظر هاتفها، وأهيئ نفسي لأقول شيئاً ما، أي شيء أقل قسوة، لكنها لم تتصل أبداً، وكنت كل ليلة أمسك هاتفي أكثر من مرة، أبحث عن رقمها بين الأسماء، وأرتجف.

ماذا سأقول لها؟ ربما أخبرها أنني ما زلت أبحث عنه؟ لا سوف أطمئن عنها وحسب، أو.. سأطلب منها أن تغفر لي، أن تلم طيفها المقهور من تفاصيلي، من على الأريكة وفناجين القهوة وفحم النرجيلة، عن سرير طفلي وكراساته، عن وسادتي التي اعتادت نأيي واعتدت هجرها، ولكن، أخشى أن أحيي فيها الأمل، ربما تمكنت من النسيان.. ربما وجد اليأس أخيراً طريقه إلى قلبها، ما أجمل اليأس.. ما أرحمه!

ولكن، ماذا لو أنها لم تنس؟

وهل ينسى الإنسان قضيباً من النار يستعر بلا انقطاع في جوفه؟

ماذا لو أن الكلام الذي قلته نخر روحها؟ ماذا لو أمضت تلك الليلة في النواح والعويل.. حتى انفجر قلبها، وماتت؟

أتجمّد.. وأرمي الهاتف من يدي.

اليوم، وبعد كل هذه السنين، رن هاتفي في المساء.

- ألو.. سيدة أمل؟

- نعم، من على الخط؟

- أنا جئت إلى المنظمة منذ زمن، سجلت اسم ابني المفقود، خالد العمار.

تدفقت في داخلي عشرات الأسئلة والمشاعر، كان في صوتها تردد، وخوف، وأمل..

- آسفة على الإزعاج، لكني أردت أن أخبرك أن.. ربما أنا أخطأت في المواصفات، لقد قلت إنه كان يرتدي ساعة مدورة، لقد تذكرت أنها لم تكن مدورة تماماً، لقد كانت بيضاوية..

حسن رحيم

قاص عراقي، أصدر عملين: ثم نبدأ بالصراخ - مجموعة قصصية،

ومملكة السعادة - حكايات في أدب الطفل.

بعد ساعة واحدة

أوراق متناثرة تحملُ عبق الماضي، صوت القنابل شوَّه منظر الأرض، أكمِلُ مسيري بعد أن دمس الظلام، واضعاً يدَيَّ في جيوبي، مطأطئَ الرأس خشيةَ أن يراني أحد، لم تعقْني العتمة عن التقدُّم، أخذْتُ بالسير إلى بيت صديق لي كان معي على ساتر المعركة لأحمل لهم راتبه الذي تسلَّمه قبل المعركة بأسبوع، لم أحتجْ إلى من يدلُّني على مكانه، فصراخ من فجعوا على فقده كفيل بذلك، وصلت إلى زقاق، اقتربت من الباب لأرى نفسي قبل خمسة عشر عاماً واقفًا تحت النافذة ألقي لها أبيات إيليا أبو ماضي:

أَيُّ شَيءٍ في العيدِ أُهدي إِلَيكِ

يا مَلاكي وَكُلُّ شَيءٍ لَدَيكِ

أَسِوارًا أَم دُملجًا مِن نُضارٍ...

أردت إكمال البيت الثاني لكني لم أستطع، فقد انهال عليَّ ثلاثة رجال بالضَّرب والسُّباب، لم أستطعْ أن أُخفي شهقتي عندما أمسك بي أحدهم من ذقني قائلاً: "صاير رجال"، وركلني على خصيتيَّ، تركوني طريحاً أتأوَّه من ألمي، أراقب دموعها وشهقتها وهي تنظر إليَّ مُسجّى، قاطعني صوت الباب الذي أتَّكئ عليه وهو يُفتح، خشيتُ أن تراني، أخذْتُ أركض بسرعة كمن يطلقون نحوَه الرصاص، لم يوقفْني الحائط أو أسقط على الأرض من التعب، ولكني فطنْتُ إلى صوت صراخ وعويل امرأة كبيرة تركض باتجاهي، خلفها يركض عدد من الرجال والنساء، وقفَتْ لاهثةً في منتصف الشارع، شعرْتُ وكأنها ستحدثني بعيونها المحمرة من الدموع وصوتها المرتجف تصرخ عالياً "بالله عليكم أين ولدي.. ولدي.. ولدي"، لم أتحمَّل كثيراً، ودْتُ لو أستطيع احتضانها، ولكن صوتاً ما من البعيد جداً أعادني إلى تلك الغرفة، لم أعد أستطيع تحريك نفسي، نظرت إلى الساعة وجدتها الواحدة بعد منتصف الليل، زوجتي تسند رأسها على الحائط وتبكي لِمَ؟! أختي تجلس منطوية كأنّها فقدت شيئاً ما، أمي تضع صورتي في حجرها حين تقرأ القرآن، هل حصل مكروه؟

- ماذا أخبرهم الطبيب يا ترى؟! بالله عليكم أجيبوا؟ أمّي كعادتها لا ترد على أحد وهي تقرأ القرآن، تقول: "إنه لا يجوز أن نقطع كلام الله لنكلِّم بعضنا". حرَّرتُ نفسي بصعوبة، بخطوات متثاقلة اقتربت منها، جثوتُ على ركبتي، وضعتُ يدي على كتفها:

- لِمَ كل هذا البكاء؟ قابلتْ سؤالي ببكاء أشدّ.

التفتُ بحيرة...

- سناء حبيبتي، ما الذي جعل أمَّك بهذه الحال، ماذا يجري هنا؟!

شبح النُّعاس أحاط بها بعد شعورها المرير بالوَحدة، ملأتْ الحسرة صدري، لا أدري لماذا لا يجيبون؟!

أردت أن أصرخ بوجهها لأنها تركتْني وذهبتْ دون أن تتكلم، خرجْتُ من المنزل والحزن يتخلَّل جوارحي، شاهدْتُ جاري الذي كان بمثابة أبي، كم أكنُّ الحب لهذا الرجل الذي ربَّاني في بيته، ولكن هو الآخر لم يسأل عما بي؟!

بعد أن أحاط بي التعب وجدْتُ نفسي أمام بيت صديقي الذي فتح الباب مسرعاً إلى سيارته، لم يعر وجودي أي اهتمام، شعرْتُ كأنني جُرحْتُ طولاً وعرضاً، لماذا لا يسمعني أحد؟ لماذا لا يريدون إفهامي ما يحصل؟

صرخْتُ بأعلى صوتي... ولكن ليس هناك من يسمع صراخي. بعد أن شعرْتُ بالتعب، أسندْتُ ظهري إلى الحائط، حسراتي مليئة بالأسى، الناس تمرُّ دون أن تكترث لوجودي، حتّى البقَّال صديقي الذي كان ينتظر إجازتي بفارغ الصبر ليجلس معي لم يرمقْني ولو بنظرة، رغم مكانه المكشوف أمامي، شعوري بالنكران أخذ يزداد أكثر، أحدِّق في السماء بعيون تملؤها الدموع، أتَّجه نحو الجسر، ألقي نظرة في النهر، أتأمله بهدوء، أطبق أجفاني والدموع تنساب بحرقة وتحفر أخاديدها على وجهي الشاحب، صوت اخترق سمعي، رددت الجدران صداه "لقد أفاق المريض".

ناسان إسبر
كاتب وقاص وفنان تشكيلي سوري

أسى

مع آخر أشجار الخريف التي رمت أوراقها رميت أوراقي، ثماري ناضجة ولا من يجني هذا الحب الذي يذبل داخلي.

عرفتكَ عندما كانت الكوارث خبزنا اليومي، وكان لنظراتك الضائعة طعم حلو بعد جوعنا الطويل، حينما التقينا أول مرة أثناء ذهابي إلى العمل، خطفَت عيناك الساهمتان عينيَّ، ولفتَ انتباهي أن لا شيء يلفتُ انتباهك؛ لم ترَني على مر الأيام في المرات العديدة التي تصادفنا بها، حتى أغضبتني فاصطدمتُ بك عمداً وصرخت في وجهك: هييه، انتبه.

في الأيام التالية تجاهلتكَ بينما كنتَ ترمقني بعيون مقطبة، وهذه التقطيبة تضاءلت يوماً بعد يوم حتى اضمحلّت وحلّت مكانها نظرات رانية، الألفة التي عذبت فؤادي قد نالت من فؤادك أخيراً أيها الأعشى.

صار للصباحات الناعسة طعم الرحيق عندما نلتقي وتمرّ أمام عينيّ قلباً لقلب، يترك المرور ألم الفقدان وجرعة النشوة معاً، فأقضي باقي نهاري وقد شحنتني حرارة تشد جوارحي حتى انتبهت الزميلات في العمل فهمسن: "أنتِ مشرقة هذه الأيام" و"لخدّيك ألوان الورد" و"أنت تنثرين بهجة حيثما مررتِ".

أنا مدمنة دون أن أتعاطى، وألفتي بك انقلبت جاذبية، فهل تنوي إنقاذي من السقوط في متاهة الأمل؟ وهل ستتغلب الرغبة والغبطة التي تمرح بين عينيك عندما نلتقي على التردد وتبادر؟

حسناً، وماذا بعد؟ أستقضي أيامك تحدق بي كلما التقينا؟ خطرت ببالي الحكمة التي تقول: "لو إن المرأة انتظرتِ الرجل كي يبادر لانقرض الجنس البشري".

ولكن.. الآن.. أنا أمر قربك دون أن تراني، عيناك قلقتان، تتفحصان المارة في كل حدب وصوب، أعرف أنك تبحث عني، جعّدتْ حاجبيك تقطيبة عذبة زادت من هيامي بك.

الحكاية وما فيها أن أحد جيراننا أسرّ إلى والدي قائلاً: "ابنتك تفتن الرجال، من الأفضل أن تتحجب حتى نتجنب الغواية والمشاكل"؛ هكذا هو الأمر، تحجبتُ، ومنذ اليوم الأول لمروري من جديد قربك في الصباح الباكر نحو العمل لم ترني، ولم تنتبه إليّ، كنت تبحث عني كما كنتُ في الماضي، لم تكن ترى غيري في الطريق، والآن اختفيتُ من حياتكَ مع أني ما زلت في أعماقها.

مرّ يوم، يومان، ثلاثة أيام وأنا أمر أمامكَ دون أن تراني؛ قررتُ أن أصطدم بك كما فعلتُ سابقاً وأصرخ في وجهك: هييه، انتبه.

في اليوم الرابع لم تأتِ، قطعتُ الطريق أول مرة، وعدتُ وقطعته مرة ثانية وأنا آمل أن تأتي، وثالثة أخّرتني عن العمل دون أن تأتي، ودون أن تأتي بعدها قط.

مع آخر أشجار الخريف التي رمت أوراقها رميت أوراقي، يقتلني الأسى ويحرق الندم حلقي.. ثماري ناضجة ولا من يجني هذا الحب الذي يذبل في داخلي.

أوراق
النصوص
VIVIAN.ALSAEGH

وحيد نادر

شاعرٌ ومترجم وأستاذ جامعيّ من أصل سوريّ يعيش في ألمانيا. حاصل على جائزة الشّعر في الجامعات السوريّة عام ١٩٧٨، وعلى جائزة معهد غوته للترجمة الاحترافيّة/ معرض كتاب لايبزغ عام ٢٠١٢. وهو عضو اتحاد الكتّاب الألمان ورابطة الكتّاب السوريين، يكتب باللّغتين: العربيّة والألمانيّة، وله أربعة دواوين شعرية والكثير من الترجمات المتنوعة.

سجون ومخيّمات وعشّاق لاجئون
-على وقع الذكريات وتفسير الرؤى-

(إلى علي الشّهابي)

(١)

كنتُ طالباً، وكان بيتي في حمص بيتَكَ، ملجأ يختبئ خلف نفسه وتحيط به أسوارٌ من عيون العشق، والأسوار لها مفاتيح خضر تختبئ في النعناع، والنعناع لا يضيع، منْ أضاعه تسلّق أيادي اللبلاب أو قفز فوق أحجار الهوى المرصوفة كالأبجديّة أمام الحديقة، وكنتَ عاشقاً يا علي، وكان الجدار ينشقّ أمام عصا الشوق في يدك.

كنتُ، إن جئتُ إلى دمشق، ألجأ إليك في فلسطين، حيث يسكن المخيّم.

"فرع فلسطين أقرب إلينا من حبل الوريد"، قلتَ لي، لمن لا يعرف أوردة الدم الأسود في دمشق.

ما اشتقتُ مرّة إلى فلسطين إلاّ زرتُك، جلستُ إليك وأنت تسكبُ الشّاي ساخناً كذكرى اللجوء، أحمر في كؤوس من صنع حوش بلاس. أستمعتُ إلى صوتك وهو يحرّر السماوات من أوهامها والناس من قيود الذهب والياسمين، قلتَ: "لنشرب قبل أن نبردَ"، قبل أن "تطقّ الكاساتُ الوطنيّة" قلتُ أنا، وتابعتُ: "القرفةُ تغسل الشّاي، تستحمّ في ريح روحها وتنقّي في نفسها النفسَ!"، أجبتَ: "هواء لوبية يشرب ماء البحيرة في سماء طبريّا."

(٢)

التجأتُ إليكَ، يوم نزحتُ من جبال طرطوس إلى عشوائيّة الشّام في الشام، يوم بات بيتُكَ بيتي وقلنا: "فلسطين سوريّة، مَن يلتجئُ إلى مَنْ؟"

قلتَ: "لنذهب إلى دمّر، صديقنا الطيراويّ يملك بيتاً، يؤجّرك ويسكنُ عندكَ، لأنّ سترته مجيّبةٌ ببطحات العرق، اقتسمها معه واحذرا الحاجّة، زوجته!"

في دمّر، التي أسميتها الطّيرة، لجأ رفاق إلينا، اختبؤوا بين كثرة الأبواب في ظلال الأزقّة، والأزقّة تفضي إلى الضجيج، والضجيج إلى الجيران وكثرة الأولاد وروائح البرغل وشعارات البعث في مدارس جارة. لذلك لم تجد المخابرات، يوم داهمتْ تلك الظلال، سوى شغب الظلمة في وحشة الزنقة، فضرب جبنُ رجالها سيّدة البيت وأغمي على جمالها وخاف الأولاد أن يستيقظوا عند خشوع الصمت في بكاء أمّهم.

مازلتُ أشتاق إلى اللجوء في المخيّم، لكنّ المخيّمات تركت أماكنها يا علي، هاجرت لجأت إلى الدّمار وغابت، فرغم البعد عن سوريّة، معي اليوم أكثر من نصفها، نحن لاجئون يا علي، ليس في دمشق، فدمشق أصبحت كلّ مكان خارجها: قيعان البحار وبطون الأسماك والسفن الغارقة.

أما زلت نزيلَ فروع فلسطين، أما زالت أحلامك تطال تفّاح الجولان؟

(٣)

كنتُ أشعر يوم اعتقالك، أنّ فلسطين اختفت، فأذهب إلى المخيم، ولا أجده.

تخبرني: "ما أكثر الرفاق في المهاجع، وما أقلّ مدرّسي اللّغة الإنكليزيّة هناك، إنّهم يحتاجونني!"، وحين تبتسم الجوكوندا خلفك فوق حزن الحائط، لا نرى آذانه.

تقول: "ينقلونني، ينقلون ما بقي من المدرّس فيّ إلى صيدنايا أحياناً، فورشات اللّغة هناك أكبر وأكثر عدداً."

كم كان بودّي أن أسألك عن حاجة السّجن للّغات وعن التحقيق: فهل يجري التحقيق باللّغة التي يختارها النزيل؟

"لا يملكون من اللغات سوى الكرسي النازيّ، وكراسي التعذيب تتكلّم ألسنة الطغاة جميعاً."، ابتسمتَ، فانطفأتْ لفافةُ التبغ في يدك.

(٤)

أتذكّرُ يومَ زرتَ قريتي، يوم جلسنا مع الأصدقاء فوق غيم الشّرفة، حيث فاحت غرفتي بالضوء بعد أن طلاها جمالا اليرموك، ربيع ويانس، بالأبيض. رويتُ لك كيف جاءت أمّي، وأرشدتْهما إلى بقعٍ لون بهتت ووجب إعادة دهنها ثانية وثالثة: "لكنّ (جمال وجمال) لم يفهما أوامر أمّي الفينيقيّة. فهرع ثالثهما، وكان جمالاً صالحاً للترجمة. ففي ووجهه أوغاريت وبيديه يحرّك (إيل) يترجم إيحاءات الأسئلة والتفاتات التعجّب، ثمّ يفلتُ الجدران ضاجّةً بالضّحك."

حين سألتَني عن قمم الجبال التي تحرس القرية، غنّى صوتي: "هذا جبل الشفشاف، وذاك ضهر الشيخ علي، وتلك البيضة بيضاء لا تشبه إلاّ نفسها، وهذا الذي خلفنا جبلٌ بستان، وهنا يسارنا النبي متّى وينابيع صدر لا تحصى. أمّا الوادي فنبع من حمرة القلب يحرسه جرف النسور وخلفه وادٍ، على

جانبيه يشخر الماء وفي بطنه يتلاطم السمك، ومياهه قريبة من جذور شجر الجوز، له طعمٌ قالت عنه جدّتي: جنّة، مزّ لا حامض ولا مرّ، تغبّ وتغبّ، يشبع الكوثر من شفتيك ولا تشبع!"

قصصتُ عليكَ قصص المزارات الموزّعة على رؤوس التلال: "لم تكن قلاع لصوص التهريب والنهب قد سكنتها يومئذٍ، كانت قمماً من بخّور، لا يخيف جمالُها الآلهة، لكنّا نخافُها."

كان ليلاً، وكنّا نراقب الشّهب تسقط وتغيب في عمق الوديان. وحين طلع القمر، رحتُ أُفرش أمامك سطوحَ البيوت التي تسكنها عشيقاتي: "هذا بيت سنبلة وذاك بيت لوزيّة وهناك بيت رمّانة وفي عبّ الوادي بيت لوبية."

غاب نصف النجوم لحظة طلوع القمر، فرحنا ننصتُ إلى ضفادع النهر، نلغو هسيساً يهبّ مع جنيّات النسم في عرائش العنب، فينعش صدورها وصدورنا حين يرمي لنا عناقيد كالنهود، سكّر وسَكَر.

مشينا مع القمر إلى "ضهر الشيخ علي"، دخلنا إلى مقام وليّ الربّ، ارتجفنا إلاّ أنت، قلتَ: "ظلام قبور، حكّوا راحات أيديكم بخدود الظلمة المكفهرّة وأشعلوا البخّور!"

ارتجف العتم وتمايلت أشباح الضوء على قمر القبّة الكرويّة، قلتَ: "أعتقد أنّ الشيخ سعيد بأنوار زيارتنا، فاسمي من اسمه."

صباح تلك الليلة زارني الشيخ علي، جاءني في المنام وأملى عليّ لقاءنا، فدوّنت ذلك النّور فوق مخمل الرؤيا:

"أسمعُ أصواتنا في بريّة ضهر الزعتر والبلاّن، أصغي إلى تصفيق أغصان الزّيتون لقدومنا وأرى أعشاب الزّوفا تداعب نباتات الزّوبع وتغازل الطيّون. ظلال ملائكةٍ في الغيم تهدّئ من روع نباتات الكيوي في الحرّ وعناقيد العنب توشوشُ لطيور السّماني: اصفراري شوق! أرى القبور تخرج من حوّار الكلس، تسير مع الحقول نائمة تصلّي وتحضننا، ينحني ترابُها فوق أجسادنا، تأخذ أزهار النحل بتلابيبنا، تقعدنا إليها بين شجيرات الرّيحان تحت دوالٍ تتسلّق السّنديان، وأسمع أنهاراً في البعد: "أنا آدم وهذا زرعي، كلوا من بلّوطات ثماره، احصدوا أعشابي، اشربوا المتّة بعرق التين ويانسون الندى!"

هل الجلوس مع قبور الحلم حياة؟

(٥)

في الحلم تكلّمتُ إليكما/علي وعلي، فرشت له/لك ذكرياتي مثل سجاجيد من زنبق وأفصحتُ:

"كنتُ ألتجئ إليكَ يوم تضيق بي البريّة، أجلسُ وتجلس أنثاي معي بين يديك، نشكو إليك اعتمادنا عليك، فأرى حجارتك تبتسم، كأنّها أبيات شعر السماء تشرح صدرينا المجتمعَين على موقد لهاثِهما. لم تبخل علينا بفرح القاف والدال والسين، أيّها القدُس المثلّث كالرّحم، علّمتنا القبل والأنين وأفرحتكَ دموع لقائاتنا تدرج فوق خدودنا كالحجل، ثمّ تسقط فوق تراب جسدك. همستَ لنا: "هديتي في جلبابي الأخضر، خذاها واذهبا الآن!"

تعطيني الصبيّة خصرها، أزنّره بذراعي، ونخرج ماشين صوب الخلف. كان وجهك يفرش الضوء فوق لحيتيّ الطريق الربيعيّتين، وكانت القطع النقديّة تخضرّ في خلعتك، فنغسلها بماء شفاهنا ونفركها بعرق أيدينا، ثمّ نبادلها في حانوت القرية بالسجائر والعلكة.

هو وقع الذكريات وتفسير الرؤى، هي أشباح تراودني الآن يا علي، فلغاتي تغسل قبوري السوريّة، تلفّها بأوغاريت والحرير كي لا أصبح أعجميّاً وأقرأ أحلامي بغير العربيّة. لماذا لم تحسّنوا لغة خاصة بالسجون لأجيالنا القادمة، لغة لا تفهمها الكاميرات ولا يفسّرها الحرّاس والعسس؟ أين يخرج طلاّب سجنك بعد الدرس وأين تقضون استراحاتكم في الحبس بعد الحبس؟ ما معنى الاستراحة في لغة احتلالات سوريّة؟ متى ستسرّح بلادنا سراحاً جميلاً؟ متى يتقاعد السوريّ في السجن، بعد السجن، قبل السجن؟ ألا تشيب الغربان على النوافذ؟ هل تبصرون العذراء في مسيح غيوم تمرّ/غيوم ستمرّ، وهل غزالات الصبح سوداء في صيدنايا؟

ياسر نديم سعيد
طبيب سوري مقيم في أمريكا

والدي سيدي
بعض من سيرة ضابط علوي سوري بعثي
نديم يوسف سعيد (١٩٣٦-٢٠٢٣)

العنوان هو أيضاً عنوان فيلم سينمائي إيطالي حضرته في صالة الكندي بدمشق في الثمانينيات، وأذكر لدى خروجي من الصالة أنني قابلت سيدة سورية وهي مطلقة شاعر سوري معروف وكانت صديقة للوالد وأحد أعمامي، أذكر أنها قالت لي "يجب أن يشاهد الفيلم أبوك"، ويبدو أنها كانت تنتقده بسبب شخصية الأب الصارم المستبد التي تشبه إحدى شخصيات الفيلم.

لعل كلمة "سيدي" تتطابق مع شخصية والدي الضابط الذي ملكت حياته الشخصية الصفة العسكرية السلطوية الآمرة بكل مناحيها حتى العائلية منها، فقد اكتشفنا مثلاً نحن أبناؤه السبعة (٤ ذكور و٣ إناث) عندما كبرنا أنه كان يقسمنا إلى ما يشبه الكتائب أو السرايا حيث يكون كل كبير منا مسؤولاً عن عدد من الأصغر سناً منه، مسؤولاً عن دراسته وتتم محاسبته شخصياً عن الأداء المدرسي لأخوته مثلما يحاسب القائد الأصغر رتبة منه عن أفعال جنوده..

كان الاهتمام بالعلم والتحصيل الدراسي هو صفة الوالد الشخصية الثانية بعد الصفة العسكرية..

عندما كان والدي نقيباً في الجيش ولديه عائلة وأطفال درس البكالوريا من جديد وسجل في كلية التجارة وحصل على شهادة البكالوريوس التي كانت معلقة في بيتنا دون أن يكون له فيها أي حاجة أو فائدة مادية في السلك العسكري، وقبل أن يتطوع في الجيش أصلاً درس في معهد للإحصاء تابع للأمم المتحدة مدة عام ربما وتوظف في وظيفة مدنية في وزارة الاقتصاد في دمشق، ولكنه سرعان ما ترك الوظيفة المدنية وتطوع في الجيش الذي كان يحقق له حينها الشخصية السلطوية والترقي الاجتماعي كما يحلم..

كان لا يعترف إلا بشهادة البكالوريا العلمية وينظر بازدراء إلى حملة شهادة البكالوريا الأدبية رغم أنه كان مجتهداً في اللغة العربية والمواد "الأدبية" عموماً فهو يريد التفوق في كل شيء، وحتى عندما كان في دورة أركان في الجيش كان يدرس معنا مثل تلميذ مجتهد وأراد دائماً الحصول على الدرجة الأولى..

طفولة والدي في قرية القطيلبية (جبلة-اللاذقية) كانت حياة فقر حيث كان الابن الأكبر لعائلة فلاحية من العوام كما يسمى عند العلويين تمييزاً عن عائلات الإقطاع (الآغوات) أو عائلات مشايخ الدين، ولكن زوجته الأولى والدتي كانت ابنة مشايخ ورغم خلافه معها وانتقاده لمشايخ العلويين بسبب جهلهم كما يقول وارتزاقهم من العوام (الزكاة تدفع مباشرة لهم دون رقيب أو حسيب على أساس الثقة بأنهم سيوزعونها بالعدل على المحتاجين)، ورغم ذلك تزوج مرة ثانية من ابنة مشايخ أيضاً. كان يعادي الآغوات أيضاً بسبب دورهم السلبي في المجتمع العلوي. بالمناسبة كان ينتقد من لديه الكثير من الأولاد ويقول عن نفسه أنه كان غبياً لأن لديه سبعة أولاد.

لم يشجع والدي أحداً من أبنائه الذكور على تعلم الدين العلوي (الإناث العلويات لا يتم تعليمهن الدين)، وكان يسخر منا عندما نحصل على درجة كاملة مثلاً في التربية الإسلامية في المدارس.

كان والدي يعتبر نفسه ملحداً ولكنه كان يعبد العلم وكان مادياً في تفكيره الفلسفي ولكنها المادية الميكانيكية وليست المادية الجدلية كما كان يظن هو نفسه.

كان والدي قومياً بعثياً يسارياً في فكره السياسي دون التزام أيدلوجي حزبي محدد، فلم يكن يعادي الناصرية أو بعث صلاح جديد أو بعث حافظ الأسد أو رفعت الأسد، بل عمل مع الجميع، ولم يكن يؤمن بالمعارضة السياسية في أي عهد، لأنه كان شديد الإيمان بالفكر التآمري على المستوى العالمي والمحلي، بل كان يعتبر كل المعارضات عملاً استباقياً من أعمال المخابرات نفسها، كي تكشف في كل عهد الموالين وغير الموالين..

سكن والدي بالإيجار دوماً في مدينة دمشق مبكراً جداً، تنقلنا من الشيخ محي الدين إلى كيوان ثم المزة حيث ما زال بيتنا قائماً، رغم رحيل والدتي ووالدي، بيت العائلة الذي قضينا فيه جميعاً معظم طفولتنا وشبابنا. كان والدي مقصد أخوته جميعاً (٦ ذكور وأنثى واحدة.. سبعة أيضاً..) في الخدمة الإلزامية أو الدراسة الجامعية أو العمل.. كما كان بيتنا مقصد الأقرباء الأقربين والأبعدين لكل من له حاجة في العاصمة.

عيّن والدي في الحركة التصحيحية مديراً لمدرسة الإعداد الحزبي، حين كانت المكان الذي احتجز فيه مدة أيام قيادات بعثية معارضة للحركة التصحيحية وألقيت على مسامعهم محاضرات تشرح الأوضاع الجديدة وتطالبهم بالتعاون مع العهد الجديد، وبالفعل أصبح عدد منهم فيما بعد من رجالات العهد الجديد.

ولكن أهم منصب استلمه الوالد كان رئيس فرع المخابرات العسكرية في المنطقة الجنوبية (السويداء ودرعا) إبان الحركة التصحيحية أيضاً، وقد سكنا مدينة السويداء سنتين تقريباً، وأذكر حينها أن مجموعة من أقربائنا في القرية زارتنا وكان بعض أولادهم يرسبون في البكالوريا سنوات عدة وطلبوا من والدي المساعدة في تطويعهم في الجيش، ولما كان والدي في المخابرات فقد تطوعوا جميعاً بالمخابرات، وما إن جاءت الثمانينيات حتى كانوا رقباء ومن ثم مساعدين فاعلين في جبلة ودمشق وحلب، وقد استلم اثنان منهم قيادة مفرزة الأمن العسكري في جبلة، ومن كان منهم في حلب، تسبب مع زملائه في اغتيال الطليعة المقاتلة لخال والدي العسكري المتقاعد الكبير بالعمر ولديه محل اسكافي في أحد أسواق حلب، وكان بعض عناصر المخابرات يتوقفون عند محله أحياناً لشرب الشاي، فأصبح هدفاً للاغتيال. كان خال والدي هذا قد ساعده في شبابه حين رفض جدي لأبي إكمال دراسته وطلب منه العمل مبكراً لمساعدة العائلة أو التطوع كصف ضابط فتعهد خاله بإعالته وأخذه معه إلى بيته في حلب حتى حصل على البكالوريا.

ولكن أشهر الأقرباء من صف الضباط في المخابرات العسكرية قتل بطريقة مختلفة حيث اشتهر باقتحاماته الجريئة لمقرات بعض شبيحة بيت الأسد في القرداحة نفسها، وهم الذين يعملون في التهريب وغيره من الأعمال غير القانونية، حين كان الأسد الأب أو الابن نفسهما يحاولان أحياناً ضبط سلوكهم، فنصب له بعض شبيحة بيت الأسد عدة كمائن وأصيب عدة مرات بأعيرة نارية وحاول النظام علاجه في سوريا وفي ألمانيا ولكنه توفي في النهاية إثر مضاعفات جراحه.

كان رئيس الوالد المباشر في المخابرات اللواء حكمت الشهابي (الذي كان مشرفاً على إدارة الأمن العسكري، قبل أن يصبح رئيساً لهيئة الأركان)، وكان علي دوبا حينها رئيس فرع مخابرات أيضاً، وكان يحاول أحياناً تجاوز حكمت الشهابي بعلاقته مع أبي، ولكن أبي كان يرفض دائماً هذا التجاوز، وعندما استلم علي دوبا المخابرات من حكمت الشهابي نقل والدي من المنطقة الجنوبية إلى دمشق، حيث عمل رئيساً للضابطة الفدائية أقل من سنة، ثم نقل إلى سلاح الصواريخ الجديد حينها، وعُيّن نائب قائد لواء صواريخ في حمص حوالي السنة، ثم نقل ليصبح رئيس التوجيه السياسي في الدفاع الجوي وكان مقره في المليحة بريف دمشق، وكان ذلك بمثابة تجميد لمستقبله العسكري، حيث كان معروفاً بـ "لسانه الطويل" وانتقاداته الدائمة العلنية للقيادات العسكرية والسياسية باستثناء حافظ ورفعت الأسد طبعاً.

من الحوادث المهمة عندما كان رئيس فرع مخابرات عسكرية أنه اعتقل مرة امرأة، كانت تدير بيت دعارة في درعا يتردد عليه الضباط، خوفاً من احتمال تورطها مع الموساد مثلاً، ولكنها كانت "مدعومة" تخلّص نفسها دائماً منه، حتى جاءه أمر من حكمت الشهابي نفسه بتركها وشأنها. وبعد مدة من الزمن وبعد تركه المخابرات، قرأ اسمها من جملة أسماء المتورطين باغتيال محمد عمران في لبنان.

شغل والدي وقته في التوجيه السياسي بإصدار مجلة "بالمرصاد" مجلة الدفاع الجوي العسكرية بطبعات أوفست حديثة ملونة، وساعده وزير الإعلام أحمد اسكندر أحمد وغيره (كان يتم تهريب الورق من لبنان مثلاً عن طريق الجيش السوري طبعاً بعلاقات شخصية مع ضباط أيضاً)، حيث تم بيعها في المكتبات العامة، وساعدته المرحومة سهام ترجمان وكانت صديقة العائلة في توفير الأرشيف الضروري لإصدار أي مجلة، وقد توفر له مجموعة من الكتاب الضباط المتطوعين ومن الذين يخدمون الخدمة الإلزامية من خلفيات ثقافية وسياسية وفنية وأدبية، وكان ذلك وقت ما سمي بـ "أحداث الثمانينيات"، وأذكر أن ضابطاً كتب مقالاً حينها عن البعث الريفي والمديني (العسكر والمدنيون، اليسار واليمين) فرد عليه حافظ الجمالي بمقال في جريدة الثورة ربما أو جريدة البعث وتتابع هذا السجال مقالاً بمقال حتى جاء أمر من وزير الدفاع مصطفى طلاس بوقف نشر مثل هذه المقالات. ربما كانت هذه الحادثة آخر عهد في الصحافة العسكرية "المستقلة" نسبياً.

في ذلك الوقت المحموم نشر كتاب "الإخوان المسلمون: نشأة مشبوهة وتاريخ أسود" وورد فيه اسم والدي، هكذا: "العقيد نديم"، كضابط مستهدف للاغتيال من قبل الطليعة المقاتلة حين داهمت المخابرات "وكراً"، وصادرت وثائق نشر منها في الكتاب المذكور خريطة لمسار سيارة الوالد من بيته في المزة لمحل خياطة في برزة، حيث كان يأخذ مقاسات جسمه لتفصيل بدلة مدنية، وكانت النية اغتياله في ذلك المسار، ولكن مداهمة الوكر أجهضت العملية، وقد كانت المفاجأة صادمة لوالدي حين أدرك أنه مر وقت طويل بين المداهمة وتاريخ نشر الكتاب، ولم يتم تحذيره حينها، وحين جاء إلى بيتنا مجموعة من الضباط الكبار المعروفين لتهنئة والدي بالسلامة، سبّ علي دوبا أمامهم (بالمونة طبعاً كما كانت حساباته الخاطئة) وتساءل: هل يريدني أن أموت؟. ويبدو لاحقاً أن هذه الحادثة كانت سبب انتهاء عمله في السلك العسكري، فقد اتصل به يوماً بعد زمن قصير مدير مكتب محمد الخولي وطلب منه شرب فنجان القهوة الشهير عند "المعلم"، وأذكر أنه كان يومها قلقاً ولكنه تحمم ولبس أفضل بدلة عنده وذهب للموعد، وأظنه كان واثقاً أنه مهما كان الأمر فلن يتم توقيفه، ولكن الخولي حوّله من مكتبه مباشرة إلى التحقيق، حيث تم تعذيبه والتحقيق معه بتهمة الانتماء لتنظيم ٢٣ شباط، وكان قد تم قبيل ذلك اعتقال مجموعة من الضباط ممن يعرفهم ويعمل معهم في الجيش بنفس التهمة، ثم أحيل إلى سجن المزة وخرج منه بعد أقل من سنة وقد تم تسريحه من الجيش وفصله من حزب البعث.

عندما خرج من السجن بقي سنتين غير متوازن أو في حالة انعدام وزن، ثم حسم أموره بالانتقال إلى اللاذقية ومغادرة دمشق نهائياً، وقد ترافق ذلك لسوء حظه مع تمردنا عليه نحن أولاده وزوجته والدتي أيضاً بشكل جماعي لإيقاف استبداده العائلي نهائياً وتهديده الدائم لنا جيمعاً بالإيذاء الجسدي والمعنوي مثلما كان يفعل حين كنا أطفالاً، ونتعرض لعقوبات جسدية شديدة في مناسبات نادرة ولكنها حاسمة (ربما تعرضت شخصياً لأكبر أذى نفسي منه كوني الذكر الأكبر في

العائلة والذي تكون الآمال عليه معقودة دائماً، فإذا تم ضبطه يمكن تأمين ضبط بقية الأولاد أيضاً) للسيطرة على سلوكنا جميعاً على إيقاع رغباته وإرادته في طريقة حياتنا الشخصية في الطفولة والشباب الأول.

تعثر عمله المدني سنوات قليلة ثم توفّق بالحصول على رخصة عمل في مكتبه الخاص جانب القصر العدلي الجديد في اللاذقية، حيث ازدهرت أعماله المختلفة من تعقيب معاملات قضائية والتوسط بين البيع والشراء، واعتمد في ذلك على علاقات واسعة مع قضاة ومحامين، وقد حصل على تثقيف حقوقي جيد كعادته بصورة شخصية وليس عن طريق الجامعة، وعرف أخيراً كيف يحصل على المال دون انتظار الراتب الشهري المقطوع الذي كان يحصل عليه من الجيش.

اعتمد عندما سكن مدينة اللاذقية على وسائل النقل العامة عدة سنوات قبل أن يتمكن من شراء سيارة خاصة (بيك آب زراعي على طريقة الكثير من السوريين حينها)، وكان يتعرض لمواقف صعبة عليه شخصياً وهو المعتاد على سيارات الجيش وسائقي الجيش، وعلى خوف الناس من سطوته، ويبدو أن المجتمع العلوي، الذي خربّه النظام الأسدي مثل غيره من المجتمعات السورية، لم يعرف يوماً معنى عبارة "ارحموا عزيزَ قومٍ ذُلْ"، فقد تطاول عليه حتى من ساعدهم في الماضي، واضطر أحياناً إلى الاستعانة بزعران لحمايته من زعران آخرين.

كان عصامياً طوال حياته ولم يستغل مناصبه لتكوين رأسمال شخصي له، وعندما تقاعد من الجيش اكتشفنا أنه كان قد سحب سلفة مسبقاً من مخصصات التقاعد خصمت من مستحقاته. تقاعد الوالد من مكتبه الخاص أخيراً وأجّره وغادر اللاذقية إلى القرية ليسكن بيته مع زوجته (خالتي) في قرية مجاورة "بحزيت" وهو بيت كبير مؤلف من طابقين مع أرض صغيرة حوله يتسلى بزراعتها. شغل وقته عدة سنين قبل وفاته في إعطاء دروس مجانية لمن يرغب من الطلاب ممن حوله من كل المراحل الابتدائية والاعدادية والثانوية.. كان يدرّس كل المواد تقريباً الأدبية والعلمية.. عانى من لمفوما مزمنة ولكنها كانت مستقرة ولم يحتج علاجاً كيماوياً أو شعاعياً، ولكنها أضعفت مناعته حتى داهمته عدوى الكورونا فقضت على رئتيه ولم يستطع النجاة وتوفي في مستشفى تشرين الجامعي في اللاذقية ودفن في قرية القطيلبية.

كانت شخصيته شخصية Loner يرغب الآخرون في الاقتراب منه ولكنه يصد الجميع، ولم يكن يتعامل بالعواطف والمشاعر (أذكر عندما كنا أطفالاً نحضر فيلماً ميلودرامياً مصرياً في التلفزيون السوري أن أمي كانت تخرجنا سريعاً من صالون البيت بهدوء لندخل غرف النوم عندما تلاحظ أن عيني أبي اغرورقت بالدموع وهو يحاول إخفاء ذلك عن الجميع)، وتقول والدتي أنه لم يحمل في حضنه أحداً من أولاده منها ولم يكن يعرف كيف يدلّل الأطفال، وكان دائم التفكير والانشغال بعمله العسكري (والقضايا العامة)، العمل العسكري الذي أحبه حتى أنه حصل لدى تقاعده على مخصصات مالية عن إجازاته السنوية المستحقة التي لم "يستمتع" بها، (كان قانون الجيش مختلفاً

عن قانون العمل الموحد سيء الصيت الذي صدر لاحقاً ووحد قوانين مختلفة للجيش والموظفين المدنيين والعمال في قانون واحد جمع سلبياتها كلها وتخلص من إيجابياتها كلها).

كانت شخصيته آسرة للجميع فهو محدّث بارع وصوته عال دائماً، ويستولي على وقت أي جلسة اجتماعية مهما كان الحضور، فقد كان قادراً مثلاً على روي حتى النكات التي يعرفها الجميع مراراً وتكراراً ولكنه يرويها في كل مرة وكأنك تسمعها لأول مرة وتضحك لدى سماعها منه في كل مرة. لم يكن أصدقاؤنا يسمحون لنا بانتقاده فالكل معجب به من بعيد على طريقته. وكانت ثقافته شفاهية (لم يكن يقرأ كثيراً) بل كان يحب مجالسة المثقفين والمفكرين ويأخذ ويحفظ عنهم مباشرة، فقد كان يحفظ مثلاً الشعر (خصوصاً شعر نزار قباني الذي يحبه) عن ظهر قلب ويردده دوماً.

مع تقدم العمر والحياة المدنية وزواجه الثاني، وقد قضى مع زوجته الثانية عمراً أطول مما قضى مع والدتي، تحسنت شخصيته الصارمة قليلاً، وصار تعامله مع الأطفال والشباب الصغار أكثر ليونة وتسامحاً، وصار أقدر نسبياً على التعبير عن عواطفه، كما تغير الكثير من أفكاره الاجتماعية، واعترف بتخلفه الاجتماعي في كثير من الأمور. بالمناسبة كانت المرحومة سهام ترجمان، وهي دمشقية متزوجة من ضابط علوي استشهد فيما بعد في قصف إسرائيلي قبيل حرب تشرين، تنتقد الضباط العلويين الذين كانت تستقبلهم في بيتها مع زوجاتهم.. تنتقدهم حين تسمع نقاشاتهم السياسية الحارة فيما يخص المدينة والريف والسنة والعلويين وتقول لهم بما معناه "إنكم صحيح بتفهموا بالسياسة، ولكنكم متخلفون اجتماعياً، ولا تفهمون المجتمع السني الدمشقي خاصة".

كان والدي أحياناً كثيرة ينتقد نفسه بطريقة راجعة، ولكنه لم يكن يوماً يتقبل النقد من الآخرين أبداً حتى آخر لحظة في حياته، ينتقد نفسه بأنه لم يفهم التغيرات الاجتماعية والسياسية في حينها.. "لم يفهم اللعبة" كما كان يقول ويعتبر نفسه فاشلاً في الحياة العملية قياساً لزملائه، ولكنه يقول أنّ ضميره كان مرتاحاً وينام دائماً دون مشاكل مع نفسه.

زرته آخر مرة مع زوجتي وبناتي في بيت بحزيت في صيف ٢٠١١ (وكانت آخر زياراتي لسوريا أيضاً حين كنت مقيماً في السعودية)، وكنت أعرف في قرارة نفسي أنها ربما تكون آخر مرة أقابله فيها، ولكنه لم ينتبه لذلك، وبدل أن يستغل المناسبة في التبسط معي ومع عائلتي، امتلك الحديث كعاته لمدة أكثر من ساعة، والحديث موجه لي، وكان الموضوع طبعاً الثورة السورية، وكان يعرف موقفي، ولذلك أراد شرح موقفه وفهمه لما يحدث، وخلاصة موقفه أن الأمور ستنتهي خلال أسبوعين بالحل الأمني المعروف (سمعت لاحقاً هذا التعبير الزمني عن انتهاء "الأزمة" والذي تحول إلى شهرين ثم إلى سنتين من أبناء وبنات ضباط علويين أيضاً).

كان رحمه الله يمثّل في اعتقادي واحداً من فئة الضباط العلويين من أبناء جيله الذين انتهوا إلى السجون أو المنافي أو التهميش والنسيان أو القتل.

أوراق المسرح
والفنون
vivian Alsaegh

عبد الناصر حسو

ناقد مسرحي سوري، مقيم في ألمانيا،

أستاذ سابق في المعهد العالي للفنون المسرحية، أمين تحرير مجلة الحياة المسرحية.

(ميديا).. الشخصية التي يخشاها العالم

ثمة اختلاف واضح بين شخصية (ميديا) في الأسطورة الإغريقية وشخصية (ميديا) التاريخية التي كانت أميرة جورجية من مملكة كولخيس، وتالياً ينعكس الاختلاف في الأفعال والتصرفات والصفات والوظائف. إذا أردت استرجاع مملكتك، فما عليك إلا البحث عن الجزة الذهبية، وإذا عدت سالماً غانماً في مسعاك، فسيكون العرش من نصيبك. يمثّل يوربيدس هذه الرؤية، الرؤية الإغريقية حول (ميديا) الأسطورة والفنون والأدب والثقافة في ظل غياب الرؤية التاريخية أو بالأحرى رؤية جورجيا التاريخية.

تقول الأسطورة الاغريقية إن ميديا أحبت ياسون زعيم الأرجونوت حباً جنونياً وساعدته في الحصول على الجزة الذهبية بعد أن قتلت أخاها ومزقته اربا ونثرته في البحر، ثم غادرت موطنها مع ياسون وتزوجته، فأنجبت منه طفلين. خدعت بيلياس وقتلته بعد أن وعدته برد شبابه والذي لم يسلم العرش لياسون بعد أن جلب له الجزة الذهبية، غضب ياسون منها، وهربا إلى كورنثة، هناك أراد ياسون الزواج من غلافكا ابنة كريون ملك كورنثة، فقتلت ميديا أيضاً العروس وكريون ثم قتلت طفليها، وامتطت عربة تقودها تنانين باتجاه الشمس غارت إلى أثينا.

تزوجت ملك اثينا وأنجبت منه ابنها (ميدوس الذي يُعتبر سلف الشعب الميدي)، ثم خططت لقتل ابن الملك، وهربت من أثينا إلى موطنها كولخيس برفقة ابنها ميدوس.

أوفيد الذي يحاول الاقتراب من الرواية التاريخية، يؤكد اخلاص ميديا لياسون، ويعتبر أن ممارستها للسحر والسيطرة على العالم الطبيعي بتفاصيله، مجرد تلفيق لا أكثر، ولم تقدم ميديا المساعدة لياسون، (أُختطِفت من قبل رجال اغريقيون كانوا على سفينة أرغون رداً على اختطاف الاميرة أيو ابنة ايتاكوس ملك مملكة أرجوس في محاولات متكررة لتبادل الاختطاف واستمرار وتيرة الصراع بين الشرق والغرب)[١]. إنما منحها أوفيد فرصة للتحدث عن نفسها.

انتشرت قصتها على الأغلب موجودة في قصيدة ملحمية نسبت لبرودسيكوس من فوكايا، لكنها من الخيال الملحمي. وهي موجودة بشكل أطول في القصيدة البيثية الرابعة لبيندار، تشكل موضوع قصة أرغونوتيكا من تأليف أبولودوروس روديوس. وكذلك رسالة (ميديا إلى جاسون) المؤثرة في كتاب (التحولات) لأوفيد. بعد عودة تجار الاغريق من فينيقيا وخطف ابنة الملك (أوروبا)، جهزوا سفينة تجارية وشدوا الشراع إلى آيا مدينة من مدن مملكة كولخيس، ولما باعوا بضاعتهم حملوا معهم ميديا ابنة ملك البلاد، عندما طلب الملك ابنته ميديا منهم، رفضوا إرسالها له..)[٢] ورداً على هذه العملية، عزم باريس ابن ملك طروادة على اختطاف هيلين الجميلة زوجة منيلاوس وبسببها جرت معركة طروادة الشهيرة، تُعدّ أول صدام بين الشرق والغرب. منحها اوفيد فرصة ذهبية (للدفاع عن نفسها من خلال الموروث الأدبي لتبرير أي تصرف من شأنه أن يؤدي إلى الدفاع عن كرامة المرأة المخدوعة، مثل قتل الطفلين، وهو فعل من أكثر الأعمال الوحشية للبطلة والتي جعلت ميديا واحدة من أكثر الشخصيات المأساوية)[٣]. تبرّئ كريستا وولف البطلة التراجيدية (ميديا) من تلك التهمة الموجهة إليها.

من الصعب على ذلك المجتمع قبول تفسير الرؤية (الإغريقية) الأوروبية لشخصية ميديا، التفسير الذي جعل صورتها معروفة ومشهورة في العالم، ألا وهي ظاهرة الأم القاتلة لأطفالها، لكنه في الوقت ذاته، في الوقت ذاته لم يقدم التاريخ الجورجي القديم ولا المثقف رؤية مختلفة عما قدمه يوربيدس أو الإغريق تجاه أسطورة ميديا، والتي من المفترض أن تناقض الرؤية الإغريقية، فاستكان واستراح الجميع، بل لم يشاكس أحد خارج إطار الرؤية السابقة، لذلك، حاولت الباحثة الجورجية كتيفان ناداريشفيلي أن تُبعد التهم عن ميديا، والأصح عن تاريخ جورجيا القديم، فسعت إلى دحض الفكرة المهيمنة وإثبات فكرة (أن ميديا لم تقتل ولديها، بل الكورنثيون هم الذين قتلوهما، وألصقوا بها التهمة، وبأن المدونات الجورجية القديمة لا تحتوي على أي تفسير أدبي لأسطورة الارغونيين على الرغم من أن الجورجيين كانوا على دراية بها)[٤]، فيما أوضح الشاعر الجورجي أكاكي تسيرتيلي (١٨٤٠.

---

١. تاريخ هيرودوت، ترجمة عبد الإله الملاح، المجمع الثقافي، ابو ظبي، الامارات العربية، ٢٠٠١، ص٢٩.٣٠.

٢. المرجع نفسه، ص٣٠ (الحادثة الكبرى في القرن العشرين، هي اصطدام الحضارة الغربية بسائر المجتمعات الأخرى).

٣. د. علي حسن عبد الجيد محمد، ميديا مبدعة لقصتها، مجلة اوراق كلاسيكية، العدد١٦، ٢٠١٩، ص٢٣٦.

٤. كتيفان ناداريشفيلي، ميديا في سياق الثقافة الجورجية الحديثة P329، 2010 -2011 14 -13 phasis volum .

١٩١٥) موقف جورجيا من ميديا الأسطورة، والذي فشل في تقديم الصورة الحقيقية لتاريخ جورجيا القديم من خلال قصيدته بعنوان (ميديا)[٥] حيث تطرق إلى تاريخ مملكة كوليخس، عندما وصلت رحلة آرغونوتس، ارتأى الشاعر أن الخطأ الوحيد لميديا هو حبها لياسون، الغازي، المعتدي على بلدها، وقد صورها بأنها كانت شابة قوية عندما وصل ياسون إلى بلادها، لكنها لم تساعده في الحصول على الجزة الذهبية ولم تقتل أخاها، إنما تم خطفها، حيث كان الهدف هو إعادة تأهيل ميديا، لكن فنية الصورة جعلها، تفقد بريقها، وميديا دليل على ماضي جورجيا المسجل في المصادر القديمة. مع ذلك، فشل الشاعر في جعل صورة ميديا شائعة في جورجيا. لذلك، يفسر الشاعر تاريخ الاسطورة بشكل مختلف.

حظيت أسطورة ميديا بأهمية كبيرة لدى الكثير من كتاب المسرح على مر العصور، فقد تناولها تلميحاً أو نصاً مسرحياً كل من (يوربيدس، سينيكا، كورني، ألفارو، جريلباسي، أنوي، للألماني بلوخر، هاينر موللر، كلير تريفاكس، سايمون ستون...)، وقد كتبها بيرم التونسي في ثلاثينيات القرن الماضي.

اختار يوربيدس تحويل شخصية ميديا من شخصية اغريقية إلى أميرة بربرية مرتبطة بالتوحش والهمجية المعادية للديمقراطية عبر أفعالها وتصرفاتها وممارستها للسحر الأسود، وهي كتهديد طبيعي للحضارة الاغريقية، عندما قدم يوربيدس مسرحية ميديا أول مرة، استهجن الجمهور الاغريقي تلك الفظائع التي ارتكبتها ميديا، لكنه تقبل الفظائع بوصفها ليست اغريقية، وتساءل الجمهور كيف يمكن لامرأة بربرية أن تتحدى المجتمع اليوناني المتحضر وتسيء لهم، ثم تنجو من العقاب!، لأن يوربيدس ينهي المسرحية بانتصار ميديا (المرأة الاجنبية) الساحرة، وهذا ما يثير الجدل بين نقاد المسرح وباحثيه وجمهوره.

(ميديا هي مشروع مؤجل لامرأة محتجة قلقلة ثائرة على كل العسف الاجتماعي بكل أشكاله العرفية والدينية والسلطوية لذا يجب أن توصف بكل ما هو سيء، من قاتلة أطفال قبل ٢٤٠٠ عام إلى مرجومة بحجر وساحرة في العصور الوسيطة ثم الى خارجة عن صفوف المجتمع وساقطة في الوقت المعاصر)[٦]، متوحشة قادمة من الشرق وفق الرؤية الإغريقية، لكن ميديا لا يمكن أن تكون قاتلة لأطفالها لأنها لا يمكن لامرأة تنحدر من ثقافة الأمومة ثم تقتل أطفالها الذين أنجبتهم.

يوربيدس لم يقرأ المصادر المبكرة والتي سبقته رغم أنه كان يعرفها، لكنه استطاع أن يوظف المصادر بشكل مختلف تماماً عن حقيقتها ليكتب تراجيديا ميديا وليمرر فكرة كانت تؤرقه عن المرأة الاغريقية، فوجد ضالته في ميديا الغريبة.. و(كانت ميديا، لماذا لا تكون ميديا امرأة مسالمة، لم تقتل أحداً أبداً؟)[٧]. ميديا امرأة متحضرة، محاججة، هادئة، رزينة، صابرة عن الضرورة، محترمة. أشد ما يكره الرجال أن تجتمع هذه الصفات عند المرأة.

---

٥. المصدر نفسه، P 332 .

٦. لطيف الحبيب، ميديا، حاملة خطايا يوربيدس، الحوار المتمدن، ٢٠١٢. عن رواية (أصوات ميديا) لكريستا فولف.

٧. المرجع السابق، الحوار المتمدن.

صاغ يوربيدس هذه الأسطورة على شكل نص مسرحي بعنوان (ميديا) بما يتلاءم مع المجتمع الاغريقي آنذاك، وشكلت هذه الصياغة ظاهرة انتشرت في جميع اصقاع العالم ليس في الفن والادب فحسب، هي الأم الساحرة (قاتلة أطفالها)، بررت بعد الصياغات عملية قتل (ميديا) الأم لأطفالها بأنها كانت (تعرف أي مصير يتهدد طفليها حين سينتقم أقرباء كريون منهما بسبب ما اقترفت يدا والدتهما)[٨]، وياسون نفسه أسرع إلى القصر لحماية ولديه من انتقام أقرباء كريون، صياغة أخرى ارتأت أن قتلها لطفليها بناءً على طلب الآلهة هيرا منها، وعداً منها بأن تمنحهم الأبدية كما جاء في الاساطير الإغريقية. عندما قررت أن تقتل أطفالها، فرأت أنها طالما أنجبتهم، فيجب أن تقتلهم.

تشكل مسرحية (ميديا) يوربيدس الثلث الثاني من أحداث الأسطورة، تنتهي المادة الدرامية عندما تقتل طفليها وتمتطي العربة، الثلث الأول منها لخصتها المربية في حوارها، بينما الثلث الأخير منها، هروبها من كورنثة إلى أثينا والزواج بملكها، لم يذكرها يوربيدس، فهو لا يؤرخ سيرة حياة ميديا، لذلك أضاف وحذف واستبدل بالصفات والتصرفات.

التزم يوربيدس بوحدة الموضوع ووحدتي الزمان والمكان، لكنه لم يلتزم بأسس التراجيديا الإغريقية، بل شاكس تقاليدها، وخرج بحبكة غير مألوفة في الأعراف الاجتماعية من خلال ردة فعل ميديا بطبيعتها التي تجمع بين أقصى مشاعر التطرف بين الحب والكراهية والانتقام. ولو التزم يوربيدس بتقاليد التراجيديا الأرسطية، لكان بوسعه أن يصور ميديا على أنها امرأة طيبة تتحول إلى وحش مفزع بسبب ما تلاقيه من اهانات، فعمد إلى أن يجعل منها شريرة، شيطانة قبل التعرض الى أي ضغط، ليست لها صلة بين ميديا وبين البطل الأرسطي التقليدي وتالياً أحدثت ميديا خللاً في بنية التراجيديا، لأن يزربيدس لا يهدف أساساً إلى إثارة الشفقة والتطهير تجاهها، بل لم يعرضها أيضاً للمعاقبة، لأنها هي حققت العدالة بنفسها بحق ياسون الذي حنث بوعده، ما يهم البحث والنص المسرحي هو الثلث الثاني (الجزء الخاص بالمسرحية)، يقدم يوربيدس من خلالها قراءة مغايرة وجديدة تصب في سياق الرؤية الاغريقية، ليطرح أفكاره المرتبطة بجماعة السفسطائيين من الفلاسفة، آنذاك، فانتشرت نسخة يوربيدس ولازالت الخشبات تستقطب صياغاتها بتنويعات تلبي احتياج المجتمعات.

استبدل يوربيدس الموضوعات الإلهية بموضوعات إنسانية يتقبلها البشر، مما حول الإضاءة إلى وجوه الاسطورة وليست إلى الاسطورة نفسها، بذلك اكتسبت التراجيديا الكثير من المحتوى كالصراع الداخلي في الشخصيات. يعتبر (أول من أدخل النظرة العقلانية إلى المسرح، ذلك من خلال اهتمامه بالفرد ومشاكله، يصور لنا ميديا بأنها امرأة تحب ثم ينتكس هذا الحب ويتحول إلى مقت وعداوة)[٩]، فقد اختلق لها سيرة حياة وفق النموذج الاغريقي، ليمرر بعض الأفكار في المجتمع اليوناني القديم،

---

[٨].أ.أ. نهاردت، الملحمة الاغريقية القديمة، ترجمة هاشم حمادي، دار الاهالي، دمشق، سورية، ١٩٩٤، ص٤٩.

[٩].د. صالح رمضان رضوان، يوربيدس في مسرحية ميديا بين الموروث الديني والعقلانية، اوراق كلاسيكية، مجلد ٨، العدد ٨، ٢٠٠٨، ص٩١.

كان (يقف موقفاً معارضاً للظاهرة الاجتماعية للمرأة الخاضعة للرجل بوصفها بالقصور العقلي)، كان دور المرأة في المجتمع اليوناني القديم ينحصر في الولادة وتربية الأطفال فقط. تركز الدراسات النقدية على ياسون الوصولي، ولا يختلف عنه كريون، لذلك تناضل ميديا ضد سلطة الذكورة/الرجال.

يركز يوربيدس على ميديا الجانب الأنثوي أكثر من تركيزه على ميديا الساحرة، ويؤكد على لسان الجوقة (نساء كورنثة) أن المرأة هي صاحبة القرار وهذه النظرة الثورية تؤكد حقوق ميديا في مجتمع ذكوري، لذلك تعامل معظم الكتاب مع ميديا الأنثى التي تمثل الضحية حتى تصل إلى القرن السابع عشر، لتتحول شخصية ميديا إلى ساحة دراما نفسية اجتماعية تتحمل إسقاطات كثيرة وعميقة خصوصاً في الادب الالماني. يقول الناقد رومان والش في مجلة فيلادلفيا (لعل المدرسة الألمانية قدمت حلاً أفضل لهذه العقدة لأن الصراع هنا ليس صراعاً بين سلطة الزوج وبين محاولة يائسة لزوجة مقهورة، الصراع هنا يكمن في طرح فكرة التقييد الجنسية، أي بمعنى تفوق ما هو ذكوري على ما هو أنثوي بشكل مبالغ فيه، وتظل المدرسة الألمانية في القرن السابع عشر هي التي قدمت نهاية أكثر شاعرية تناسب تراجيديا عميقة مثل ميديا).

حاول ياسون الدفاع عن نفسه، رغم أنه وجد فيها امرأة ساحرة لكنه كان يبحث عن تأمين وضعه الاجتماعي والسياسي والمدني بوصفه منفي إلى كورنثه، لذلك سعى إلى الزواج من إبنة كريون الملك، فغضبت ميديا وقررت الانتقام، بعد أن اتفقت مع ملك أثينا العقيم على إعطائه دواءً، حيث كان ياسون يعقد تحالفات مع الآخرين (عقد زواج) على حساب ميديا مدعياً أنه لصالح أولاده، يقول: (حفاظاً على سلامتنا وسلامة أطفالنا)، يُظهر الحوار المتواتر نفاق ياسون وازدراء ميديا (أنا أعرفك، لم تعرف أبداً القانون والعدالة. كنت لا شيء عندما وجدتك، الآن تتحدث مع الملوك وتبكي الآلهة).

قصد يوربيدس أن آلهة الانتقام، لا تعاقب ميديا على قتل طفليها، ثمة قوى العدل تقف بجانبها وتساعدها للهروب من كورنثه. اعتبر يوربيدس أن ياسون أكثر وحشية ونفاقاً من ميديا بوصفه خرق القانون الالهي للزواج كونه اناني يعمل لمصلحته الشخصية ويخرق القوانين، الزواج المقدس بالنسبة لميديا زواج أبدي يمثل الثقة والتضحية بالنفس، في حين أن الآلهة عند الإغريق لم تكن خالدة، إنما كان الخلود للقوانين، لم يحدد القانون ما يجب على المواطن فعله وما لا ينبغي عليه فعله. مع ذلك، فقد اعتبر (ملعون) من تصرف بطريقة مخالفة لما تعهد به.

يؤكد يوربيدس أن ميديا كانت تشعر بالزهو والانتصار، لكن (لماذا لم تكتف بقتل كريون وابنته، ولماذا ألصق يوربيدس قتل الطفلين إليها أيضاً؟ كان عليه إما أن يوفر على ميديا مشقة قتل الطفلين البريئين، أو أن يعكس أثر ذلك على ميديا في نهاية المسرحية، بحيث لا ترتحل عن كورنثة)[١٠]، لا

[١٠]. يحيى عبدالله، ميديا أو هزيمة الحضارة، عالم الفكر، مجلد١٢، العدد٣، وزارة الاعلام، الكويت، ١٩٨١، ص٧٩.

يعرف المتفرج أين ذهبت بعد ركوبها العربة في صياغات يوربيدس؟ لكنه يتوقع أنها ستحل في أرض ما، وتعيث فيها جريمة وراء جريمة.

أخيراً تنتصر ميديا، (ينتهي الصراع بغلبة المرأة وهزيمة الرجل، ماذا لو كانت للمسرحية نهاية أخرى، كأن تشعر ميديا بالتعاسة والندم على هول ما فعلت، أو أن تلقى عقاباً على ما ارتكبت؟ لم يحدث كل هذا. بل يصورها يوربيدس على النقيض من ذلك (شعورها الزهو والانتصار على نحو قاطع قولاً وفعلاً)[١١].

في جميع المعالجات المسرحية منذ يوربيدس وحتى الان، كان (الجزء المستخدم كمادة مسرحية من أسطورة ميديا، ينتهي بهروبها على عربة يجرها تنين، لكن المتبقي من المادة الاسطورية تستمر في سرد سيرة حياة ميديا التي تزوجت من ملك أثينا وأنجبت منه ولداً ذكراً بعد أن هربت من كورنثه، ثم اضطرت للهرب إثر مؤامرة دبرتها ضد ابن زوجها ستسيوس، إلى كولخيس موطنها الذي بدأت منه أسفارها)[١٢] هربت ميديا من المكان، بمعنى رفضت المكان، ورفضت الديمقراطية الاغريقية المتحضرة منذ اللقاء الأول.

مهد يوربيدس الطريق أمام المسرحيين لمعالجات مسرحية (ميديا) التي بقيت في الذاكرة، ولم تخرج النصوص والرؤى والصياغات ومحاولات المخرجين منذ ذلك الوقت عن رؤية يوربيدس (النموذج الإغريقي للأسطورة) بوصفها الأكثر إثارة ودهشة وغرائبية. ولازالت ميديا أكثر الشخصيات النسائية إقناعاً في الاسطورة الاغريقية وأكثرهن افتناناً للكتاب والمسرحيين لدرجة أن اسمها أصبحت (شعاراً، صرخة) في النظرية النسوية.

من هي ميديا ومن أين استمدت قوتها وغناها؟ هل كانت ميديا ساحرة، شريرة، عنيفة، قاتلة أطفالها، أم كانت ضحية رؤية يوربيدس نموذج الحضارة الاغريقية؟، تدافع ميديا عن نفسها في مسرحية يوربيدس: (لأنني من أجله خنت أبي ووطني، وأتيت معك إلى بولكوس وقتلت بلياس اندفاعاً وراء نزوة..)[١٣].

صاغ سينيكا مسرحية (ميديا) بقالب ذي مرجعية رومانية، لذلك كان يتوجب عليه أن يُظهر قسوته في الكتابة لإبراز قسوتها لأن الحياة هي (الأكثر قسوة ودموية في جميع مسرحياته، ما دفعت ميديا أن تقتل أحد ولديها أمام المشاهدين ليكون المشهد دموياً)، تأثر كورادو ألفارو منذ اللحظة الاولى في مسرحية (ليلة ميديا الطويلة) ١٩٤٩ بفكر سينيكا خاصة في المساواة بين ميديا وياسون في المسؤولية، بينما يشي المشهد الأول في أن ميديا تملك قدرات سحرية تفصح عنها خادمتها بأن تأخذ من المسحوق الساحر لتجاعيد الوجه وتغيير جنسها إلى الرجل، رغم الاختلاف الطفيف بين الرؤيتين كمثال تفتخر ميديا سينيكا بجرائمها لأنه بدون هذه الجرائم لم تكن للسفينة أن تعود بسلام، بينما

---

١١. يحيى عبدالله، ميديا أو هزيمة الحضارة، عالم الفكر، مجلد١٢، العدد٣، وزارة الاعلام، الكويت، ١٩٨١، ص٧٩.

١٢. يحيى عبدالله، ميديا أو هزيمة الحضارة، عالم الفكر، مجلد١٢، العدد٣، وزارة الاعلام، الكويت، ١٩٨١، ص٧٨.

١٣. يوربيدس، مسرحية ميديا، ترجمة كمال ممدوح حمدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤، ص٣٤.

تبرر جرائمها عند ألفارو بأنها من أجل ياسون، من أجل حبها له، يبقى كريون عند ألفارو على قيد الحياة. حيث أبقى سينيكا على الخطوط العريضة للأسطورة كما عرضها يوربيدس، لكنها كانت قاسية ساحرة، زادت رغبتها في الانتقام لدرجة أن نساء كورنثة تعاطفت مع ياسون في يوربيدس، وجعلها سينيكا أقرب للمرأة المتطرفة، هل شعرت بالندم؟ لا لم تشعر بالندم.

لعل مسرحية (ميديا) ليوربيدس أكثر النصوص تجسيداً على خشبات المسارح إضافة إلى ميديا جان أنوي منذ ظهور مهنة الإخراج، إلا أن حظوظ النصوص الأخرى من ميديا والتي تعد بالعشرات لعديد الكتاب بدأت بالظهور على الخشبة إما توليفاً أو تأليفاً أو صياغة تناسب المرحلة بعد الألفية الجديدة. عُرضت مسرحية (ميديا)على خشبات مسارح العالم بجميع الإضافات والإضاءات والإسقاطات المعاصرة التي يتناولها كل مخرج بما يتوافق مع المدارس الفنية والمراحل التاريخية في الألفية الجديدة والتي تناولت العديد من التيمات المتناقضة أحياناً مع بعضها، ومع ظهور مهنة الإخراج.

ففي إحدى المعالجات الدرامية لا تنتقم ميديا من ياسون لأنه تزوج من امرأة أخرى فحسب، بل لأنه عرضها على طبيب نفساني مما شكل لها إهانة بوصفه يحمل أراء دينية، وهذا بدوره يمنع ميديا من أن تكون قادرة على تجاوز الإهانة، لتغفر له، فتعترف ميديا بعلاقتها بكل عظماء المدينة والذين يقررون قتله بل ويعتبرونها ضحية ياسون حيث تدور الأحداث في منتصف القرن الـ١٩، بداية عصر التنوير وتحرير المرأة والنهضة النسوية والخروج من بوتقة عبودية الرجل.

لقد ارتُبطت الأسطورة بسلسلة أحداث تاريخية مدونة لصالح النموذج الاغريقي (الحضارة الاغريقية)، ولا يصح الجزم بصحتها نظراً إلى الخلافات العميقة التي تحولت إلى عداء بين الحضارتين أو المنظومتين (الشرقية/ الغربية) في التاريخ القديم. تقول الكاتبة الفرنسية مادلين رودي عام ١٩٠٣ (لماذا ينظر دائماً إلى ميديا على أنها تلك المرأة الشريرة التي ذبحت أولادها لتنتقم من زوجها؟ الحقيقة أنها ضحية وليست متهمة، ياسون هو المتهم الأول الذي يمثل تلك السلطة الذكورية كزوج ماجن يسعى وراء رغبات قلبه وجسده بينما ينسى أو يتناسى ما قدمته ميديا من أجله .. لقد حطمها أيما تحطيم فلم تعد ترغب في شيء غير الإنتقام)[١٤].

تتردد جملة أسئلة في أروقة الفكر النقدي، لماذا هربت ميديا من بلدها، هل كان بسبب حبها لياسون أم بسبب حكم والدها الظالم المستبد الذي أدخلها السجن قبل قدوم ياسون؟ لماذا قتلت شقيقها؟ هل كانت في صراع مع والدها وأخيها بوصفهما رجال حكم وسلطة أم أنهم رجال ينتمي إلى جنس الذكورة فقط؟ هل كانت تبحث عن فضاءات الديمقراطية اليونانية التي وصلت أصداءها إلى كولخيس وليديا وطروادة؟ ربما تعرضت لسوء المعاملة من والدها وأخيها، فأودعها في السجن بعد وفاة والدتها، لكنها لم تظهر احتجاجاً ولم تحاول الهرب رغم أن لديها إمكانية الهرب إلا بعد أن جاء

[١٤]. باسم توفيق، اسطورة ميديا وصراع القهر الذكوري، صحيفة الراية، ٢٠١٢/٨/٢٥ .

ياسون وطلب المساعدة منها، يُقال (إن ياسون هو الذي قتل شقيقها)، لكن رأياً أخر يرى أنها هربت من كولخيس بسبب اليأس الذي تعيشه، وليس بسبب حبها لياسون، إلا أن هروبها يشكل انتهاكاً صارخاً للحكم الملكي وللهيمنة الذكورية، كان والدها حاكم مطلق الصلاحية، فتأملت أن تجد الديمقراطية في كورنثة، لكنها اصطدمت بحاكم مطلق الصلاحية أيضاً، لا يتنازل عن السلطة رغم عجزه الفيزيولوجي والفكري، تشبث بالكرسي وأراد أن يجدد شبابه. ليس ثمة تغيير، كل شيء في الشرق له شبيه في الغرب، وكل من يعتقد أن الغرب متحضر ديمقراطي، يخادع نفسه، فالغرب مبني على الخديعة والجريمة كما الشرق تماماً، من هنا يمكن القول إن ميديا (لا تسلك سلوك امرأة، لكنها تفعل ما فعلت لأنها أساساً تنتمي إلى جنس يعيش حياة تختلف عن تلك التي يعرفها اليونان.. إنها تحب بقوة، وتكره بقوة)[١٥]. هل كانت ميديا مهاجرة إم مهجّرة أم مختطفة؟ يقول هيرودوت بأن وصولها إلى بلاد الاغريق كان في سياق عمليات اختطاف الأميرات بين الشرق والغرب أشبه بعمليات انتقامية، بمعنى أنها كانت مختطفة.

الاغتراب في شخصية ميديا نابع عن التناقض الحاصل بين الواقع والتباعد عن الواقع، وعن اختلاف ثقافة التعامل مع الاخر، اغتراب ميديا، اغتراب ذو طابع إثني، اجتماعي دافعه الشعور بالقهر والتهميش، كان المجتمع الاغريقي ينظر إلى البربري وإلى الأجنبي نظرة محتقرة غير جديرة بالاحترام في الإغريق القديمة، مما يولد حقداً، صراعاً إثنياً لدى الآخر، وهذه النظرة ناتجة عن عنصرية المجتمع ورفضه للآخر، هل هذا كان سبباً في قتل طفليها؟ تشعر ميديا أنها مهمشة، مغتربة لأنها لا تنتمي إلى هذه المدينة، فتصرّ على تنفيذ قرارها، فظهرت عندها فكرة الانتقام من العروس، تقول: (أنا وحيدة، لا وطن لي، أهانني ذلك الرجل بعد أن اختطفني من بلد غريب لا أم لي ولا أخ وليس أقارب أحتمي بهم من تلك المصيبة التي ألمت بي)[١٦]. تجد ميديا أن الطبقة الحاكمة تتجاهلها، ويهددها كريون بطردها عندما يقول لها كريون: (عودي إلى قوقازك ولتجدي رجلاً من جنسك متوحشاً مثلك، اتركينا تحت سماء العقل)، ترد ميديا عليه بحيث تدرك تماماً ما ستقول: (البيت الذي تم دخوله بجريمة لابد أن يتم الخروج منه بجريمة أيضاً)[١٧]، ترتكب جريمة ثم تهرب من المكان، وما أن تستقر حتى ترتكب جريمة أخرى، فتهرب من جديد، هكذا هي حياة ميديا، هل هي لاجئة تبحث عن وطن آمن بعد أن فقدت وطنها أم هي طريدة العدالة؟، لكن هروبها المتلاحق جعلها غير مستقرة في بلد ما، وهذا ما دفع المخرج بسام السليمان أن يطرح قراءة معاصرة لموضوعة الهجرة واللجوء وموضوعة الاغتراب الديني في عرضه (أنا ميديا)، عدم الاستقرار أو عدم التلاؤم مع المكان الجديد. لذلك تمتطي العربة وتتجه باتجاه الشمس.

---

[١٥]. يحيى عبدالله، ميديا أو هزيمة الحضارة، عالم الفكر، مجلد١٢، العدد٣، وزارة الاعلام، الكويت، ١٩٨١، ص٨٢.

[١٦]. يوربيدس، ميديا، ترجمة كمال ممدوح حمدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤، ص٢٠.

[١٧]. هدى سيد أحمد ص٩٨،

في مسرحية (قاتلة أبنائها) للألماني بلوخر، (كانت معالجته لقصة ميديا من أهم معالجات هذه التيمة على مدار أكثر من ٢١ قرنا خلت)، يكمن الصراع بين زوجة محبة لدرجة الجنون لزوجها وبين زوج يمثل نموذجاً من القهر الزوجي الذكوري الذي ظهر بقوة. في مسرحية قاتلة أبنائها، تعَدُل ميديا عن قتل أطفالها، بل تقتل نفسها، لكن قبل أن تموت تعترف بعلاقاتها مع كل عظماء المدينة الذين يقررون قتل زوجها، ويعتبرون أن ميديا ضحية ياسون. تدور الأحداث في منتصف القرن التاسع عشر، بداية التنوير، وتحرر المرأة من عبودية الرجل والزوج. (أسطورة ميديا وصراع القهر الذكوري) ويطرح المخرج العديد من الأصداء الحداثية من خلال النص المعالج مثل – لماذا يكون من حق الذكر التعبير عن نزعاته الجنسية بصراحة ولا يحق للمرأة – بل إنه يورد على لسان ميديا أكثر من ذلك فهي تسأل ياسون إذا كان من حقه الذهاب لفتيات الليل لإشباع شطحاته الجسدية فلماذا ليس من حقها ولماذا يوجد فتيات للهوى ولا يوجد فتيان للهوى؟ هذا طبعا ما عبر عنه كتاب كثيرون مثل جينيه ودي بوفوار وغيرهم من مدرسة الحداثة الفرنسية.

رفض المجتمع الجورجي أو بالأحرى رفض المسرحيين في جورجيا رؤية يوربيدس عن ميديا بوصفها (قاتلة أطفالها)، ولم تنتج الثقافة الجورجية القديمة ولا الحديثة أعمالاً فنية وأدبية وتشكيلية تشير إلى شخصية ميديا، بل جرى تعتيم عليها حتى ستسينيات القرن الماضي لأنها ترتبط بالتاريخ الجورجي ارتباطاً وثيقاً، وتمس ماضيه، وباتت الأسطورة عقدة فنية، ثقافية، حضارية، لذلك أهملتها الإدارات الثقافية في جورجيا، ولم يتجرأ أحد على الاقتراب منها، بسبب الجرائم التي نُسبت إليها، وظلت رؤية يوربيدس هي المهيمنة على الإنتاج المسرحي والسينمائي والتشكيلي بكل صياغاتها اللامنتهية.

حتى قرر المخرج شكارتي شفيلي من جورجيا تقديم مسرحية (ميديا) رغم استهجان الجورجيين، كما رفضت ممثلة تقديم بدور ميديا في العمل، وأوضحت سبب عدم قبولها (رغم أنني معجبة بتراجيديا ميديا، لكنني خائفة)، كان العرض مجرد محاولة للتخلص من (عقدة ميديا)، تجاوز المخرج الكسندر تسيفيلي ١٩٩٢ الحاجز النفسي وقدم مسرحية ميديا بعد معالجة حبكتها التقليدية وابتعاده عن موضوعة يوربيدس، وقدم العرض وجهة نظره بأن خيانة ميديا لوطنها هي وراء الدافع للجرائم، خاصة جريمة قتل طفليها، وليس حبها لياسون وخيانته، لذلك قررت ميديا قتل أطفالها في اللحظة الأخيرة في ذلك العرض، في اللحظة التي سمعت خبر موت كريون وابنته في ليلة العرس بهدف ألا يُقتلا بيد أهل كورنثة، انتقاماً لمقتل كريون، وحُظي العرض بشعبية كبيرة لأن قاتل الاطفال هم الكورنثيين وليست ميديا.

حاول هذا العرض تحرير ميديا من الجريمة المنسوبة إليها تاريخياً، اخترع الآخر الاف الاكاذيب، لماذا لم يروِ يوربيدس الحكاية الحقيقية. لقد أحبت ميديا والدها وشقيقها ووطنها، وهذا شيء لا يمكن لأحدٍ القيام به لأن الآخر ينتمي إلى مجتمع التعساء.

ميديا هي الأقوى والأغنى والأكثر تراجيدية في العالم القديم، مما جعل شخصيتها ذات دلالات وحياتها الأكثر اجتذاباً للفنانين. وظّفت سياسياً ونفسياً واجتماعياً ونقدياً واثنوغرافياً، ومن أكثر الشخصيات التي قدمت في مهرجانات المسرح التجريبية، واعتبرت في ذات الوقت ارهاباً عابراً للأزمنة، وقانونياً (جرمياً) بوصفها نموذجاً للمسرح الكلاسيكي واختراقاً له من حيث أداء الممثلين المتنوع من الغناء الأوبرالي والبوب والرقص وفنون الأداء ومن حيث القيمة المعاصرة التي تحمل ملامح الحاضر. قد تكون ميديا رجع صدى للشخصيات الأسطورية لما كان مطروحاً في تلك الأزمنة المغرقة في القدم، لتؤكد على مقولة لا جديد تحت الشمس.

ميديا تحمل تناقضاً غريباً في شخصيتها (قاتلة، مظلومة) ما جعل لها مكانة تاريخية في الدراما والكثير من المعاني الإنسانية المفتوحة على تأويلات مختلفة، ومع ظهور الدراسات الثقافية والتيارات الفكرية كالنسوية، والصراع/ الحوار بين الثقافات وغيرهما من التيارات، بدت (ميديا) أكثر حضوراً في المشهد الثقافي العالمي. في جميع صياغاتها، تقتل ميديا طفليها، بمعنى تقتل الامومة في سياق الانتقام من ياسون/ الذكورة.

أثبتت ميديا أنها تستطيع العيش في حضارة اليونان، لكنها ترفض هذا النوع من الحضارة المبنية على الكذب والخداع، صورها يوربيدس بأنها شخصية بربرية كي يُنطِقّها بكلمات هي في غاية الحكمة، لم تنجز انتقامها بوسائل السحر أكثر مما أنجز عن طريق استعمال الدهاء، لذلك يُظهرها يوربيدس بأنها قادرة على أن تسلك مثلما يسلك ياسون، بل وأن تفوقه في مجال تخصصه بأن تلعب اللعبة المفضلة لديه وتنتصر عليه. عندما قدمت الهدايا إلى العروس، أنجزت أفعالها بالحكمة والذكاء وليس بأدوات السحر.

تحوّلت ميديا إلى ظاهرة ثقافية فكرية في الربع الأخير من القرن العشرين مع ظهور مفاهيم جديدة، واتخذ الصراع على إثرها أشكالاً عديدة في ظل التحولات السياسية والاجتماعية والثقافية كالصراع/ الحوار بين الشرق والغرب، ثم الشعور بالقهر والتهميش، ما يولد في نفسها حالة الاغتراب ذو الطابع الإثنولوجي أو اللغوي، والصراع بين الذكورة والانوثة كجنس بشري في محاولة الاهتمام بالحركة المسرحية النسوية العالمية، لا تُظهر ميديا نفسها على أنها ضحية فحسب، إنما تُظهر النساء جميعهن ضحايا الرجال وخاصة نساء كورنثة، وأن ياسون لن يكون بطلاً من دونها، وهذه فكرة نسوية بامتياز.

لقد اعتبر نقاد الدراما أن ميديا واحدة من أكثر الشخصيات إثارة للجدل المأساوي السيكولوجي في كل العصور في الدراما الاغريقية، كما صُنفت ضمن أفضل مئة عمل أدبي على مدار التاريخ من مكتبة بوكلوين العالمية. وقدمت ادارة جائزة توني للمسرح الامريكي جائزتها ثلاث مرات لمن أدى دور ميديا وهنّ على التوالي: جوديت اندرسون ١٩٤٨. زوي كالدويل ١٩٨٢. ديانا ريج ١٩٩٤.

هل نبحث هنا عن حقيقة شخصية ميديا أم عن الفعل الذي جعلها مستمرة في (قتل طفليها) في كل مرة، انتقاماً من ياسون أم خوفاً عليهما أم..؟ هل طرح أحد ما أسئلة جديدة مغايرة خارج السياق تطور التراجيديا؟، هل كان يوربيدس يؤيد سلوك ميديا لدرجة تركها دون عقوبة، بينما خضع ياسون لقانون زيوس حيث يُعاقب ناقض العهد؟. هل تصرفات ميديا في الوقت الحاضر مقبولة؟ وإلا فلماذا يفضل الناس مشاهدة حكايتها في المسرح والسينما؟

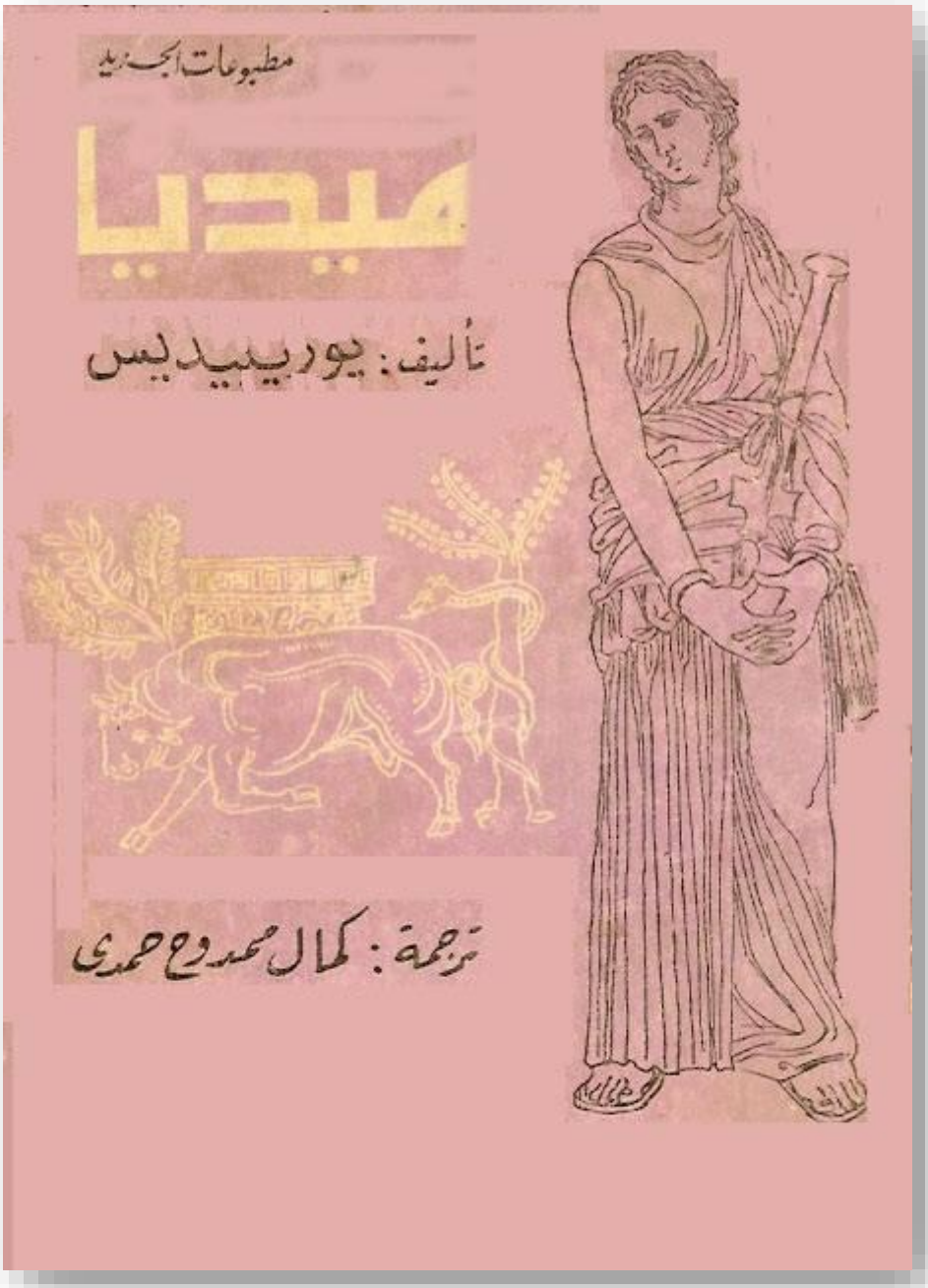

محمد منصور

كاتب وناقد وسيناريست سوري

الفن البديل في حركة الغناء العربي:
هل هو أضغاث أوهام أم شعارات انقلابية؟

الموسيقا البديلة... المسرح البديل... الأدب البديل... الفن البديل.

مصطلحات تطلق ويتم تداولها، فتتوهج ثم تخبو في الحياة العربية الثقافية بين الحين والآخر، وخصوصاً في فترات الثورات، أو الانقلابات العسكرية التي كانت تسمى زوراً وبهتاناً "ثورة" في غير بلد عربي.. والتي كان يسعى حكامها القادمون إلى سدة الرئاسة على ظهور الدبابات، لخلق ما يشبه الثقافة الجديدة، التي تعادي الحقبة الماضية، وتصور كل ما فيها على أنها "قيم بائدة" ينبغي الثورة عليها، واستبدالها كما تستبدل صور الحكام في أفرع الأمن.

الشمس في العهد البائد!

أبرز مثال على ذلك كان بعد "ثورة" الضباط الأحرار في مصر (١٩٥٢)، التي كرست جمال عبد الناصر رئيسا بعد عزله للواء محمد نجيب أول رئيس جمهورية بعد إنهاء الملكية في مصر، فقد أمر أحد مسؤولي الإذاعة المصرية بعدم بث أغنيات السيدة (أم كلثوم)، وعندما سأل الزعيم جمال عبد الناصر عن السبب قيل له: "لأنها كانت تغني أيام العهد البائد".. لكن عبد الناصر الذي كان يدرك أن أم كلثوم قيمة وقمة لا يمكن استبدالها أو تجاوزها، رد بغضب: "طب ما الشمس كانت بتطلع أيام العهد البائد.. نلغيها؟!" وبالمقابل أدركت أم كلثوم أن عليها التصالح سريعاً مع هذا التغيير، وسرعان ما غنت أغانيها الشهيرة للعهد الجديد ومعاركه المقبلة: "صوت الوطن".. ثم "والله زمان يا سلاحي".. و"راجعين بقوة السلاح" و"حبيب الشعب" و"جمال يا مثال الوطنية"، بعدما كانت قد غنت للملك فاروق في عيد ميلاده قصيدة للشاعر مصطفى عبد الرحمن تقول كلماتها:

أشرقت آمال مصر في سناه ومشت للمجد في نور اليقين

حقق الفاروق للنيل مناه في ظلال اليُمن والعز المكين

وبني للشعب أسباب الحياة ورعي الآمال فيّاض اليمين

لم تكن أم كلثوم استثناء، لا في غنائها لـ"العهد البائد" أو ما تلاه من عهود، فقد اعتاد الفنانون عموماً مجاراة العهود الجديدة باستمرار، إما تحت شعار "الغناء للثورة" وفي أعياد الثورة، أو تحت الإحساس بالحاجة لأن يظلوا في صدارة المشهد كما **فعل عبد والوهاب وعبد الحليم وفريد الأطرش وليلى مراد وشادية وفايزة أحمد ونجاة الصغيرة** وسائر مطربي العصر الذهبي للأغنية العربية الذي أفلَ في سبعينيات القرن العشرين.. كما غنت **وردة الجزائرية** أغنيتها الشهيرة (إن كان الغلا ينزاد) تمجيدا لانقلاب معمر القذافي في ليبيا الذي سمى "ثورة الفاتح"، كما غنت المطربة **دلال الشمالي** لانقلاب حزب البعث في سورية عام ١٩٦٣، المسمى: "ثورة الثامن من آذار المجيدة" أغنيتها التي لحنها الملحن السوري الراحل سهيل عرفة والتي تقول:

من قاسيون أطلُّ يا وطني فأرى دمشقَ تُعانق الشهبا

آذاريَدْرج في مرابعها.. والبعثُ ينشر حولها الشهبا.

وقد عاش السوريون نصف قرن في ظل حكم البعث بعد ولادة هذه الأغنية، ليروا البعث ينشر فوق دمشق الشهبا حقيقة لا مجازاً. حين نصب نظام الأسد مدفعيته وراجماته صواريخه على قاسيون، ليقصف ابتداء من الثالث من أيلول/ سبتمبر ٢٠١٢ أحياء دمشق الجنوبية الثائرة ضد نظام حكمه، وليحرق بصواريخه مدن وقرى غوطة دمشق الأثيرة، على مدى شهور طوال.

والغريب أن دلال الشمالي قدمت الأغنية ذاتها بكلمات محرّفة لانقلاب الرابع عشر من تموز الذي أنهى الحكم الملكي في العراق، فأصبحت على النحو التالي:

من قاسيون أطلُّ يا وطني فأرى بغدادَ تعانق السحبا

تموزيدْرجُ في مرابعها والبعثُ ينشرُفوقها الشهبا

وقد غنى العديد من الفنانين العرب والسوريين لحافظ الأسد وانقلابه في سورية الذي زج فيه رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء وأعضاء القيادة القطرية لحزبه في السجون نحوا من ربع قرن ولم يخرجهم إلا للقبور، حتى أن أحد الفنانين بدل كلمات شارة أغنية جميلة لمسلسل إذاعي كانت قد أنتجته إذاعة دمشق عن (خالد بن الوليد) تقول:

خالدٌ إنْ هبَّ لنجدة الأحرار إعصار

خالدٌ أحب اللهَ والإنسانَ والحريةَ والأحرار

وقال إني خالدٌ أحمي فجراً عربيا وأصنع نهار

لتصبح في الأغنية التمّلقية التمجيدية البديلة: (حافظٌ...)!!!

الأغنية السياسية وشعارات اليسار!

كل هذا الفن التمجيدي للطغاة قدم باسم "الفن البديل"، والثورات المزعومة، ولو كان على ألسنة وبألحان وكلمات مطربين كانوا مكرسين ولهم انتاجهم السابق على تلك العهود التي غنوا وتغنوا بثوريتها.. وهو لم ينتج أي قيم بديلة في الحياة العربية، من تلك التي يفترض أن تشيعها الثقافة، وأن تسهم الموسيقا والغناء بانتشارها باعتبار فن الغناء الأسرع انتشارا ووصولا إلى أسماع وأفئدة مستمعيه من كل الأعمار.

الأمر كان مختلفاً قليلا مع تجربة الأغنية السياسية التي كان رائدها في ستينيات القرن العشرين الشيخ إمام في مصر، من خلال شراكته الشهيرة والطويلة مع الشاعر أحمد فؤاد نجم... فقد فجرت هزيمة حزيران عام ١٩٦٧ الموجعة، التي سوّق محمد حسنين هيكل تسمية مخادعة لها هي "النكسة"، فجرت سخريته في أغنيات من قبيل: (يا محلى رجعة ضباطنا من خط النار) و(الحمد لله خَبَطنا تحتِ بَطاطنا) وقادته مرارا إلى سجون ومعتقلات عبد الناصر... فكانت هذه الأغنيات بديلا عن تلك التي تتغنى ببطولات زائفة، لم تكن مؤسسة على شراكة وطنية حقيقية ومناخ حر في الداخل... وقد تابعت الأغنية السياسية مسارها في سورية ولبنان في سبعينيات وثمانينات القرن العشرين، من خلال تجارب (أحمد قعبور) و(مارسيل خليفة) و(خالد الهبر) في لبنان، و(فهد يكن) و(سميح شقير) في سورية، و(فرقة الطريق) العراقية وسواهم.. لكنها بخلاف أغنية الشيخ إمام ذات المناخ الشعبي، نشأت وترعرعت في الأوساط اليسارية، وكان لها جمهورها في زمن المد الشيوعي في الثقافة العربية، وتحت رعاية "الاتحاد السوفيتي الصديق" وباستثناء بعض أغنيات **مارسيل خليفة** التي غناها من أشعار محمود درويش ك (ريتا) و(أحمد العربي) وبعض أغنيات طلال حيدر ذات الشعرية العالية، لم يتبق من رصيد تلك الأغنية التي كنت ترفع شعار الموسيقا البديلة بقوة، وكانت تقام عنها الندوات، وتفتح لها المنتديات والمراكز الثقافية... لم يتبق من هذه التجربة في الذاكرة، سوى بقايا ألحان باهتة في ذاكرة فلول جمهور اليسار، والمتهمين بتأريخ حركة الفن.. فقد غنى ولحن سميح شقير قصيدة محمود درويش الشهيرة (عابرون في

كلام عابر) لكنها لم تنتشر وترددها الألسن مثلما حين غنتها **أصالة نصري** كشارة لمسلسل (صلاح الدين الأيوبي) عام ٢٠٠١، وقبله غنى فهد يكن قصيدة نزار قباني (مدرسة الحب) لكنها لم تنتشر ولم تشتهر كما حين غناها ولحنها الفنان **كاظم الساهر** في تسعينيات القرن العشرين.. ولا أخجل من القول أن ما انتشر من هذه النماذج المذكورة كان أقوى وأجمل، مما أنتجه من كانوا يمثلون الموسيقا البديلة... لكن لابد من الاعتراف أن الأمر كان مختلفاً حين قدم **سميح شقير** أول أغنية عن (الثورة السورية) عام ٢٠١١ بعنوان (يا حيف) فانتشرت انتشار النار في الهشيم، وتميزت بحسها الشعبي الحقيقي، المختلف عن تجاربه السابقة في أحضان اليسار الثقافي في الثمانينات والتسعينيات، ذلك أنها لم تصدر عن ادعاءات فنية كبرى أو صغرى، أو عن رغبة في تقديم فن بديل، بل صدرت عن حالة صدق شعوري عال في ملامسة اللحظة، وتصوير مشهد القمع الذي تورط فيه جيش البلاد.

زمن الربيع العربي!

مع انطلاقة ثورات الربيع العربي، مطلع العقد الثاني من القرن الحالي، كن ثمة رغبة حقيقية لدى الشباب العربي، لإنتاج موسيقي وغنائي، يعبر لأول مرة عن قيم ثورات شعبية حقيقية، لم تقدها دبابات العسكر، ولا طموحاتهم الانقلابية. وأذكر أنني عملت طيلة النصف الثاني من عام ٢٠١١ على تمحيص الإنتاج الغنائي الذي أفرزته الثورة السورية، وقدمتُ عنه مئة حلقة تلفزيونية تحت عنوان **(فنون الثورة)** على شاشة تلفزيون (أورينت) كنت أقوم فيها بالتحليل النقدي للنماذج المختارة. وقد لاحظت أن القيمة الأساسية البديلة والتي كانت تشكل سمة عامة مشتركة في ذلك الانتاج، هي غياب التغني بالحاكم وبشخصه، التي كانت آفة الأغنية الوطنية السورية خلال حكم الأسد الأب والابن "إن كان يصح تسميتها وطنية أصلا"، وبرزت قيمة الوطن بأناسه وشخوصه وأمكنته الحميمة وصراعه المرير والدامي من أجل الحرية.. فانطلقت صرخة الفنان خاطر ضوا، أحد أكثر الفنانين الشباب موهبة وحضورا: "يا سورية لا تسجيلنا غياب" لتقدم تعبيرا وجدانيا حياً في بداية مشوار اللجوء السوري.

وقد لاحظت كماً كبيراً من الأغنيات الساخرة، لدرجة أنه كان علينا تخصيص قسما كبيراً لها، وقد اشتهر من تلك الأعمال أغنية نالت أعلى نسبة تصويت ومشاهدة على اليوتيوب، وهي تنطق باسم الشبيحة وقوى القمع، والغريب أن صناعها أطلقوا على أنفسهم اسم (فرقة ابطال موسكو الأقوياء) أما كلماتها فتقول:

بدنا نعبي الزنز انات وبدنا نمّلي المعتقلات
وبدنا نفضي الروسيات كرمال الأمة الأسدية
بلا حرية بلا بطيخ مؤامرة جاية من المريخ
ما عنا هندوس وسيخ ولا عنا زرادشتية

وقد تحولت أغنيات شهيرة في الذاكرة العربية على يد شباب الثورة السورية إلى أغنيات ساخرة فأغنية السيدة فيروز (آخر أيام الصيفية) أصبحت: (آخر أيام البعثية) وأغنية فريد الأطرش (لاكتب

على ابواب الشجر) غدت (لاكتب ع ابواب الفرع) في إشارة لأفرع أمن الأسد الرهيبة... لكن الحق أن هذه التجارب على أهميتها كونها تأتي تعبيراً فنياً حقيقياً على حراك ثوري غير مدعوم مؤسساتياً، كانت تنوس بين حدين:

الأول تغريبي: يتجه إلى أشكال الموسيقا الغربية كالبوب وموسيقا الراب، التي بدت أعمالها أشبه ببيان شارع حماسي.

الثاني ديني: إذ ارتمت الكثير من الأعمال في أحضان الإنشاد الديني، نظرا للقمع الشديد الذي كان يمارسه الأسد على مظاهر التدين الشعبي، حيث انخرط الكثير من المنشدين الدينيين في تقديم أغنيات عن الثورة، كالفنان **يحيى حوى** ابن مدينة (حماة) السورية، الذي بدأ منشداً دينيا وحافظاً للقرآن الكريم.. ثم اكتسب جمهورا عريضا من خلال الثورة السورية.

وبين هذين الحدين، حاولت بعض التجارب التقاط التراث الشعبي وتطويعه في توزيعات موسيقية جديدة، تستفيد من قوة انتشار الجملة الموسيقية الفلوكلورية كما فعل الفنان **وصفي المعصراني** ابن مدينة حمص السورية، وكما فعل الفنان **خاطر ضوا**، الذي بقيّ الأكثر استمرارا وتألقاً، في مشروعه الموسيقي بمساعدة أستاذه عازف العود العراقي الشهير نصير شمة.

سيمفونية الشارع!

ومن قلب نبض الشارع.. التقط الموسيقي السوري الأكاديمي **مالك جندلي** المقيم في الولايات المتحدة الأمريكية، جملة موسيقية لأحد منشدي المظاهرات الشعبية في مدينة (حماه) يدعى **إبراهيم القاشوش** الذي كانت هتافاته الموزونة وذات الإيقاع الموسيقي السلس والبسيط والقوي الانتشار، والذي زاد من انتشارها الروايات التي تحدثت عن مقتله على يد نظام الأسد بعد اقتلاع حنجرته، ورميه في نهر (العاصي).. التقط مالك الجندلي جملة القاشوش الهاتفة في السحَر: (يلا ارحل يا بشار) لينبى منها عملا سيمفونياً بدا في رؤيته وبنيته، في أول التقاطة خلاقة لنبض موسيقا الحناجر التي انطلقت تتغنى للحرية.

وقد استهجن الكثير من المتابعين والمهتمين، قيام **بشار خليفة** ابن الفنان اللبناني **مارسيل خليفة**، بسرقة لوازم **ابراهيم القاشوش** الموسيقية تلك في الحلفة التي أقامها أواخر العام ٢٠١٤ على أحد مسارح باريس، والتي انتحل فيها هتافات الثورة السورية التي يعاديها هو ووالده، فقد كان القاشوش يقول رداً على خطابات بشار الأسد:

"ويا رئيس ويا كذاب تضطرب انت وهالخطاب

الحرية صارت على الباب يلا ارحل يا بشار"

وقد صارت لدى بشار مارسيل خليفة في الحفل المشار إليه:

"ويا عماد حاج تدور ودمك بالوطن مهدور،

تضرب انت وحزب الفول، يلا ارحل يا غدار"

عودة إلى المصطلح!

يعطي مثال **القاشوش** في حالتيه المشار إليهما: تطويراً أو سرقة، تعبيراً عن حقيقة أن ما تنتجه الثورات الشعبية الحقيقية، يحمل بذور أصالته النابعة من عفوية الحالة وحرارة الموهبة التي تتفتح في لحظة انعتاق فني وسياسي مأمول... لكنني أعود من حيث بدأت لأقول: إنني لا أؤمن بمصطلح "البديل" في الموسيقا والفن والثقافة عموماً، فهو مصطلح انقلابي لا ينسجم مع روح التجارب الفنية والثقافية الحية.

عندما نقل **سيد درويش** في مطلع القرن العشرين الحالة الموسيقية السائدة في مصر، من الموسيقا التطريبية التي تقوم على إحداث أثر تطريبي في أذن المستمع بعيدا عن الوحدة العضوية مع روح الكلمة المغناة، إلى الموسيقا التعبيرية التي يغدو فيها اللحن مفصلا على روح المعنى والحالة، لم يقل أنه يقدم أغنية بديلة... لكنه بدا في تلك الفترة أن إيقاع الحياة الجديد كان متلهفاً لمثل هذا التجديد الموسيقي، وهكذا مات عصر سلامة حجازي وعبده الحامولي ومنيرة المهدية رويداً رويداً ليخلق عصر جديد انتهى إلى تجديد **محمد عبد الوهاب** المولع بالتحديث مع سمات شرقية، ثم استمر مع **محمد الموجي** في تجاربه الأولى مع عبد الحليم حافظ ثم في درامية موسيقية رائعة عبر قصائد نزار قباني (رسالة من تحت الماء) و(قارئة الفنجان) ومع **بليغ حمدي** وسواهم.. وعندما أبدع **الأخوين رحباني** موسيقاهم الجديدة في لبنان في خمسينيات القرن العشرين، لم يقولوا إنهم يقدمون موسيقا بديلة أو فناً بديلاً، بل توازى التجديد الموسيقي لديهم، مع البراعة في التوزيع الموسيقي، والتجديد في الكلمة المغناة وإعطائها طابعاً شعرياً حقيقياً، يخاطب كل مدارس الشعر العربي... ومع الدأب والموهبة والعطاء فغيروا وتركوا أثرا من حيث لم يكن يدورنه في بداية مشوارهم.

في الفن ما يملك قوة الإبداع والموهبة يبقى لا يموت وتتوارثه الأجيال.. أما ما يبدو نتاج فورة طارئة، أو حراكاً سياسياً (أو حتى مجتمعياً) يبحث عن صوت فني يعبر عنه آنياً، فيموت بتغيير أسباب ولادته حتى لو ظن نفسه أنه "البديل" فالتغير في الفن تخلقه ظروف الحياة، وقناعات أصحاب المواهب الحقيقية وثقافتهم الجديدة، وتغير الذائقة العامة في المجتمعات الحية نتيجة ظروف وتحولات، وليس الشعارات الانقلابية.

أوراق النقد
Vivian Alsaegh
2020

حسان العوض
طبيب وكاتب سوري مقيم في السعودية
صدرت له مجموعتان قصصيتان

"رقصة الشامان الأخيرة" لعبد الرحمن حلاق
الثورة شجرة مضيئة

صدرت هذه الرواية عن دار الفراشة

بالكويت في العام ٢٠٢١، وهي تعرض سردية الثورة السورية التي انطلقت في آذار العام ٢٠١١ على نظام الأسد، من خلال مجموعة من الشباب من مختلف الطوائف فغيث وصفاء وأكرم دروز، وباسل علوي، ونهلة مسيحية، وبقية الشخصيات من الأكثرية السنية (النظام يعتبرنا خونة للوطن والإسلاميون ينظرون إلينا بريبة وربما يتهموننا بالكفر واليساريون يتهموننا بأننا إسلاميون، ونحن نريد وطنا حرا للجميع فقط) ص٧٥.

نواة المجموعة كانت تقيم حفلات في دور الأيتام ورياض الأطفال قبل الثورة، وبعدها تخصصت بالمظاهرات الطيارة في دمشق، ومع تضييق الخناق على العاصمة، عاد عناصرها، كل إلى محافظته، للمشاركة مع مجموعات جديدة في المظاهرات طالما كانت ممكنة، بالإضافة إلى نشاطات الإغاثة والإعلام.

وتجري الأحداث مكانيا في محافظة حلب بشكل أساسي، وفي محافظتي إدلب والسويداء بشكل ثانوي. وزمنيا في العام الثاني من الثورة، وتنتهي يوم الثلاثاء الأسود عندما قصف الطيران الحربي لنظام الأسد جامعة حلب ٢٠١٣/١/١٥ وذلك بعدما أوغل بالتشبيح والاعتقال واستخدام البراميل المتفجرة.

تبدأ الرواية بتفرق إحدى مظاهرات جامعة حلب على إثر إطلاق الشبيحة النار عليها مما تسبب بمقتل مصطفى، وسيتبين أن من أصابه هو أخوه عدنان. يوصل حمزة خالدا، وكلاهما ناشط إعلامي، على دراجة نارية إلى مدرسة مهجورة للاختباء فيها. نهلة سيدة مسيحية كانت ترى من بيتها ما يحدث فتخبئ صباحا، حبيبة خالد، وتخبرها أنّ النظام قتل أباها في أحداث الثمانينيات على يد ضابط وقف الأب بوجهه لمنعه من سرقة بيته، وأن ولديها هاجرا إلى فرنسا.

لاحقا تلتقي صباح بريم وتطمئنها على سلامة أبيها خالد. ريم تدرس هندسة العمارة، وتخرج في المظاهرات، وترفع اللافتات، ووقفت وقفة شجاعة أمام المراقبين الدوليين في جامعة حلب، ومع ذلك قرر الكاتب ألا تعتقل رغم قولها (رجال المخابرات باتوا يعتقلون الطلبة من داخل قاعات المحاضرات) ص٦٨. وحبيبها الكردي آزاد الذي تعود أصوله إلى عفرين ويدرس الآداب (فقد أخته وأخاه تحت القصف في الشيخ مقصود) ص٧٠. سينضم آزاد إلى الجيش الحر بسبب كثرة المجازر التي يرتكبها النظام، بعد أن وصل إلى نفس القناعة التي سبقه إليها صديقه زكريا (هذا النظام لا ينفع معه غير السلاح) ص٦٨. وسيشارك في حصار مدرسة المشاة التي كانت تنطلق منها القذائف على بلدات ريف حلب الشمالي.

يوم الثلاثاء الأسود تستشهد ريم في الجامعة، ويستشهد آزاد أيضا في مدرسة المشاة.

يقرر غيث أن يترك محافظته السويداء ويأتي إلى حلب، ولم يكن هناك ضغط اجتماعي عليه إلا من جدته التي وافقت أخيرا على قلق، علما أن أخاه الوحيد في المعتقل بسبب علبة دواء. وكذلك تقرر صفاء مرافقة غيث لتكون رحلة حب أيضا علما أن الكاتب لم يورد أية ضغوطات اجتماعية عليها من قبل أهلها على الأقل بخصوص هذا القرار. يصلان إلى حلب ويعبران إلى القسم الشرقي عبر بستان القصر، حيث تستقبلهما صباح في المقر الجديد (في حي هنانو الذي بدأ أهله مرحلة تهجير قسري مثله مثل بقية المناطق المحررة، فقد بدأت البراميل والمدفعية والصواريخ بهدم البيوت على سكانها بشكل منظم) ص١١١.

في نفس الوقت يدخل سهيل المقر وقد غطى الدم ثيابه بينما كان يسعف رجالا انهالت عليهم قذائف صاروخية.

يلتقي غيث بمجموعة من الأطفال، يدعهم يرسمون كما يشاؤون، ويحلل رسوماتهم.

المجموعة تتعرض لانفجار قتل من قتل، وأصاب الآخرين إصابات بعضها خطير؛ مما توجب نقلهم إلى تركيا؛ لعدم قدرة المشفى الميداني على التعامل مع إصاباتهم. يموت غيث، وجدته توصي أصدقاءه بدفنه في (أرض درزية) ص٢٠٥. وفي محاولة لتنفيذ وصيتها، يصلون إلى إحدى القرى الدرزية في ريف إدلب حيث يرفض شيخ العقل فيها طلبهم إلا بشرط أن يزيلوا علم الثورة الذي كفنوا به جثة غيث حسب وصيته. وكذلك يفشلون بدفنه في مقبرة مخيم أطمة فالدروز في خانة الكفار حسب من يمثل جبهة النصرة مما يضطرهم إلى دفن الجثة في قبر روماني قديم مجهول.

تقرر صفاء بعد وصولها إلى تركيا وموت غيث ألا ترجع إلى سوريا مطلقا. كما يختطف ملثمون حمزة. ويقرر خالد وصباح الاستمرار (بما تبقى من المجموعة) ص٢١٢. هذه المجموعة حملت أهداف الثورة بالحرية والمدنية والديمقراطية، وعملت لتحقيقها على إسقاط النظام بالتظاهر السلمي، قبل أن يشتتها نظام الأسد قتلا واعتقالا وتهجيرا، ويدفع ببعض عناصرها إلى التسلح، مما فتح الباب للعسكرة والأسلمة، وأدى إلى فرض أهداف أخرى شوشت على الأهداف النبيلة الأولى ثم شوهتها.

ديمقراطية الشكل الفني

القالب الفني الذي اختاره الكاتب لروايته قائم على تعدد الأصوات فقد جعل روايته تتألف من ٣٤ فصلا، معظمها مسرود بضمير المتكلم على لسان إحدى الشخصيات التي تقدم الأحداث من وجهة نظرها وتدفع بها قدما، وقد أعطى اسم هذه الشخصية عنوانا للفصل، فالفصل الأول بعنوان خالد، والثاني بعنوان صباح، والثالث بعنوان حمزة، والرابع بعنوان غيث، وهكذا... يوحي هذا الخيار بالديمقراطية، وهي إحدى المطالب الأساسية للثورة السورية التي هي موضوع الرواية؛ ولكن هذه الديمقراطية الروائية تبدو شكلية أكثر منها حقيقية، فمعظم الشخصيات تبدو متشابهة فكرا وقولا أيضا، وكأنها شخصية واحدة وليست عدة شخصيات، ولعل أكثر شخصيتين متمايزتين هما ريم وسهيل، وقد بدا تمايزهما خاصة في الحوارات التي وردت في فصول لا تحمل اسميهما.

يوجد أربعة فصول غير معنونة، ومسرودة بضمير الغائب العليم (١٣-١٥-٢٧-٢٩) لا تختلف عن بقية الفصول فكريا وفنيا، بمعنى أن الكاتب لم يستفد من كل إمكانيات الشكل الفني الذي اتخذه لروايته.

الفصل الثالث عشر يتألف من مقطعين: الأول يتحدث عن هاشم العلوي الذي يبدو أنه في طريقه إلى التشيع، وهو صياد بارع، ورام محترف، وقد استدعاه النقيب الذي خدم العسكرية تحت إمرته للاستفادة من براعته، (لم تمض بضعة شهور حتى وجد نفسه على سطح مبنى الإذاعة والتلفزيون في أعلى نقطة تطل على حلب) ص٩٦.

المقطع الثاني مسرود بضمير المتكلم على لسان هاشم، وهو يتحدث عن استمتاعه بقنص البشر الذين يجتازون معبر بستان القصر مقنعا نفسه بأنهم (يريدون إسقاط النظام ليحكمونا من جديد ويتحكموا بنا من جديد... سنقتلكم فرادى وجماعات وسنجعل من مدنكم سهولا نزرع فيها البطاطا وننشئ الملاعب والحدائق، سنخرجكم منها كما أخرجتمونا أيام الاحتلال العثماني ولن نسمح للتاريخ أن يكرر نفسه بل سيسجل التاريخ أننا انتقمنا لدمنا بعد خمسمئة سنة) ص٩٩.

هذا الفصل مخصص لسردية الإنسان العلوي البسيط فكريا والطائفي قولا وسلوكا. لم تظهر شخصية هاشم إلا في هذا الفصل الذي لم يرض الكاتب أن يعنونه باسمه، ربما خطأ تحريري. بمقابل هاشم هناك باسل العلوي الذي لم ينل فصلا خاصا به وقد قال عن الأسد الأب (أفقر قرانا العلوية كلها ليجبرنا على دخول الجيش أو الالتحاق بفروعه الأمنية، وكذلك فعل بمناطق الشوايا) ص٩٠.

الفصل الخامس عشر يتحدث عن إحدى أكثر الشخصيات الدرامية في الرواية: عدنان الذي تحول من التشبيح بعد قتله لأخيه الثائر إلى الحرب ضد النظام، أو هذا ما يبدو، إذ راح يعمل مع الشيخ رضوان الذي أسس كتيبة استجابة لطلب ودعم أخيه الشيخ يوسف المقيم في الكويت، والذي يرى أن هذه الثورة للتخلص من ظلم النصيرية ومن والاهم، وأنه يجب تعطيل القضاء المدني ليحل محله المحاكم الشرعية. بعد انضمام عدنان إلى الكتيبة، ستصبح أكثر قوة، وتفتح جبهة جانبية مع الأكراد الملاحدة، وتغنم الكثير من الأسلحة، وتفرض وجودها وسطوتها كما تساهم بإخفاء قادة وناشطين.

لقد كان رضوان صديقا لحمزة الذي يرى أن رضوان اختار أن يكون منتفعا كما أن تشبيح عدنان أخذ مسارا مختلفا، وقد أعطى الكاتب لرضوان صوتا في الفصل السابع عشر، في حين حرم عدنان من صوته في الفصل الخامس عشر فتحدث عنه بضمير الغائب، ثم قرر أن يحرمهما كليهما من صوتيهما عقوبة على ما اقترفاه بحق الثورة، في الفصل السابع والعشرين، والذي يظهر اختراق رضوان من قبل الأمن السوري ممثلا بحارسيه الشخصيين، وعدنان قائده العسكري الذي تحول إلى تاجر أسلحة.

ولا بد من الإشارة إلى أن هذا القالب الفني الذي اختاره الكاتب لروايته يكاد يكون هو نفسه الذي استخدمه الكاتب المصري بهاء طاهر في روايته "واحة الغروب" التي صدرت في العام ٢٠٠٨.

النص الموازي

يتخلل فصول الرواية سبعة مقاطع مسرودة بضمير المتكلم، غير مرقّمة ولا معنّونة، كل مقطع مسرود على لسان شخصية مختلفة، وكأنها فنيا مشغولة بنفس أسلوب الرواية، أما فكريا فيبدو أنها نص رمزي مواز للرواية. فالمقطع الأول عن شخص يخرج من كهف أشبه بالسجن عبر نفق لمح في نهايته ضوءا، مشى فيه حتى أطل على سهل رحب أخضر، سار فيه حتى وصل إلى شلال عظيم غرس قربه شجرته. يبدأ المقطع بالقول (اسمي خالد، وربما يكون اسمي غيث أو ريم أو آزاد أو صباح) ص١١. وهذه أسماء الشخصيات الرئيسة في الرواية.

والمقطع الثاني عن فتاة أدركت أن لهذا الرجل شأنا خاصا، ووجدت نفسها مدفوعة إليه، وقد رأت فيه (الشامان الأخير في هذه الأرض الموات وهذا اليباس، في توقيت ظهوره الآذاري) ص٢٣. وآذار أول الربيع وشهر انطلاق الثورة السورية على نظام الأسد الذي كان قد جثم على صدر البلاد أربعين خريفا.

والمقطع الثالث عن أحد المبهورين بنور الشجرة، إذ ثمة من لم يكن يراها إلا شجرة يابسة، من أبناء قبيلته. بالمقابل كان هناك الكثير من السوريين يرون في الثورة الوجه الآخر للنظام.

والرابع عن امرأة معجبة بالشجرة المضيئة كغيرها ممن كانوا يرقصون حول نار قريبة من الشجرة (سأرقص على طريقتي، يعجبني هذا التنوع بالرقص فلكل إنسان رقصته الخاصة) ص٦٦. هؤلاء الراقصون هم أول من آمن بثورة الحرية.

والخامس عن شخصية تتحدث عن الآخرين الذين استولوا على النبع، واعتادوا أن يسرقوا الغلال، ويدافعوا عن شجرتهم المتيبسة. هؤلاء أبواق النظام الذين يدافعون عنه لأنه حامي امتيازاتهم غير المشروعة.

والسادس عن كاهن يرى أن الراقصين مجرد قطعان تسير خلف الأقوى، وأن صاحب الشجرة أخرق وإن تحول لاحقا إلى نبي، وأن الرقص سوف يتحول إلى قتال، وأنه صاحب الخبرة القادر على مناورة العدو، إذن هو يمثل الانتهازيين الذين يريدون أن يقطفوا الثمار من دون أن يزرعوا الأشجار أو يعتنوا بها.

والسابع عن نفس الفتاة وهي ترقص مع فتاها المقدام، تخبرنا أن الشامان صاحب العصا دخل الشجرة مع اقتراب الكاهن برفقة مجموعة كبيرة، راحوا يحتلون دائرة الرقص تدريجيا، وكلما خبت النار قليلا أججها الكاهن بغصن من شجرة الضوء، وليس من شجرتهم السوداء، وكان كل ذكر وأنثى يسبحان إلى الشجرة فتحضنهما بداخلها، ليصبحا غصنا مورقا.

شجرة الضوء هي الثورة، والشجرة المتيبسة هي النظام، والشجرة السوداء تمثل المتطفلين على الثورة، وقد ورد على لسان غيث (الثورة شجرة مضيئة ستتسلق عليها الطفيليات وربما تنبت على جذعها الطحالب، وقد تتيبس أغصان وتتساقط أوراق، ستعشش فيها العصافير وستغزوها الطيور الجارحة، وسترتع في ظلها الحشرات من كل صنف، وسيحاول الحطابون قصها أو اجتثاثها، لكن في نهاية المطاف ستكمل دورة حياتها وسيأكل أحفادنا من ثمرها بكل تأكيد.) ص١١٢.

فراس حج محمد

فلسطين

ظاهرة الكتّاب السفراء في الأدب الفلسطيني
منجد صالح نموذجاً

أعادتني تجربة الكاتب الفلسطيني

والسفير السابق سعادة الدكتور منجد صالح إلى الالتفات لظاهرة الكتّاب السفراء في الأدب الفلسطيني، ومن هؤلاء الكتاب غير منجد، الشاعر هارون هاشم رشيد، والشاعر حيدر محمود (أردني- فلسطيني)، والشاعر عمر صبري كتمتو، والناقد الدكتور عبد الرحمن بسيسو، والشاعر والناقد الدكتور المتوكل طه، وحديثا علمت أن الكاتب الصحفي الراحل يحيى رباح كان سفيرا، كما عرّفني صديقي الدكتور نبهان عثمان على الشاعر عاطف أبو بكر.

ولا شك في أن هناك أسماء أخرى أجهلها، ما جعلني أفكر بعمل كتاب خاص لدراسة أعمال الكتّاب وبيان ملامح أثر العمل الدبلوماسي في تجاربهم الكتابية، على غرار ما فعله باحث سعودي، سأتوقف عند بحثه في هذه الوقفة فيما يأتي.

بعض الأسماء المذكورة آنفاً عملت لفترة طويلة في العمل الدبلوماسي، وفي دول متعددة، ويقف على رأسهم جميعاً سعادة السفير منجد صالح الذي عمل في السلك الدبلوماسي فترة طويلة، وزار دولا متعددة، وخاصة دول أمريكا اللاتينية، فقد زارها جميعا كما قال في ندوة إشهار كتابيه: "سلم لي على السفارة، وسيدة من لاباز"، ويتقن صالح اللغة الإسبانية إتقانا كبيرا، إلى درجة أنه يصحح لأبناء البلد أخطاءهم في اللغة. كما جاء في بعض مقالاته تلك، ويعلّمها في دورات خاصة للشباب والشابات.

لقد انخرط سعادة السفير في صداقات كثيرة مع أهالي تلك البلاد، فامتلك مخزوناً من المعرفة والاندماج بالثقافة الوطنية، الشعبية والرسمية، ما أهله ليكون مستشارا لكل الوفود الفلسطينية الذاهبة إلى إحدى تلك الدول، أو مشاركا في استقبال وفود تلك البلاد القادمة إلى فلسطين، فهو يعرف غير اللغة، ثقافاتهم ولباسهم وأكلاتهم الشعبية، وآدابهم ومؤلفيهم ومبدعيهم، وعكَس بعضا من ذلك في الكتابين المذكورين أعلاه، وكتابه السابق "إيسولينا وعجة بالفلفل الأسود".

ربما تحتاج تلك الكتابات إلى دراسة خاصة ومتخصصة للكشف عن الجوانب التي كانت تثير اهتمام منجد صالح كونه سفيرا أولاً، وثانيا كاتبا فلسطينيا، إذ كان أحيانا يعقد موازنات بين بعض مظاهر ثقافتنا الوطنية وثقافة تلك البلاد، ولعل أجمل ما فعله الكاتب فيما تحدث به عن قصص تلك الشعوب الموضوعية التامة المختلطة بالحب والإعجاب بشخصياته التي يكتب عنها، فكل شخصياته من تلك البلاد إلى الآن كانت إيجابية، وينحاز إليها، ويتعاطف مع من كان مضطهدا منها، وبلغ به حد الإعجاب بشخصياته تلك أن جعل غلاف كتابه "سيدة من لاباز" تتصدره صورة المرأة نفسها صاحبة القصة، إذ أعجبت بالأمر، وفرحت به، واتخذ من اسم إحدى الشخصيات عنواناً لكتاب آخر، وأعني بذلك "إيسولينا وعجة بالفلفل الأسود".

لأجل كل ما تقدم اقترحت على الصديق منجد صالح أن يخصص كتابه القادم؛ ليتحدث فيه عن تلك البلاد بجوانب مختلفة برؤيته هو، فيقدّم للقارئ الفلسطيني ثقافة تلك البلاد وقصص أناسها الطيبين المتعاطفين مع الفلسطينيين وقضيتهم، وبذلك يكون قد فتح باباً واسعا من الدراسات المقارنة بين أدب تلك البلاد وأدبنا الفلسطيني والبحث عن (الثيمات) المشتركة بين هذين الأدبين، عدا أنه يثري تجربة الكتابة في أدب الرحلات، لاسيما أنه كاتب يتقن السرد والوصف والتعمق في تحليل الشخصيات وسلوكها، بحيث يستطيع القارئ أن يكوّن معرفة متصلة عن تلك البلاد وجغرافيتها وعمرانها وحياتها الاجتماعية والثقافية والسياسية وأمزجة الناس البسطاء فيها. وهذه كلها عناصر نجاح لمثل هذا النوع من الأدب، أضف إلى ذلك ما يتمتع به أسلوب منجد صالح

من عناصر روائية، ومراوحته بين الأسلوب الساخر والأسلوب الجديّ، وما يختزنه بلغته من تعابير شعبية وأمثال ومخزون ثقافي أمريكي- لاتيني وعربي- فلسطيني، يجعل من كتاباته ذات أهمية مضاعفة تخدم أدب الرحلات خدمة كبيرة، إذ لا يقتصر أدب الرحلات على التسجيل والتوثيق الجاف، بل لا بد مع هذا التسجيل من أسلوب ممتع يشد القارئ، ويدفعه للقراءة حتى آخر الشوط.

أما كتّابنا الآخرون ممن عملوا سفراء، فأغلب الظن أن تجاربهم لم تكن بهذا العمق الذي تتمتع به تجربة منجد صالح، فتجربة الشاعر الدكتور المتوكل طه- مثلاً- في العمل الدبلوماسي لم تترك فيه أثرا كبيرا، كما تركت تجربة الكاتب منجد صالح، ولعل هذا عائد إلى البلد التي كان فيها سفيراً، وطبيعة الفترة ومدتها التي مكثها المتوكل طه في هذه المهمة، أضف إلى أن طبيعة الشخصية مختلفة والاهتمام الأدبي مختلف، فمنجد صالح سارد مكتنز بكل عناصر السرد اللازم لمثل هذا النوع من الأدب، ويحب عقد الصداقات الاجتماعية، لكن المتوكل شاعر في المقام الأول والشاعر يهتم بلغة مغايرة للغة السردية ومزاجه خاص؛ فرداني جوّاني، يذهب نحو تفريد التجربة وجعلها خاصة دون أن تكون معنية بالكتابة عن الآخرين، بقدر ما تهتم بالكتابة عن الذات بفعل التأثر والتأثير بالآخرين، بمعنى أن الشاعر معنيّ بتذويت تلك التجارب، لا عرضها كما هي بالنقل والتسجيل والتوثيق، وهذا يجعل الكتابة مختلفة، ولا تنتمي إلى أدب الرحلات أو لتكون سردية الطابع.

كما أن تجربة منجد صالح الدبلوماسية تفترض من باحث صبور، عقد مقارنة بين ما كتبه هو وما كتبه الآخرون غير المتوكل طه، كالشعراء السفراء عمر كتمتو، وهارون هاشم رشيد وعاطف أبو بكر، وأعمال الدكتور عبد الرحمن بسيسو النقدية والبحثية، وكتابات يحيى رباح الصحفية، إذ يحتاج إلى قراءة كتبهم ليرى ذلك الأثر المفترض، والخروج بنتائج مبنية على حقائق موثقة من أعمالهم الأدبية.

أشير إلى أنه قد انتبه إلى هذه الظاهرة- من قبل- باحث سعودي يدعى إبراهيم مضواح الألمعي فألف كتابا بعنوان "شعراء سفراء"، وكنت تمثلت فيه عندما تحدث عن الشعراء المدجنين في كتابي "**بلاغة الصنعة الشعرية**" في الفصل الخاص بظواهر سلبية في مسيرة الشعراء.

تحدث الألمعي عن واحد وعشرين سفيرا شاعرا من دول عربية متعددة، لكنه لم يتحدث عن أي شاعر فلسطيني في هذا الكتاب، كما لم يتحدث عن أية سفيرة شاعرة أيضاً، وقد صدر الكتاب عام ٢٠١٦ في طبعة خاصة عن مجلة دبي الثقافية، وحمل الرقم (١٤٢) من سلسلة كتب المجلة.

بنى المؤلف كتابه بأسلوب واضح، حيث يعرف بالشاعر ويضع له صورة، ويقتبس شيئا مما قاله عنه أحد الكتاب أو الدارسين، ثم يختم ذلك بنماذج من شعره، ولم يظهر في هذه الأشعار أثر عمل الشاعر سفيراً في الأعم الأغلب، فهذه المنهجية لا تعطي الكتاب ميزة أن هؤلاء الشعراء كانوا سفراء، فلم يعمد المؤلف لإيراد أثر عملهم سفراء في أشعارهم مبنى وموضوعا. لهذا لا بد من أن يكون هناك آلية ومنهجية مختلفة للعمل عليها لمن يريد أن يتتبع أثر عمل الشاعر أو الكاتب في أدبه، سواء أكان

سفيراً أم غير ذلك من تلك الوظائف التي شغلها، ولعلي أتذكر في هذا المقام قصيدة الشاعر إبراهيم طوقان "الشاعر المعلم" التي بدا فيها أثر التعليم في شعره، وقوله في ذمّ هذه المهنة:

يا من يريد الانتحار وجـــــــدته إن المعلـم لا يعـيـش طـويـلا
لا تعجبوا إن صحت يوماً صيحة ووقعـت مـا بين البـنـوك قـتـيلا

وكنت قد وقفت عند هذه القصيدة محللا في مقالة خاصة بعنوان "إبراهيم طوقان وهموم التعليم"، ونشرت في مجلة عود الند الثقافية، العدد ٧٦، ١٠-٢٠١٢، ويمكن العودة إليها من خلال هذا الرابط:

https://www.oudnad.net/spip.php?article526.

كما يمكن أن أشير إلى قصيدة مصطفى وهبي التل الذي يذم فيها وظيفته التي يقول فيها: "إن الزمان ولا أقول زماني بين الطوابع والرسوم رماني". وغيرهما الكثير ممن انعكست أعمالهم ووظائفهم على كتاباتهم، سواء أكانت شعرية أم سردية وحتى نقدية وبحثية.

وأخيراً أعيد ما اقتبسه الألمعي في بداية كتابه مؤكدا أهمية دور السفير غير السياسية، وإنما الأهمية الثقافية التي هي أبقى، يقول وديع فلسطين: "تمنيت لو أن السلك الدبلوماسي كله أسند إلى رجال فكر وأدب، وشعراء؛ لأنهم أقدر من سواهم على تقديم القيم الروحية الأصيلة التي توثق الصلات بين الشعوب، وتعين على تحقيق التفاهم العميق بين الثقافات والحضارات".

وهذا ما فعله منجد صالح فيما كتبه عن تلك البلاد من قصص أو مقالات قصصية، عدا أن دور السفير منجد الصالح لم يكن باتجاه واحد، أي الأخذ عن الآخرين وتسجيل ثقافاتهم والتفاعل معها وترجمتها وتقديمها للقارئ العربي وحسب، بل كان سفيرا لثقافتنا وقضيتنا عبر ما كان يعقده من محاضرات لطلاب الجامعات هناك، يشرح فيها القضية والثقافة الفلسطينيتين، وكانوا في مرات كثيرة- كما أخبرني- بالمئات، يستمعون وبلهفة من فلسطيني عن فلسطين المحتلة، وفلسطين التاريخ والثقافة، وفلسطين السياسية والاحتلال الهمجي وسياسات العنف التي ينتهجها هذا الاحتلال، وبذلك يكون منجد صالح نموذجاً جيّداً للتمثيل على عمل السفراء، وخاصّة السفراء الفلسطينيين.

Tazunder
I begin understanding
أوراق الترجمة
ربانزل
I finally saw The Line T
And The clear sky
above me.
The heart has been
filled with hapines
هولاكو
العاشق
it was different
when I saw your eyes
ALL my Life, I have seen The world
From The window of my Tower. in
The distance ALL The Time. I have
never know how a
Life
2022
HuL
OUSSAMA ALSAEGH
2022

بيير فرانس
كاتب وإعلامي فرنسي
النقل عن الفرنسية: إبراهيم محمود
كاتب ومترجم كردي سوري، له العديد من الترجمات والكتب المطبوعة.

مادتان عن الحرب:

١- حربان مرهقتان: المجال الضعيف

٢- أشكال السرد ووقت طويل في كتابة الحروب الأهلية

في سوريا ولبنان

في هاتين المادتين التاليتين عن الحرب، ثمة ما هو عام، يخص منطق الحرب وهو القائم على التدمير "الثاناتوس" وما هو خاص، يتمحور حول الحرب في كل من سوريا ولبنان، وربطهما مع بعضهما بعضاً ليس مجانياً، إنما معطوف على ما هو تاريخي، واجتماعي وسياسي، وقراءتهما تضيء الكثير من الأمور المتعلقة بمحتوى الحرب، ومن يشعلها، وبتبعاتها المختلفة، والعنوان في كل منهما يفصح عن الكثير من المؤثرات القاعدية في الحرب، وكيف يمكن تناولهما، وفي المادة الثانية، وتشكل مقالاً طويلاً نسبياً وعميقاً، يتناول الحرب في سياقات اجتماعية، سياسية وقانونية وغيرها، وقراءتهما في تسلسلهما توسّع زاوية الرؤية إليهما، وتزيد في معلوماتنا عنهما بالمقابل، ولأهميتهما معاً، كان هذا الربط بينهما، بمقدار ما يمكننا المضي في تقصّي حقيقة الجاري في سوريا ولبنان تاريخياً، ومع بدء انفجار الوضع في سوريا سنة ٢٠١١، إلى الآن، وما يمكن حدوثه في ضوء ذلك تالياً.

١- حربان مرهقتان: المجال الضعيف

شربل نحاس: اقتصاديات الحروب الأهلية، تحول سوريا ولبنان*

يُدرّس اقتصاد الحرب قليلاً في الأدب. حيث تُروى الحروب ويُنظر إليها على أنها حوادث، أولاً بطولية، ثم مأساوية، ثم مؤسفة أو منسية، إنما بالنهاية ينظر لها كحوادث. وليس الاقتصاديون استثناء من قاعدة الصمت.

ومع ذلك، فقد شكلت الحروب نقاط تحول رئيسة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية للأمم، من حيث السياسات الاجتماعية والضرائب وتوزيع الثروة والدخل والاستثمارات والابتكارات التقنية ... وإذا كان من السهل التعرف على هذه الملاحظة لـ "المهزومين vaincus" فإن الدول التي يُحكم عليها حتماً بأنها مسئولة عن الحروب والتي تخضع لعمليات بتر وتعويضات وحتى يتم تفكيكها، لا تقل صحة هذا عن "المنتصر vainqueurs"، لأن الدول، حتى المنتصرة منها، لا تخرج من الحروب سالمة. وتتغير توازناتها السياسية والاجتماعية الداخلية، بشكل عام، بشكل دائم، وأكثر من نتيجة عملية العنف، فإن كشفها هو الذي يترك أعمق العلامات. إن المنطق الثنائي والشمولي والاختزالي للمواجهة و"التعبئة" في وجه العدو ينقطع، مهما كانت النتيجة أو الانتصار أو الهزيمة أو التسوية، لتنكشف آثاره الداخلية بوحشية في كثير من الأحيان وكأنها غير متوقعة. بقدر ما يرفض المرء أن يرى في الحروب فقط مظاهر الغرائز الأولية أو آثار الشر المتجسد في "شعب" كذا وكذا، وبشكل أكثر ملاءمة في "قائد" كذا وكذا، فمن المعقول أيضاً السعي وراء أن "سبب" الحروب في آثارها الداخلية، خاصة وأن هذه الآثار الداخلية غير مؤكدة أكثر من تلك المتعلقة بالمواجهة العسكرية، وهي مواجهة غالباً ما تكون نتيجتها (ولكن تلك النتيجة ليست دائماً صحيحة) قابلة للتنبؤ في ضوء التقييم الموضوعي لميزان القوى بالنسبة إلى الرهانات، والذي ينبغي "بشكل منطقي" أن يعفي الأقوى والأضعف من تكبد التكلفة. وعدم اليقين بشأن الآثار الداخلية يمكن أن يُبرّر بعقلانية المغامرة.

كان الصمت أشد وطأة على الحروب الأهلية التي لم تفشل خلال القرن العشرين: الحرب الأهلية في روسيا، ثم في إسبانيا وأخيراً في يوغوسلافيا، فيما يتعلق بأوروبا، ولكن كم هو أكثر تكراراً في بقية العالم ولا سيما في المنطقة العربية (حالة خاصة من الجزائر الاستعمارية وحالات أكثر كلاسيكية في لبنان والعراق وليبيا وسوريا واليمن ... والقائمة تتزايد باستمرار).

لقد تغذت عملية بناء الاتحاد الأوربي بالرغبة في وضع حد لثلاثة عقود من الحروب القومية بين الدول وقد جعلها هذا البناء نفسه، الذي يبدو اليوم كحرب أهلية طويلة ومدمرة بشكل رهيب، والتي كان لها تأثير على وضع نهاية للحروب الأوربية. والهيمنة على العالم.

يظهر الشرق اليوم كمركز لعنف يخرّب دوله ويفكك مجتمعاته. وبدلاً من الاكتفاء بالتفسيرات الأيديولوجية والهوياتية، ألا يوجد مكان، هذه المرة، لقيادة التفكير في منطق هذه الحروب، ولكن من موقعنا في بؤرة الصراع مباشرة، بين الدول والمدنية، لم يعد كحوادث ولكن كعمليات؟ حيث الحروب بين الدول والحروب الأهلية، مختلفة الأشكال والنتائج، مع ملاحظة أن كل أشكال اندلاع الحرب بين الدول تختلف اختلافاً جوهرياً عن تلك الخاصة بالحرب الأهلية.

تؤدي الحروب بين الدول إلى تعبئة مُدارة واستثنائية للموارد: الرجال، والنساء، والقدرات الإنتاجية، ورأس المال (من خلال الضرائب، والمديونية، والطلبات وتخفيضات في قيمة العملة). بغض النظر عن مدى الدمار المادي والخسائر البشرية والاضطرابات المؤسسية التي تسببها، فهي لا تؤدي إلى الانهيار الدائم لبنى الإنتاج والنخب.

توضح الحالات القصوى لليابان وألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية، هذا الأمر بوضوح. وفي كلتا الحالتين، اتبع المنتصرون سياسة منهجية لتفكيك النظام السياسي والهرمي القائم، ومع ذلك، وقد شهدت هاتان الدولتان إعادة تشكيل أُطُر إدارتهما الاجتماعية والاقتصادية بعد بضع سنوات، وتم استبعاد أكثر الشخصيات رمزية للسلطة التي كانت قائمة خلال الحرب، إنما عادت معظم نخبها إلى مناصب قيادية، إن لم تكن سياسية، أو على الأقل اجتماعياً واقتصادياً، مختلطاً بمعارضين سابقين أو منتقدين لهذه السلطة.

ولا يسع المرء إلا أن يلاحظ التناقض الصارخ مع ما حدث في العراق بعد الغزو الأمريكي والانقسام. ويعود سبب هذا الاختلاف بشكل رئيس إلى الحرب الأهلية التي اندلعت في العراق خلال اثني عشر عاماً من الحصار، والتي استمرت أيضاً في ظل الاحتلال الأمريكي، وبشكل أكثر وضوحاً بعد انسحاب القوات الغربية.

تُنتج الحرب الأهلية تأثيرات معاكسة لتأثيرات الحروب بين الدول. في حين أن الحرب بين الدول تقوم على توسيع سيطرة الدولة على الاقتصاد والمجتمع، فإن الحرب الأهلية تقوم على الانكماش

المكاني والمؤسسي لهذه السيطرة. إنه ناتج منذ البداية عن تسريح هائل للموارد، وتفكك الإطار، وتمزق دوائر التبادل الداخلي، وفقدان النشاط، والبطالة، وإنشاء دوائر مالية وأنظمة ضريبية بديلة من قبل الميليشيات، وتهجير السكان، ونهب الممتلكات الخاصة والموارد العامة، إلخ. يجب أن نسارع إلى التذكير بأن حرباً أهلية طويلة الأمد لا يمكن أن تحدث إلا بقوة التدخلات الخارجية، ولو فقط للتعويض عن الضعف المادي للأبطال الذي ينتج بالضرورة عن عملية الحرب الأهلية ذاتها ولكنه أيضاً يساهم في الحفاظ عليها، لأنه كلما وجد السكان أنفسهم معدمين، زاد استعدادهم للتجنيد مع الأطراف المتنازعة الذين يكلفونهم أقل والذين يجعلونهم يأملون في النهب.

وبين الحالتين المتطرفتين للحروب الأهلية بين الدول أو داخل الدول، لا يمكن للمرء أن يتجاهل المواقف الوسيطة، ذات الآثار المختلطة أو المتداخلة، لا سيما في الحالات التي تحتفظ فيها الحكومة المركزية، على الرغم من الخلاف الداخلي، بقدرتها على الإدارة. (إلى حد كبير كما في الحالة السورية) أو في الحالات التي تختلط فيها الحرب الأهلية بحرب الدولة (مرحلة التحرير في فرنسا، على سبيل المثال).

أخيراً، يجب أن نضع جانباً، كفئة ثالثة، اشتباكات داخلية موجزة يمكن أن تؤدي إلى اضطرابات مؤسسية واسعة النطاق، ربما تكون دائمة، وإنما ليس لديها الوقت لإحداث انهيار تلقائي لبنى الإنتاج والنخب، لا تتجاوز التعديلات على الفور حالات الإخلاء (الانقلابات العسكرية)، فهي تحدث لاحقاً بمرور الوقت وبطريقة مُدارة (كما في "ثورة" "الضباط الأحرار" في مصر أو انهيار الاتحاد السوفيتي وظهور الأوليغارشية من خلال انقسامات وانعكاسات كبار الشخصيات السابقة أو حتى "الانتقال" في بلدان أوربا الشرقية باستثناء ألمانيا، حيث تترافق نفس الظاهرة مع دخول النخب المهاجرة إلى مسرح الأحداث).

وبحسب منطقهم، فإن الحروب بين الدول تفترض مسبقاً السيطرة على المعلومات، لذلك نرى فقط الصور التي تقرر القوة بثها، إما الصمت (منطق عدم حدوث وفيات يساعد، أو على الأقل عدم وجود وفيات مرئي)، أو الترادف الكلاسيكي لفظائع العدو وبسالة الجنود والسكان الذين يدعمونهم. والأمر مختلف مع الحروب الأهلية. تقدم وسائل الإعلام نوعين من الصور: صور القتال، المشوشة والقبيحة، وصور محنة المدنيين. لكن في كلتا الحالتين، تكون الصور خادعة، سواء كانت من عمل الدولة أو أبطال الحرب الأهلية، أو حتى من مؤيدين أو منتقدين خارجيين، فهي تخفي

حقيقة واضحة، وهي أنه أثناء الحروب، تستمر الحياة، سواء كانت الحروب بين الدول أو أهلية، ويستمر الاقتصاد في سخريته ولكنه يتبع قواعد محددة تجعله أكثر تشاؤماً plus cynique.

تمويل الحرب

الحرب مكلفة ويجب تمويلها. وتكلف الحروب بين الدول أكثر من الحروب الأهلية لأنها تحشد المزيد من الموارد، ولكنها أيضا أسهل في التمويل، لأن الدولة المتحاربة لديها وسائل الإكراه والشرعية المؤسسية، من خلال الإكراه المشروع، يمكنها التعبئة والاستيلاء والفرض والدخول في الديون. تم تأجيل المشاكل المالية. نتذكر النقاشات التي جرت بعد الحرب العالمية الأولى، مع التعويضات الألمانية، وانتقادات كينز، والمحاولات الفاشلة لاستعادة المعيار الذهبي وأزمة عام ١٩٢٩. الحروب الأهلية هي "حروب صغيرة" Les guerres civiles sont de « petites guerres "١". لكن تمويلها أكثر صعوبة. ولا يمكن للجباية أن ترتدي عباءة الشرعية المؤسسية والاقتراض ممنوع، لذا فهي تأخذ شكل الفدية والنهب بشكل مباشر. والمساعدة الخارجية ضرورية وهي موجودة دائماً، سواء على الأقل للسماح بإيصال الأسلحة والمواد الغذائية أو في شكل إمدادات ومساعدات مباشرة. لكن في كلتا الحالتين، لا يتم تجاهلها أبداً، ونظراً لاختلال توازن القوى بين كل طرف من أطراف الحرب الأهلية وداعميها الخارجيين، فإنه ينتج عنها فرضيات لصالح الأخير حول حرية العمل للأطراف الداخلية، سواء في إدارة المواجهة أو خاصة في التفاوض على نتائجها. كما أننا نرى الأطراف الداخلية تسعى إلى ضمان أقصى قدر من الاستقلالية والأمن من خلال تعظيم مواردها "الخاصة".

وعندما تتوفر موارد قابلة للتصدير بسهولة، ولا سيما الأحجار الكريمة والمعادن، يتم تسهيل تمويل الحروب الأهلية على الرغم من أنها تفضل المشترين الخارجيين الذين يمكنهم الحصول على الإمدادات بأسعار منخفضة، فيما يصعب تمييز الحليف عن الراعي، هذا هو الحال مع الحروب الأهلية المتكررة في العديد من البلدان الأفريقية. وفي حالة سوريا، نشهد تطوراً غير متوقع مع صادرات النفط، وإن لم تكن سرية للغاية. صحيح أن السوق السوداء (الواسعة النطاق والمتسامحة على نطاق واسع) للنفط قد بدأت في ظل نظام الحصار المفروض على العراق. في غياب الموارد الطبيعية، تلجأ الفصائل المحلية بسهولة لتمويلها إلى زراعة وتصدير جميع أنواع المخدرات (سواء في أفغانستان أو في مختلف بلدان أمريكا اللاتينية). في لبنان، أدى نهب المستودعات في مرفأ

بيروت عام ١٩٧٦ إلى إذكاء موجة من القتال الدامي، وكذلك في خزائن الميليشيات الناشئة. عمليات الاختطاف من أجل الفدية تكمل المشهد الشامل.

وتجدر الإشارة إلى أن نهب خزائن البنوك نادر. ففي لبنان، لوحظت حالة واحدة فقط خلال السنوات الخمس عشرة من الحرب. البنوك محمية لأنها تستطيع بسهولة شراء "حماية" الميليشيات، ولكن قبل كل شيء لأنها ضرورية لضمان تمويل الحرب الأهلية ككل، للميليشيات وكذلك للسكان.

الحصار والحظر والتضخم والتدخلات العامة

تؤدي الحروب بين الدول إلى إغلاق طرق التجارة والإمداد من خلال حقيقة تحويل الحدود إلى خطوط "أمامية". ومع تطور القوات البحرية، أصبح إغلاق الطرق التجارية سلاحاً في حد ذاته، مما دفع المتحاربين الذين يمكنهم الرغبة في خنق خصومهم، هؤلاء وجدوا أنفسهم قادرين على توجيه جزء من جهودهم العسكرية للسيطرة على مصادر الإمداد "الإستراتيجية" أو حتى لفرض الحصار أو القيام بأعمال منع متبادلة، فالحرب العالمية الأولى وحتى الثانية أكثر من ذلك أثبتت ذلك بوضوح.

وخلال الحروب الأهلية، تم قطع الطرق الداخلية، أولاً بشكل تلقائي بسبب العنف، ثم بطريقة منظمة من قبل الميليشيات التي وجدت في ابتزاز التجارة الداخلية مصدراً رئيسياً للدخل. من الواضح أن الميليشيات تسعى بالتالي إلى السيطرة على نقاط الوصول إلى الخارج (الموانئ والمطارات والمعابر الحدودية) لضمان إمداداتها الخاصة والسيطرة على المناطق التي تهرب منها. وينطبق الشيء نفسه على مراقبة المعدات المركزية لخدمات الشبكة (محطات توليد الكهرباء، المصافي وخزانات الوقود، السدود والآبار وخزانات مياه الشرب). لقد أوضحت الحرب اللبنانية بوضوح هذه المنافسة واستمرار ردود الفعل التي ولّدتها في التحكم في سياسات مواقع المعدات، تحت غطاء الاهتمام بـ "التنمية المتوازنة". وفي سوريا، العملية نفسها جارية.

لكن الحروب الأهلية، التي يجب أن نتذكرها، تنطوي دائماً على تدخلات خارجية، تحرض من جانب بعض الدول الثالثة، تلك التي تمتلك السلطة، على إقامة الحصار أو الحظر. وأصبحت هذه

التقنية شائعة إلى درجة أن "القوى العظمى grandes puissances "، بقيادة الولايات المتحدة، وبدرجة أقل، الدول الأوربية، أبدت إعجابها بها واستخدمتها ضد الدول التي لا ترضيها باعتبارها "عقوبات"، وفي أغلب الأحيان خارج الأطر الرسمية للشرعية الدولية الموروثة بعد الحرب العالمية الثانية وتقويضها منذ انهيار الاتحاد السوفيتي.

تؤدي التخفيضات في الطرق الداخلية أو إغلاق الطرق الخارجية أو عمليات الحظر إلى تأثيرات مماثلة منها زيادة تكلفة البضائع، وخاصة السلع المستوردة، وتطوير دوائر التوريد الموازية، واحتكار قوى لحظة المخزون ...إن كل هذا يُترجم في ظهور "الأثرياء الجدد nouveaux riches "، من خلال إفقار السكان وفقدان الوظائف نتيجة للأنشطة الناتجة عن السوق السوداء وتحويل دوائر تداول السلع والأشخاص، مع التطوير المستحث لمراكز بديلة، لا تعوض محلياً فقط، على الرغم من أننا يجب ألا نهمل هذه الظواهر "من الدرجة الثانية" التي يمكن تحويلها إلى بيانات دائمة، من ناحية أخرى، تجد بعض المناطق نفسها محرومة بشكل مضاعف من خلال الإفقار العام والاستيلاء على وظائفها الاقتصادية من قبل أقطاب جديدة، هذا هو الحال بشكل خاص في طرابلس في لبنان، التي كانت معزولة عن بيروت طوال فترة الحرب، التي شهدت إبعاد المناطق ذات الغالبية المسيحية في منطقتها (البترون والكورة وبشري وزغرتا) عنها بعد أن احتلت المدينة لفترة وجيزة من قبل الميليشيات الإسلامية المدعومة من ياسر عرفات عام ١٩٨٣ ليجدوا أنفسهم مستقطبين حول مدينة جبيل، ولا سيما مع إنشاء طرق جديدة تتجاوز طرابلس، كل هذا عندما كانت مفتوحة على مصراعيها لسوريا. ويمكن للمرء أن يجد بسهولة في هذه العملية جذور الوضع الحالي لطرابلس، وهي مدينة مهمشة مقارنة ببقية لبنان وعلى اتصال مباشر بتطورات الوضع في سوريا.

ويُعدُّ تراجع إنتاج السلع والخدمات "المدنية" حقيقة متكررة في جميع الحروب، سواء كان ذلك بسبب تعبئة الموارد للجهود الحربية في الحروب بين الدول أو بسبب الاختلالات في الاقتصاد المحلي (التي تتفاقم بسبب الحصار المحتمل و الحظر) في الحروب الأهلية. ففي لبنان، بين عامي ١٩٨٤ و ١٩٨٧، اختفت العملة الوطنية عملياً من التداول لصالح دولار الولايات المتحدة. يعمل التضخم على إعادة توزيع هائلة للثروة والدخل. المقترضون (بما في ذلك الدولة أو على وجه التحديد أولئك الذين يستفيدون منها) يستفيدون منها، كما يفعل أصحاب الأسهم، فيما المدخرون والأشخاص ذوو الدخل الثابت (الموظفون بشكل عام والموظفون والمتقاعدون على وجه الخصوص) يدفعون

الثمن. تقوم الدول في كثير من الأحيان بتجميد العقود وخاصة الإيجارات، والتي يصبح تحريرها مشكلة بعد فترة طويلة من انتهاء النزاعات (تجميد الإيجارات، الذي تم تطبيقه خلال الحرب العالمية الثانية والذي تفاقمت آثاره بشكل كبير خلال الحرب الأهلية، ولا تزال مشكلة غير قابلة للحل حتى يومنا هذا).

السكان المدنيون والأعمال الإنسانية

خلال الحرب الأهلية، تستمر الغالبية العظمى من السكان في العيش، بالوسائل المتاحة، والتكيف، مما يقلل، مما يمكن تخيله مسبقاً، مطالبهم ومعايير استهلاكهم. وعلى الرغم من وضوحه الشديد، إلا أن المقاتلين الفعالين قليلون. فيما تشريد السكان هو سمة من سمات الحروب الأهلية. ويرجع ذلك إلى عدة أسباب :

السبب الأول هو الخطر المرتبط بالقتال. حيث ينطبق هذا الخطر أيضاً على الحروب بين الدول. ففي حالة لبنان، تم احتواؤه بسرعة لأن استقرار قبضة الميليشيات اقتصر في القتال على الخطوط الثابتة التي كان محيطها إما غير مأهول (بما في ذلك وسط المدينة على وجه الخصوص) أو تم هجره واخلاءه بسرعة، الاستثناء الرئيسي يظل في جنوب لبنان الذي كان يتعرض بانتظام للهجمات والتوغلات الإسرائيلية. أما في حالة سوريا، من ناحية أخرى، يغطي هذا الخطر مناطق أكثر اتساعاً بسبب عدم استقرار جبهات القتال بين الجيش والمعارضين وكذلك بين مختلف فصائل الأخير، ولكن أيضاً بسبب القصف المدمر للجيش السوري، في معظم الحالات، تكون عمليات النزوح مؤقتة.

السبب الثاني هو القمع أو الخوف من القمع من قبل القوى التي تهيمن على منطقة معينة ضد فئة من السكان، تعتبر معادية أو على الأقل غير مرغوب فيها. في حالة لبنان، كان تهجير السكان الذي أدى إلى إنشاء مناطق مجتمعية هائلاً وثبت في الغالب أنه دائم، بعد خمسة وعشرين عاماً من نهاية الحرب، أثرت على السكان الفلسطينيين واللبنانيين في "المخيمات" في ضواحي بيروت، والسكان المسيحيين في "الأحياء الغربية" في بيروت وطرابلس وكذلك منطقتي الشوف وعاليه،

وسكان "الأحياء الشرقية" المسلمين. ... في سوريا (كما في العراق)، أدت عمليات الابتزاز المذهلة للميليشيات "الإسلامية" إلى تفاقم هذه الظاهرة، لا سيما فيما يتعلق بالأقليات غير السنية.

والسبب الثالث هو الهروب من تدهور الأوضاع الاقتصادية الناجمة عن الحرب. على عكس الأولين، لا يتم تحديده مكانياً ولكن اجتماعياً ويؤدي بشكل أساسي إلى الهجرة. بل يحدث حتى في غياب الاقتتال كما يتضح من هجرة جزء من النخب العراقية خلال مرحلة الحصار و"العقوبات sanctions ". ونظراً لأن الضغط الاقتصادي يؤثر على الجميع تقريباً، فإن شدة آثاره ترجع أساساً إلى الإمكانيات المتاحة للمرشحين أو التي يعتبرونها كذلك. لذلك فهي تؤثر أولاً على الأجانب، ثم الشباب، والأشخاص ذوي المهارات المهنية، والعاملين عبر الحدود، والأشخاص الذين لديهم بالفعل عائلات في الخارج ... لقد كان مكثفاً بشكل خاص خلال الحرب الأهلية في لبنان واستمر منذ ذلك الحين، وأثارت مرحلة إعادة الإعمار موجة صغيرة وعابرة من العائدات. لقد اتخذت نطاقاً استثنائياً في سوريا.

ودون التقليل من آثار السببين الأولين، يمكن للمرء أن يعتقد، بالنظر إلى حجم النزوح السكاني، لا سيما خارج البلاد، أن هذا هو السبب الثالث السائد في الحالة السورية. وقد تم تضخيمه من خلال السياسة التي تنتهجها الدول المجاورة والدول الغربية تجاه النازحين السوريين. ومن الجانب التركي، كان تورط الدولة في الصراع السوري ضد النظام مباشرة منذ البداية. وفيما يتعلق بالنازحين، تم إنشاء المخيمات على طول الحدود، والسيطرة السياسية والحاجز اللغوي الذي يحد من اندماج النازحين في الاقتصاد التركي. أما في الأردن، فقد ظل موقف الحكومة أكثر تحفظاً. وتم إنشاء المخيمات لكن مراقبة الشرطة لم تكن كافية لاحتواء انتشار النازحين السوريين بين السكان.

وفي الجانب اللبناني كان الوضع مختلفاً. إذ أنه ومنذ البداية، أدت المواقف العدائية للأطراف اللبنانية فيما يتعلق بالصراع السوري الداخلي إلى شل عملية صنع القرار في الدولة بشكل كامل، مما أدى إلى فتح الحدود بحكم الأمر الواقع، وهذا بكل ما فيه فقد كان الأكثر تهوراً حيث كان كلٌّ من الطرفين، واثقاً من النصر الوشيك لحلفائه السوريين، واعتقد أن بقاء النازحين سيكون قصير الأمد. ويختلف لبنان أيضاً في وجود مئات الآلاف من العمال السوريين هناك، أو ذهبوا إليه بانتظام كعمال موسميين منذ ما قبل الحرب الأهلية. ومن حيث الجغرافيا الطبيعية والبشرية، فهي أيضاً

أقرب نقطة للسوريين وأكثرها جاذبية. لذلك كان من الطبيعي، لكل هذه الأسباب، أن تكون وجهتهم المفضلة.

إن الظروف المعيشية لمعظم النازحين مأساوية. والمساعدة الإنسانية للعديد منهم هي مسألة بقاء. سوى أن هذه المساعدة لا تخلو من إحداث آثار ضارة. فبمجرد أن يتم تحديد وضع النازحين ببساطة من خلال وجود الشخص في منطقة معينة، في هذه الحالة خارج البلد المتنازع عليه، وأنه يؤدي ميكانيكياً إلى الاستفادة من المساعدات الإنسانية، فليس من المستغرب أن الظروف المعيشية السيئة في بلد المنشأ مقارنة بتلك الموجودة في البلد المضيف، ومن باب أولى، تدهورها بسبب الحرب والخوف من العنف، تحول المساعدات الإنسانية إلى آلية جذب لفائض من النازحين.

وتكون صورة "اللاجئين réfugiés" مدعومة بالكامل بالمساعدات الدولية في إطار المخيمات التي ستبقى منيعة على البيئة الوطنية (كيف ننسى مأساة الفلسطينيين وحقهم في العودة مع دعمهم من قبل الأونروا في هذه الأثناء) كما يحب بعض "العاملين في المجال الإنساني" تصوير الحقائق، تماماً مثل صورة بلد تحول بشكل كامل ودائم إلى "مسرح حرب scène de guerre"، كما هو الحال مع وسائل الإعلام الحالية، وهما وهْمان بصريان يتم الحفاظ عليهما.

إعادة الإعمار

لم تُدرَس فترات إعادة الإعمار مثل فترات الحرب. فلا عجب حيث إنها استمرار منطقي، يتم تقديمها على أنها مراحل نمو بسبب الحيلة الإحصائية التي تجعل الناتج المحلي الإجمالي، يلاحظ التدفقات ويتجاهل الاختلافات في المخزون، أي التدمير الذي هو جوهر الحرب.

إعادة الإعمار هي فترة تراكم متسارع للثروة، وفترة من التثاقف وإضفاء الشرعية على النخب الجديدة الناتجة عن الحرب. ويمكن أن تتنوع أشكاله لأنها تعكس نتيجة الاشتباكات أي "المصالحة"، بحكم القانون أو بحكم الواقع، والنصر من جانب، ... ولكن أيضاً درجة الاهتمام من الخارج. إنه ينذر بالمرحلة التاريخية التالية.

في حالة الحرب الأهلية، يسمح التوقف البسيط للعنف للناس بالعمل وتداول البضائع، مما يؤدي إلى انتعاش الناتج المحلي الإجمالي. ولكن في نهاية الحرب (خاصة الحرب الأهلية)، تجد الأسعار

النسبية للأصول المحلية (الأراضي وسندات الشركات) نفسها محبطة مقارنة بالخارج، الأمر الذي من شأنه أن يعزز القدرات التصديرية للاقتصاد على الرغم من الطلب المحلي فيما تتفاقم شروط الاستهلاك والاستثمارات ولكن دون وجود الموارد المالية اللازمة. ولكن هذه الأصول تصبح فريسة سهلة لرأس المال الذي يأتي من الخارج في مرحلة ما بعد الصراع أو الذي تراكم من قبل أمراء الحرب، مما تسبب في موجة ثانية من إعادة التوزيع الوحشي للثروة " ٢ ".

يتبع ذلك مجموعة من الخيارات المعقدة التي نادراً ما يستطيع المجتمع المصاب بصدمة أن يتحملها بهدوء. علاوة على ذلك، يمكن أن تكون الخسائر في "رأس المال البشري capital humain " أثقل نسبياً من الخسائر في رأس المال المادي.

لذلك تم وضع آليتين : الأولى عبر إعادة تعبئة الموارد في عملية الإنتاج والثانية عبر تسريع المعاملات في الأصول والعوامل (الاستيلاء على الأصول وهجرة الأموال). وهاتان الآليتان تتدخلان من حيث الأسعار والدخل وإعادة توزيع الثروة والحوافز السلوكية. نظراً لأن عملية إعادة بناء الإنتاج تتميز باستثمارات ضخمة، فإن فعالية هذه الاستثمارات والوقت المستغرق لاسترداد الخسائر المتكبدة والأجر الناتج عن العوامل (رأس المال والعمالة الماهرة والعمالة غير الماهرة) تتأثر بشكل مباشر من ناحية أخرى، من خلال الملاءمة بين تقييم الضرر النسبي الناجم عن الحرب على كل من مخزون العوامل وسياسات إعادة الإعمار وحصص مكوناتها المادية والاجتماعية، ومن ناحية أخرى، من خلال تأثيرات السياسة المالية والنقدية على حشد الموارد المالية والأسعار.

مثالان مرجعيان يقدّمان نفسيهما في هذا الصدد.

كان الدمار المادي في ألمانيا ما بعد الحرب هائلاً، في حين أن خسارة رأس المال البشري، خاصة بعد هجرة السكان الألمان من الأراضي المفقودة ومن الجزء الشرقي إلى جمهورية ألمانيا الاتحادية، على الرغم من ثقلها، كانت أقل نسبياً وأن إطار السكان النشطين، حسب مستوى التأهيل، ظلوا مستقرين نسبياً. اقترنت سياسة الاستقرار النقدي مع خطة مارشال التحفيزية وفتح الأسواق (ECSC ثم العملية الأوروبية) أمام الصادرات الألمانية. وكانت النتيجة إعادة بناء وصفت بأنها "معجزة".

في لبنان، أدى تزامن الحرب الأهلية والطفرة النفطية إلى هجرة جماعية، لا سيما المهنيين والخريجين الشباب، ومن ناحية أخرى لتسهيل تمويل الحرب وإطالة أمدها وتكديسها. رأس مال كبير للمهاجرين اللبنانيين، لا سيما في دول الخليج. بعد المرحلة الأولى التي اتسمت بأزمة نقدية تشير العديد من المؤشرات إلى أنه تم التلاعب بها والسخاء في استخدام الأموال العامة لصالح قادة الميليشيات ("الثمن السياسي للسلام")، تهدف السياسات النقدية والمالية إلى الحفاظ على تدفقات رأس المال (المسجلة في شكل ودائع مصرفية وديون محلية وعامة وخاصة " ٣ " واستخدامها لدعم الاستهلاك والواردات، مما أدى إلى ارتفاع هائل ومستدام لسعر الصرف الفعال وإثارة "المتلازمة الهولندية" التي أدت بدورها إلى استمرار هجرة الخريجين اللبنانيين واستيراد كميات كبيرة من الواردات. واستقدام عمالة أجنبية ماهرة. بعد مرور خمسة وعشرين عاماً على انتهاء القتال، لا تعمل أي من الخدمات الأساسية بشكل طبيعي (الكهرباء والماء والنقل والاتصالات السلكية واللاسلكية، وما إلى ذلك).

ولا تزال نتيجة الحرب الأهلية في سوريا غير مؤكدة ولا تبدو قريبة. حيث لا يُعرف سوى القليل عن نسبة المهنيين في الهجرة السورية مقارنة بحصتهم في السكان، والتي هي أيضاً في خضم تحول ديموغرافي. يبدو الضرر المادي فيه كبيراً ولكن لا توجد تقييمات موثوقة. سوف تعتمد التدفقات المالية المتوقعة في فترة ما بعد الصراع بشكل مباشر على نتائجها السياسية. تخاطر سوريا بالتحول إما إلى دولة فقيرة مصدرة للعمالة (مثل اليمن إلى حد كبير) أو إلى خليط من المناطق التي تدور حول التأثيرات والأسواق الخارجية.

لقد تعلم السوريون الكثير من الوصفات السيئة من تورطهم في الحرب الأهلية في لبنان وسيطرتهم في مرحلة ما بعد الحرب. ومن المحتمل جداً أن يقوموا بإعادة إنتاجها في المنزل. مع استمرار المأساة، بدأت علامات الابتزاز بالظهور تحسباً لحقبة ما بعد الحرب.

متى سيتوقف العنف؟ هو السؤال الغالب. "على أي ترتيب؟" يأتي بعد ذلك مباشرة. لأن المخرج من الصراع هو الذي سيسيطر على مستقبل سوريا وإلى حد كبير مستقبل لبنان وسيحدد نطاق خيارات ما بعد الحرب ودوافع القادة وكفاءاتهم " ٤ ".

وكلما زادت فرص الترتيب، كلما انزلقت الرهانات من النضالات المرئية التي تخوضها المعسكرات المعارضة للحرب إلى النضالات الأكثر سرية، داخل كل من هذه المعسكرات وعلى أطرافها، لإخراج الأبطال. الترتيب وقادة ما بعد الحرب.

الآثار الاقتصادية والمؤسسية العابرة والدائمة

الحرب فجور La guerre est débauche، وهي استهلاك "الجزء الملعون part maudite ". والحرب بين الدول تحقق هذا الدمار بطريقة منظمة. وتهدف إلى تعزيز التنظيم المجتمعي الذي يحكمها وتعظيمه، ولكن مع وجود مخاطر قد تكون كبيرة (الثورة البلشفية عام ١٩١٧ أثناء الحرب العالمية الأولى ظلت المثال الأكثر وضوحاً، ولكن آثار الحرب التي يشنها العراق ضد إيران في الترتيب نفسه). تبدأ الحرب الأهلية من التحدي المتمثل في التنظيم المجتمعي القائم وتخرج منظمات منافسة جديدة، تنتهي إحداها في حالة النصر أو بعضها في حالة التقسيم في نهاية المطاف في مكانها.

وإذا كانت الحرب بين الدول تدميراً مادياً منهجياً (بسبب المعاملة بالمثل)، حيث تم إدراجها وتهدف إلى تعزيز النظام المؤسسي، فإن الحرب الأهلية هي تدمير مادي أقل حجماً في عملية تفكيك وإعادة إعمار المؤسسات. بدون إبطال القاعدة الأساسية للحرب ذاتها، تتميز الحرب الأهلية في سوريا بتدمير أوسع من المعتاد بسبب استمرار القدرات العسكرية للجيش النظامي. من ناحية أخرى، فإن الذاكرة التي احتفظت بها شعوب البلدان التي عرفت الحربين العالميتين قد بقيت حتى أن دولهم أقامت الأمم المتحدة والردع النووي، على أمل، أو الاعتقاد، أن هاتين الآليتين ستكونان كافيتين لدرء الذاكرة ومنع تكرارها على الأقل "في الوطن".

وأثناء اندلاع الحرب الأهلية، يسمح فقدان سيطرة الدولة على المجتمع والأرض بظهور منظمات مجتمعية ومكانية أولية، قبل آثار عملها التكاملي. أدت الحرب الأهلية اللبنانية، من خلال تفكيك سيطرة بيروت على بقية البلاد، إلى تقريب طرابلس من حمص والبقاع إلى دمشق (من خلال تكثيف الأحجام القانونية أو غير القانونية، في كلا الاتجاهين، من تبادل البضائع أو عن طريق التضخيم. من تدفقات السكان). أدت الحرب الأهلية في سوريا، مؤقتاً على الأقل، إلى إلغاء آثار عمليات المركزية والتكامل للسياسات التي اتبعتها الأنظمة المتعاقبة منذ الاستقلال عبر تجاوز لبنان من

خلال إنشاء موانئ اللاذقية وطرطوس وربطهما براً و السكك الحديدية في دمشق وحلب، وتبعية حلب لدمشق ودمج الشمال الشرقي ومنطقة البادية من خلال شبكات النقل والري وآليات الدعم.

بيروت مرة أخرى هي الميناء والسلطة التنفيذية لدمشق. واستقلال حلب عن نفوذ دمشق مما أفقدها وظيفتها الصناعية في الفضاء السوري. وبعد أن فقدت بالفعل، من خلال رسم الحدود عام ١٩٢٠ والتنازل عن لواء إسكندرون عام ١٩٣٩، ومعظم أراضيها التاريخية لتركيا، أصبحت اليوم بمنطقتها تابعة لتركيا. ومن المحتمل أن يكون فضاء البادية السورية هو الأكثر تضرراً، فقد أدى انتهاء سياسات الدعم للمناطق الريفية في الشرق والشمال الشرقي، من ناحية، إلى هجرة جماعية إلى مدن الغرب، مما أدى إلى خلق مناطق شاسعة من المناطق الريفية. وخلق العشوائيات (في هذه المناطق نفسها التي دارت فيها أعنف المعارك) وتسببت في عودة العلاقات القبلية بامتدادها نحو العراق والسهوب الأردنية السعودية (اشتباكات المحور الرئيس الثاني). ورداً على هذا التفكك، أصبحت مناطق الاستيطان الكردية، على طول الحدود الشمالية للبلاد، مستقلة بين منطقة البادية من جهة وتركيا من جهة أخرى. تثير التطورات الأخيرة في المنطقة الجنوبية (الجولان وحوران وجبل الدروز) مخاوف من ظاهرة مماثلة مع خليط السكان البدو والدروز القرويين وقرب "دولة إسرائيل". كما أثرت امتدادات الحرب الأهلية السورية في لبنان بشكل رئيسي على المناطق (المحصورة في الحالة اللبنانية) حيث ظلت الخصائص البدوية قوية (عرسال في البقاع ووادي خالد في عكار).

لدى المرء انطباع بأن رؤية البروز مرة أخرى، بسبب تمزيق نسيج الدولة، وتاريخ طويل للمناطق، مع تذكير بحدود دول الشام المؤقتة التي أنشأتها فرنسا بين عامي ١٩٢٠ و ١٩٢٥. ونجد الأهمية في حمص كمدينة محورية للفضاء السوري بأكمله. وراء منطق الحرب، يتم إعادة تشكيل المنطق الاقتصادي ومنطق المناطق.

الحرب في سوريا ولبنان

منذ الاستقلال، لم يسعَ لبنان أبداً لتأكيد أي رؤية لعلاقاته مع سوريا أو لتطور مصالحهما المشتركة في المنطقة. هذا الموقف ليس خاصاً بأية فترة أو نظام في لبنان أو سوريا. اليوم، لم يعد

الوضع الذي أوجدته الحرب الأهلية يسمح لنا بالاستمرار على هذا الطريق، ومستقبل لبنان وسوريا على المحك.

أدى هذا الموقف من الحياد والإنكار، لعدة أشهر، إلى وهم التوصل إلى حل سريع للصراع السوري (لصالح النظام أو المعارضة، لا يهم) ثم خلال عام ٢٠١٤، وقبل المدى الأمني. المخاوف والتوترات الاجتماعية والاقتصادية، من خلال الوهم المستمر بالعودة الكاملة للوضع قبل نهاية الاشتباكات (حتى المؤجلة باستمرار)، مع عودة النازحين. بدون هذا الموقف من الإنكار، لا يمكن للمرء أن يفهم أن ما يقرب من مليون ونصف المليون نازح سوري دخلوا لبنان، ولا أن وكالات الأمم المتحدة والدول الأجنبية وحدها هي التي تدير أوضاعهم.

عندما نتحدث في لبنان عن نازحين سوريين، فإننا نتحدث عن فقراء سوريين فقط. يتسم الأغنياء السوريون، مثلهم مثل الفلسطينيين الأغنياء، بخصائصهم الطبقية أكثر من خصائصهم الوطنية أو السياسية. من ناحية أخرى، بدأ السوريون الفقراء بإثارة ردود فعل مقلقة من الرفض لدى السكان، وذلك بصرف النظر عن الاعتبارات المرتبطة بالانتماءات المجتمعية أو "السياسية" أو العداوات.

إن الآثار الضارة للعمل الإنساني، وهو أمر أساسي في مواجهة المأساة المستمرة، يتم الشعور بها والتعبير عنها بشكل متزايد، حيث تجتذب المساعدات المزيد والمزيد من النازحين، وتزيد من الضغط على الوظائف والأجور ودخول اللبنانيين، ولا سيما الأفقر منهم. مما أدى إلى إثارة الغيرة والتوترات حتى بين الأطفال الذين ينتهي بهم المطاف في المدارس.

يجب الاعتراف بأن سوريا، بل لبنان أيضاً، لن تعود إلى الوضع السابق، وأن ديناميكيات الحرب الأهلية خلقت حقائق لا رجوع فيها وشكلت كل يوم وضعاً اجتماعياً واقتصادياً ومكانياً جديداً للبلدين. نتيجة للحرب الأهلية السورية، فإن العمالة السورية الزائدة في كل من سوريا ولبنان تتطلب اتخاذ تدابير فورية لاحتوائها وتوجيهها بطريقة تضع الأسس لعلاقات اجتماعية واقتصادية مستقرة بين البلدين. البلَدان من داخل كل منها.

علاوة على ذلك، إذا قبلنا أن استقرار الوضع الاجتماعي في سوريا يخص الفاعلين الإقليميين والدوليين الذين انخرطوا بشكل أو بآخر في الصراع والذين سيتأثرون بعواقبه، فمن غير المقبول القيام بذلك. لبنان يتحمل وحده العبء الذي وقع على كاهله.

لم يكن العملان الإنساني والأمني على مستوى التحديات مطلقاً، ويصبح عدم استقرار أكثر وخطورة أكبر. وبالتالي فهناك حاجة إلى نهج هيكلي. في هذا المعنى فإن العمل " ٥ " يمكن أن يستند إلى محورين:

زيادة نوعية في حجم الطلب في الأسواق الخارجية على منتجات من لبنان وسوريا، دون تمايز من حيث المنشأ في حصص مكوناتها اللبنانية والسورية، مصحوبة بزيادة نوعية في القدرات الإنتاجية الداخلية المتوفرة في لبنان وسوريا معاً، من خلال إنشاء صندوق استثماري لدعم الاستثمارات الإنتاجية في البلدين من لبنان ومن خلال برنامج مساعدة يهدف إلى تعويض التكاليف الإضافية الناجمة عن الأوضاع الاقتصادية والأمنية الحالية في البلدين.

ومن شأن هذا الإجراء أن يسهم، من جهة، في دعم القطاعات الإنتاجية في كل من سوريا ولبنان، ومن شأنه أن ينذر، من جهة أخرى، بتكامل إيجابي بين لبنان وسوريا وبقية العالم العربي والمتوسطي لفترة ما بعد الحرب؟.

مصادر وإشارات

١-تخليدا لذكرى فيلم مارون البغدادي ١٩٨٢.

٢-تم تقييم حالة الأرض في وسط بيروت، والتي تم دمجها في شركة سوليدير عام ١٩٩٢، بسعر لا يمثل سوى ٣ إلى ٥٪ من قيمتها الحالية بالدولار.

٣-بلغ إجمالي تدفقات رأس المال الوافدة ١٤٠ مليار دولار أمريكي بين عامي ١٩٩٣ و ٢٠١٣، بنفس القدر (بالدولار ٢٠٠٥) لخطة مارشال بأكملها.

٤-إن مثال العراق منذ عام ٢٠٠٣ واضح تماماً في هذا الصدد، على خلفية اتحاد غير مستقر لـ "الممالك البربرية royaumes barbares " بعد سقوط الدولة الإمبراطورية.

٥-تم تقديم هذا الاقتراح في مذكرة إلى ممثلي الأطراف المشاركة في مؤتمر جنيف ٢ من قبل "حركة الصفقة الجديدة" في خريف ٢٠١٣.

شربل نحاس (و. ١٩٥٤)، هو وزير الاتصالات اللبناني من ١٠ تشرين الثاني ٢٠٠٩، في أول حكومة يرأسها سعد الحريري. د. نحاس واحد من ثلاثة وزراء ينضمون إلى الحكومة من التيار الوطني الحر، التي يرأسها العماد ميشال عون. وفي ١٣ حزيران ٢٠١١ تولى وزارة العمل في حكومة حزيران ٢٠١١ التي شكلها رئيس الوزراء نجيب ميقاتي.

*-Charbel Nahas: Economie des guerres civiles : la Syrie et le Liban transformés

Dans Confluences Méditerranée 2015/1 (N° 92)

٢- حربان مرهقتان: "ضعف المجال"، وأشكال السرد وطول

فترة كتابة الحروب الأهلية في سوريا ولبنان*

"لم يتعب [والدي] أبداً من تسجيل شعارات الحرية في صفحات دفاتره، وعدد الضحايا والسكان ممن قتلوا في المدن المدمرة، ووجهات نظر المحللين، والمواقف التي اتخذتها دول العالم"

[...] لماذا تتعب؟ سألتُه.

أجاب: لا أستطيع أن أفعل أي شيء آخر.

(معروف، ٢٠١٤، ص ١٧٩)

بالنسبة لأي شخص يعمل على الحرب الأهلية في لبنان "١"، فإن المقارنة ليست خياراً بقدر ما هي واقع مفروض، يجري ضبطه بانتظام من خلال أخبار أخرى تلاحقها: الصراع في يوغوسلافيا والحروب في أفريقيا في التسعينيات، والعراق في ٢٠٠٠، وسوريا اليوم. وتظهر المقارنة في عدة مناسبات، بين المستجيبين الذين حشدوا المقارنات في خطاباتهم، والبرامج الدولية التي تنتج هذا النوع من الجسور (على سبيل المثال برامج ذاكرة النزاعات)، أو حتى بشكل خاص في مواجهة العلماء مع هذا الموضوع الآخر. وتؤدي حقيقة كون المرء معاصراً لبعض النقاشات إلى إعادة النظر في موضوعات المرء وفقاً لهذه الموضوعية، ويوفر سياق الأزمة السورية فرصة جديدة للتفكير في هذا. "٢"

أما بالنسبة للآخرين من قبل، فقد تدخل الصراع في مسار بحثي الخاص الذي أجري حول الحرب الأهلية اللبنانية منذ عام ٢٠١١. وقد أثار الصراع السوري مشكلتين مصاحبتين: مشكلة مقارنة الديناميكيات الاجتماعية والجهات الفاعلة في اللعبة في كل من الصراعات، وإنما أيضاً، تلك التي قد تبدو ثانوية، من مصادر تنفيذ مثل هذا المشروع. وقبل الخوض في قلب الخلافات، فإن شروط المقارنة والمواد اللازمة لذلك هي التي تثير التساؤلات، لأنه على بعد أربعين عاماً عالم الجامعة (نماذجها، نظرياتها، أساليب كتابتها، ولكن أيضاً لم تعد الحدود هي نفسها تماماً، ولم تعد الأعمال في بعض الأحيان تتحدث اللغة نفسها (أحياناً بالمعنى الحرْفي، كما سنرى في مسألة استخدام اللغة العربية). وإذا واجهت بعضُ المناقشات الفكرية عودة متطابقة تقريباً من صراع إلى آخر - على سبيل المثال تلك المتعلقة بالأهمية النسبية لمسائل الهوية / المجتمع أو الأسئلة الاجتماعية والاقتصادية"٣"، فإن العناصر الأخرى تؤدي إلى التغيير. ففي لبنان، لم تُطرح الانعكاسية réflexivité، ولا مسألة "المجال terrain" أو حتى مركزية الشاهد centralité du témoin، على سبيل المثال في الأعمال التي تم فيها حشد النظريات الماركسية (في وقت كانت فيه الحرب الباردة لا تزال حيةً)، إعادة اكتشاف ابن خلدون، العلاقة مع اللغة والتشدد اليساري الملحوظ (LePotolec، ٢٠١٠). من ناحية أخرى، فإن ظهور الإنترنت الآن يغير التضاريس الممكنة بقدر ما يغير أماكن المناقشة (مثل مدونةJoshua Landis Syria Comments المركزية لسوريا اليوم).

ومن المحتمل أن تكون خطوط المقارنة متعددة، ولكن تمتْ هيكلة اثنين منها في هذا العمل. الأول هو الظل الذي يلقي على الأعمال اللبنانية من قبل جميع الأدبيات العاكسة اليوم عن سوريا وعلى نطاق أوسع على الثورات العربية (كاتوس، سيغنولز وسينو، ٢٠١٥). ونادراً ما أدت هذه الانعكاسية الجديدة في لبنان إلى التساؤل عن العوائق التي واجهتها الحرب الأهلية اللبنانية، خاصة وأنها تغذّيها اليوم، في صورة انعكاسية مقارنة لاحقة بسلسلة من السّير الذاتية (خلف، ٢٠١٧؛ خزام، ٢٠١٦)، بحث محدد، غالباً ما يكون انضباطياً (ريمون، ٢٠١٣؛ ريفوال، ٢٠١٤)، وآخذ الخُطُب العامة "٤". وتبدو الحالة اللبنانية أكثر إثارة للاهتمام من حيث إنها محورية في مسألة الاقتراب عن كثب من أشياء معينة تتميز بالعنف، بينما تطرح في المقابل سؤال المخاطر الشخصية للباحثين (دوكلوس، ١٩٨٨، ليكا ١٩٨٥). حقيقة أساسية منذ البداية في سوريا.

والجانب الثاني، الأكثر براغماتية في المظهر، هو التقاطع بين ملاحظة الحجم المتزايد للمنشورات حول سوريا، والصراع اللبناني الذي يُقدَّم غالباً على أنه يخلو من تأريخ جدير بهذا الاسم، على الرغم من كونه أدى كذلك إلى بروز عدد كبير من المنشورات من عام ١٩٧٥ حتى سنوات ما بعد الحرب. وفي سياق البحث، بينما تضاعف العمل حول سوريا، أثارت مجموعة هائلة من المنشورات حول الحرب الأهلية اللبنانية، والتي تُركت جانباً إلى حد كبير اليوم، سؤالين في المرآة. من ناحية

أخرى، كيف يمكن استيعابها والاستفادة منها في ضوء حجمها (وما الفائدة؟ من المصادر أو التحليلات التي ستجري مناقشتها؟)، خاصة لأي شخص يعمل في الحرب الأهلية، مع مسافة زمنية كبيرة عن تلك الفترة. ومن ناحية أخرى، كيفية تفسير هذا التنصل وفهمه، وهذا النسيان لكل الأدب أو لجزء منه، وبالتالي طرح السؤال عن مستقبل الأدب المكتوب أثناء صراع بين أيدي أجيال أخرى من الباحثين. وبهذا المعنى، يكون هذا العمل قريباً من عمل المؤرخين الذين يسألون أنفسهم سؤال "مع من نكتب التاريخ"، مع مصادر تكون أحياناً متزاملة/ متصاحبة (ماريو، ٢٠١٤، ٢٠١٧).

وقد أثارت إعادة قراءة الأعمال اللبنانية في ضوء سوريا، والأعمال من السبعينيات إلى التسعينيات في ضوء النقاشات الحديثة في العلوم الاجتماعية، بدورها بعضَ التساؤلات والاستفهامات حول ما جرَتْ كتابته مباشرة عن سوريا. وإذا كانت القضية اللبنانية تستفيد من إعادة التفكير في ضوء بعض النقاشات المعاصرة، فيمكن أن تثار بعض النقاشات "القديمة" مرة أخرى بالنسبة لسوريا. وعلى هذا النحو، فإن هذه المقالة تشهد على حركة ذهاب وإياب بين كتابين تاريخيين: إنها ليست ملاحظة غير مباشرة لتطور (سعيد أم لا heureuse ou non) بين حقبتين، أو شيخوخة العلوم الاجتماعية أو تقدُّم لا يمكن إصلاحُه للمعرفة، كما تمكَّن بعض الباحثين من فعل ذلك بأنفسهم، على سبيل المثال من خلال انتقاد عملهم، الذي يعتبر ماركسياً للغاية، بعد بضع سنوات (جونسون، ٢٠٠٢). وعلى العكس من ذلك، فإن الأمر يتعلق بالتحديد بالتشكيك في هذا الدليل، وإظهار ما يمكن أن ينشأ من المقارنة في أجزاء متساوية.

واستناداً أولاً إلى عمل مكثف من التكرار الطويل للمحتوى اللبناني، وتكوين تقييم تاريخي في شكل قاعدة بيانات، تم استكمال هذه المقالة بعمل مراقبة المنشورات وقراءتها عن سوريا. فهي قبل كل شيء سلسلة من فرضيات العمل وسبل التفكير، حيث كان التحدي الرئيس هو توضيح الوضع الاجتماعي الناتج عن الحرب - كلاً من ديناميكيات الصراع نفسها، والحالة التي ينخرط فيها أولئك الذين يقدّمون تقارير عنها - بالنسبة لأشكال الكتابة، وهو جانب لم يتم تناوله إلا قليلاً في الأدبيات المنهجية حول النزاعات، والتي تضاعفت في السنوات الأخيرة.

(أيّمبام وبوجو، ٢٠١٥، بومازا وكامبانا، ٢٠٠٧، سيفاي وأميروكس، ٢٠٠٢، الاثنولوجيا الفرنسية، ٢٠٠١، هاغبيرغ وكورلينغ، ٢٠١٥، على سبيل المثال لا الحصر الأعمال الفرنسية).

في هذا السياق، بدا من الجوهريّ، طرح الأعمال التي تهمُّ المعاصرين المباشرين للصراع كأشياء ذات امتياز، شهوداً مُدرجين في فضاء من قيود معينة، مما يثقل كاهل ما يمكن رؤيته وكتابته من هذه الصراعات. ويتسم تأريخ الحرب في سوريا بشكل خاص بـ "حقبة الشاهد" (ويفيوركا، ٢٠١٣) ومركزية الشهادة كمصدر، والتي لخصها ياسين الحاج صالح في جملة صادمة "لقد أصبح كل فرد سوري تقريباً شخصاً عاماً" (الحاج صالح، ٢٠١٧، ص ٢). وكما أشارت دراسات أخرى (معين، ٢٠٠٨)، فإن هذا النظام لا يقتصر على الممثلين أو الشهود المباشرين للحرب. وحتى لو كانوا أجانب

ومقيمين خارج البلاد، فإن المؤلفين ليسوا أبداً في موقف غريب ومختلف جذرياً عن الشهود، ممَّن يمثلون مصادرهم. هم وهم يتأثرون ويعذبهم الصراع، وحتى ممارسة الانعكاسية أو تسليط الضوء على أكثر المجالات الاثنوغرافية الممكنة، لا تجعل من الممكن السيطرة عليه بالكامل: تعتزم هذه المقالة العودة إلى هذه العناصر التي تفلت بشكل أساسي من إمكانية "تطبيع" تضاريس الحرب تماماً لمن هم معاصروها، لا سيما في سياق لا يكتب فيه المرء بمفرده، بل وأكثر من ذلك حيث تتحرك أهداف الدراسة (ريفوال، ٢٠١٤).

خذ ببليوغرافيا كشيء

نقطة البداية في هذا العمل هي ببليوغرافيا الحرب في لبنان، وهي جزء من أطروحة دكتوراه حول أشكال بقاء المؤسسات العامة خلال هذه الفترة. وللوهلة الأولى، ظهر التأريخ لفترة الخمسة عشر عاماً (١٩٧٥-١٩٩٠) في عدة أشكال: اعتراف بغياب شبه كامل (لورنس ٢٠١٤)، إلى جانب التحريض على المضي قدماً لأن الحرب أعادت ذكريات لا يمكن التوفيق بينها. أو سياسة الصمت (المرتبطة بقانون عفو ما بعد الحرب) (هوغبول، ٢٠١٠ ب)؛ مؤلفات تاريخية انتقائية وقصيرة إلى حد ما دون معرفة المعايير المستخدمة لإيقافها (هوغبول، ٢٠١٠ أ، بيكار، ٢٠١٢، صليبي، ٢٠٠٢)؛ أو، وهذا هو الشكل الأكثر كشفاً لما يلي، قوائم طويلة تضم مئات المنشورات، بعيداً عن كونها أكاديمية فقط. هذا هو الشكل الأخير الذي حاولنا أن نأخذه على محمل الجد في عمل التأريخ.

ويبدو أن هذه القوائم تتوافق مع واقع يومي على الأرض: أن نواجه، من مكتبة إلى مكتبة، بمجموعات متباينة وضخمة للغاية، لم يجرِ إغلاقها أبداً. ومن خلال إضافة بيان شخصي إضافي إلى القوائم الأولى التي جرى تجميعها بالفعل، تجاوز عددُ المراجع عدة مئات وتم تقسيمها إلى العديد من المنشورات المختلفة (الشهادات والتحليلات والأدب الرمادي littérature grise، والأدب المتشدد.. إلخ). والمنشورات التي ليست مقروءة بالكامل ولا مثيرة للاهتمام بشكل متجانس (بعيدة كل البعد عن ذلك)، ولكن حجمها يعكس عدة جوانب من هذا الصراع: الحاجة الشديدة للتفسير الخاص بكل فترات الأزمة (دوبري، ٢٠٠٩)، إنما بعد ذلك، وبشكل أكثر تحديداً، السياق حيث يرتبط التشدد (حتى المسلَّح) ارتباطاً وثيقاً بالعديد من الانعكاسات الفكرية الصارمة، تماماً مثل حقيقة أن عدد الكتب يعكس مكانة بيروت المركزية في اقتصاد الكتاب على المستوى الإقليمي (ميرمير، ٢٠٠٥). إضافة إلى ذلك، فإن هذا المجلد هو في الواقع جانب مشترك حول الحروب، سواء كانت مدنية أو غير مدنية، والتي يمكن العثور عليها في كل من حالة ١٤-١٨ وآلاف المنشورات (بروست وونتر، ٢٠٠٤)، وفي الحرب. في إسبانيا(غوديشو، ٢٠٠٧)، أو مؤخراً في يوغوسلافيا(راميه، ٢٠٠٥) .

على هذا النحو، تتيح هذه القوائم إمكانية تقدير مجموعة متنوعة من المنشورات حول الحرب الأهلية، سواء كانت أكاديمية أم لا، بل والأكثر من ذلك عدم تقييد دراستها هذه المرة على أساس أكاديمي صارم. من خلال عدد ثابت من التخصصات: على سبيل المثال، بافتراض أن علماء الأنثروبولوجيا، وعلماء الاجتماع، والجغرافيين "٥"، أو علماء السياسة (بمعنى آخر، العلوم الاجتماعية المعاصرة) هم من كتبوا أكثر من غيرهم. وتشكل هذه الببليوغرافيا قاعدة بيانات، وهي وسيلة لمسح جوانب عديدة من الحرب اللبنانية وكتابتها: ترميز الكتب والعمل على شبكة الاقتباسات بين هذه النصوص يعطي فكرة عن تطور هذه الببليوغرافيا وخطوطها. القوة.

العمل على التأريخ من خلال قاعدة بيانات

قاعدة بيانات ٤٨٩ كتاباً ومقالاً هي قائمة بثلاث لغات من المنشورات المكرسة صراحةً للحرب والتي أنتجها معاصرو الصراع (اختيار بسيط، حيث تم إنتاج غالبية المنشورات بين عامي ١٩٧٥ و ٢٠١٠، فقط أو بشكل حصري تقريباً من قبل شهود الصراع). اعتمد النهج جزئياً على قاعدتي بيانات تم إنشاؤهما سابقاً: المسح الذي جرى إجراؤه في عام ١٩٨١ في الجامعة الأمريكية في بيروت، والمسح الذي تم إجراؤه في IFPO أثناء برنامج ANR "ذكريات الحرب mémoires de guerre". سعينا إلى إضافة منشورات أخرى إلى هذه القوائم (خاصة تلك المنشورة في ٢٠١٠ والمزيد من المنشورات الصحفية) وإبراز تلك الأعمال التي تم الاستشهاد بها على مر السنين. في مواجهة عدد المنشورات غير المرئية في Worldcat أو Sudoc (جزئياً بسبب اللغة العربية)، أو المنشورات ذاتية النشر والتي لم تتم الإشارة إليها مطلقاً، حدث إجراء جزء من الاستطلاع يدوياً. ولتجنب المنشور الكتابي البحت، والذي لا يأخذ في الاعتبار على وجه الخصوص ما هو الأكثر اقتباساً والأكثر قراءة، تمت إضافة حوالي مائة مقالة إلى قاعدة البيانات. لم يكن القصد منه أن يكون شاملاً، بل أن يكون أداة لإبراز الملامح العامة لهذا التأريخ والتأمل في حدوده.

وجرى بعد ذلك ترميز الكل بمتغيرات من النوع، المهنة، الانضباط (إن أمكن)، اللغة، الجنسية، سنة ومكان النشر، موضوع (مواضيع) الكتاب، الفترات التي تم تغطيتها، المجال الذي يمكن تحديده في لبنان والاقتباس من قبل مؤلفين آخرين. ثم تم استكمال هذا الاستطلاع بالعمل على شبكة التداخلات بين بعض هذه الكتب. وأخيراً، أجريت عدة مقابلات مع باحثين (٨)، لبنانيين أو أجانب، وصحفيين (١٥)، كتبوا عن الحرب، للتعرف على وجودهم في البلاد، ونوعية العمل الميداني الذي تم القيام به، وأي كتابات غير منشورة.

وليس من المستغرب أن تُظهر مثل هذه الببليوغرافيا أولاً جانباً معروفاً من تأريخ الحروب الأهلية: تنوع التفسيرات، وانفجار الإطارات، و"حروب الذكريات" التي تثيرها، وهو موضوع يدور

حوله العمل الرئيس كتابة الحرب (مورلون وتريبو، ٢٠١٧). ومن ثم فهي أداة لفهم آثار بعض التحركات حول الحرب، وفي بعض الأحيان دراسة زمنية بشكل أكثر دقة، مثل الأدب المؤيد للمسيحية، غالبا ما تكون منغلقة على نفسها عندما نلاحظ شبكة الاقتباسات، والتي تظهر بالأحرى. بعد سنوات قليلة من الصراع (ينظر على سبيل المثال لبكي، ١٩٨٦). كما يُظهر إيقاعاً عاماً للنشر يتميز بتوافق شديد بين الأعمال في فترات قصيرة جداً (الأعوام ١٩٧٦-١٩٧٧، أو تلك الخاصة بفترة ما بعد الحرب مباشرة)، ولكنه يُظهر أيضاً فجوات في ما تمت دراسته (فترة ما بعد ١٩٨٢ بأكملها). على سبيل المثال، أو الموضوعات التي تمت مناقشتها على نطاق واسع مقارنة بالآخرين.

ومع ذلك، فإن التحدي هنا لا يكمن في تفصيل نتائج قاعدة البيانات هذه "٦"، إنما في معالجة ثلاثة عناصر تعكس ببليوغرافيا الحرب الأهلية الناشئة في سوريا: أولاً، التشكيك في الندرة المتناقضة لبعض الموضوعات في الحالة اللبنانية، ولكن أيضاً على النقيض من حقيقة أن أشياء أخرى جرى العمل عليها إلى حد كبير، وهي أقل من ذلك اليوم في سوريا، وأخيراً تظهِر أن هذين الأدبين يميلان إلى الالتقاء، حول نوع معين من الأدب وسلسلة من الصعوبات الشائعة.

أرض مخفية

بالنسبة لشخص على دراية بالأدب الحديث عن الحروب الأهلية، فإن أول شيء واضح في هذا التقييم التاريخي يمكن أن يكون ببساطة غياباً (وبالتالي خيبة أمل): دراسات يمكن أن تقترب من الإثنوغرافيا للحروب الأهلية التي ظهرت منذ العقد الأول من القرن الحادي والعشرين. (بازينغويسا –غانكا ومكّي، ٢٠١٢، وهويه، ٢٠١٥)، وقمنا بتعديل دراسة هذه الأشياء بشكل كبير. هناك، على سبيل المثال، عدد قليل جداً من الأعمال المكرسة للمقاتلين (راجع على سبيل المثال في هذه الأدبيات (ديبو، ٢٠١٣، هوفمان، ٢٠١١، فاينشتاين، ٢٠٠٧)، ولكن ليس بدون مفارقة معينة: بينما من المستحيل الآن القيام بذلك في سوريا، في الحالة اللبنانية، تم مسح هذا النوع من التضاريس قبل فترة طويلة من كونها شرعية وعلى جدول أعمال البحث، ولكن دون ادعاء، وحتى بالنسبة لبعض المؤلفين من خلال تجنب تشكيل هذه التجربة (أحياناً يعيدها نقادها إلى الجنون الشخصي) (خزام، ٢٠١٦) إلى كائن علمي. إنها مفارقة متقاطعة بين لبنان وسوريا: الكثير من الكتب المكتوبة بطريقة مجردة إلى حد ما وذات رؤية شاملة عن لبنان تتغذى في الواقع من تجربة مباشرة وطويلة للحرب، وهي تجربة لم تُذكر قط، في حين أن الحالة السورية تم نسجها من أدبيات الشهادات والتجارب المباشرة، على الرغم من إغلاق المجال، أو إن لم يكن قصره وصعوباته.

وكان لبنان ساحة معركة تم مسحها من قبل باحثين في العلوم الاجتماعية: إذا عرفنا شخصية مثل ميشيل سورات، التي يمثل نهجها بدقة نقطة تحول أولى نحو حقيقة الاقتراب من الأشياء التي تعتبر خطيرة للغاية حتى ذلك الحين، يجب التأكيد على أنها كذلك لا الشخص الذي اقترب من المعارك والمقاتلين أكثر من غيره، وحتى أقل من ذلك الشخص الوحيد الذي فعل ذلك. وهكذا شارك المؤرخ جان بيير ثيك الحياة اليومية للمقاتلين والجبهة "٧". ميشيل سورات، من ناحية أخرى، هو الوحيد الذي فعل ذلك علانية، والذي كان جديداً في ذلك الوقت "٨". بل أكثر من ذلك، لبنان حالة خاصة لحرب أهلية مصاحبة لصعود جيل من الباحثين المحليين (فافيير، ١٩٩٧) الذين استفادوا بعد ذلك من افتتاح الجامعات وتطويرها في البلاد. نتيجة لذلك، شارك العديد من الباحثين اللبنانيين في القتال أو عانوا من القتال، كمسلحين أو مواطنين، دون أن يكتبوا في الغالب عن هذه التجربة بشكل مباشر "٩". هذا، بدوره، يعرض عملاً لفهم بعض الأعمال فيما يتعلق بتجربة مؤلفها، خاصة عندما يكون هذا العمل مكتوباً بطريقة نظرية (مع لغة ماركسية على وجه الخصوص بين الاقتصاد والتاريخ)، أو يتعلق بـ مثال لكل الأشياء بخلاف الحرب (مثل مؤرخي العهد العثماني الذين درسهم كانديس ريمون) (ريمون، ٢٠١٣).

إذا كتب البعض عن الحرب، ولكن دون التحدث مباشرة عن تجربتهم الشخصية وموقفهم (لا يزال النهج النظري والسيرة الذاتية لمؤرخ مثل فواز طرابلسي نادراً جداً) (طرابلسي، ١٩٩٣)، والبعض الآخر، ومعظمهم ببساطة لم يفعل ذلك. وحالة علماء الأنثروبولوجيا في لبنان - الذين توقع المرء منهم تحولاً مشابهاً للتحول الذي واجهه زملاؤهم الآخرون (في إفريقيا وأمريكا الجنوبية) مع أول "أعمال ميدانية تحت النيران" (نوردستروم وروبن، ١٩٩٥) - مثيرة للاهتمام بشكل خاص حول هذه النقطة ، كما تشير إيزابيل ريفوال: بعيداً عن أن يكونوا في طليعة الكتابات عن الحرب، يرى علماء الأنثروبولوجيا أن كتاباتهم "معلقة" (ريفوال ٢٠١٤)، والتي تميزت برفض الكتابة أو حتى تأجيل النشر (بيانات ما قبل الحرب بعد انتهائها، أو عناصر في الحرب بعد انتهائها بوقت طويل). يواصل الآخرون ببساطة العمل على ما لم يتأثر بالحرب ويتعلق بأشياء أنثروبولوجيا أكثر كلاسيكية (كنفاني- زهار، ١٩٩٩).

هذه "التضاريس" (المصطلح سابقاً لم يستخدم بعد في حالة لبنان) المتضمنة في الحرب الأهلية اللبنانية تثير تساؤلات حول حدود "التضاريس الصعبة": كونها محصورة في قلب نزاع، بعيداً عن تشكيل الأرض غير العادية والصعبة التي يتوقعها المرء، هي أيضاً أرضية معطلة محتملة حيث تكون قيمة العمل العلمي نفسها موضع تساؤل. كما يشير سمير خلف في الحالة اللبنانية، "عندما يُحتمل أن تكون جميع القيم التي تحمِلها [...] مهدَّدة، من الصعب الحفاظ على رباطة جأشك، ناهيك عن الطابع النزيه وقيم الحياد التي يتطلبها انضباطك. أكاديمي" (خلف، ٢٠١٧، تمهيد). والملاحظة مشابهة لسوريا: "لا يوجد مكان محايد للوقوف فيه، وأي احتمالية للمسافة النقدية أصبحت نادرة.

والرهانات هائلة: الاختلافات في المنظور هي مسائل حياة وموت الآن" (سالاماندرا، ٢٠١٤). وفي هذا الصدد، يمكن للمرء أن يتساءل عما إذا كانت الحالة اللبنانية لا تمس حدود "الاثنوغرافيا" للنزاعات، والتي، لتشكيلها كموضوع، تستفيد من كونها، وغالباً ما تكون في الواقع، مجالات ليست اثنوغرافيا بشكل صارم. ويتحدث ويتطلب مسافة، كما يتضح من عدد من الأعمال عن سوريا اليوم. وبالتالي فهي تتميز بمجالات قصيرة، متشابكة مع ذهاب وإياب، وتعمل على هامش الصراع (مع اللاجئين في البلدان المجاورة على سبيل المثال في حالة سوريا، أو المسافة المادية عبر استخدام الإنترنت أو الهاتف (في نزاع آخر)، براجع بوجو، ٢٠١٦). إن الأسف المحتمل لعدم القدرة على القيام بعمل ميداني في سوريا يستحق التساؤل في هذا الصدد، حيث تُظهر الحالة اللبنانية أن مثل هذا العمل الميداني، لا سيما عندما يتم نشره على مدى فترة طويلة من الزمن (يراجع الجزء الثاني) يمكن أن يصبح أيضاً أرض صامتة ومستحيلة.

الحرب خارج الشاشة

ومع ذلك، فإن التركيز على هذا الغياب سيكون قراءة متحيّزة، مما قد يؤدي إلى نسيان كتابات أخرى. ولأن جانباً بنيوياً آخر للتأريخ اللبناني هو تكاثر الدراسات، التي لا يُستشهد بها عموماً، على الشاشة أو خارج الشاشة للحرب، سواء كان هذا هو ما لا يتعلق بالقتال، ولكن أيضاً ما تم لعبه قبل اندلاع الأعمال العدائية. مع اتجاه يعكس ثلاث ظواهر: أولاً، الشلل الذي ذكرناه سابقاً، وتردد الوقت في الاقتراب كثيراً من المعارك والمقاتلين، الذين نبتعد عنهم. إن فضاء العلم هو بالأحرى مجال دراسة الأسباب طويلة المدى من خلال أخذ البيانات الخاصة بالفرد أو الأدب (هاريك، ١٩٨٢، أوين، ١٩٧٦)، ومن خلال العمل بطريقة مميزة في الصحف أو المنشورات (انعكاس للفرنسية بالإضافة إلى الباحثين الأنجلو ساكسونيين في مجال الإرساء اللغوي، على سبيل المثال، بالنسبة للفرنسيين، تم إجراء تدريب باللغة العربية غالباً في دمشق). ثانياً، هناك تقسيم للعمل - أقل صرامة في سوريا"١٠"- وترك تغطية المقاتلين لمهنة أخرى، وهي الصحافيون"١١". ثالثاً وأخيراً، إنه انعكاس لديناميكيات صراع منسوج من مناطق نادراً ما يتم لمسها أو يتم لمسها قليلاً، حيث تظهر فضاءات الاستقرار: وهي ظاهرة تجعل هؤلاء الأعضاء من الطبقة المتوسطة العليا اللبنانية التي صورتها جينيفر فوكس يقولون، "إنها ليست الحرب، إنها طريقة حياة ce n'est pas une guerre c'est un mode de vie" (فوكس، ١٩٩١).

ويمكننا أن نبتسم اليوم على الأسبقية المعطاة لدراسة أسباب الحرب، ونعتبرها قديمة (دوبري، ٢٠٠٩)، فقط إذا لم نجدها أيضاً في سوريا"١٢"، ويبدو أنها أقل اختياراً. فالمجال أو النظرية من تأثير أمر قضائي للنشر السريع في الأيام الأولى للصراع، الأمر الذي فرض شكلاً محدَّداً من أشكال

النشر، ألا وهو التدقيق اللغوي (للبيانات والمصنفات) (لورنس، ٢٠١٤). إنما قبل كل شيء، فإن أحد الجوانب الأكثر إثارة للدهشة في هذه المنشورات هو تنوع المقالات حول جوانب أخرى من الحرب، والتي قد نصنفها أحياناً بسرعة كبيرة في شذوذها أو تفاصيلها أو كنوادر للسرد المضاد. وهكذا نجد، لنأخذ بعض الأمثلة، في هذا التأريخ سلسلة من المقالات حول الخدمات الحضرية أثناء الحرب، أو صعود مدينة هامشية، أو دراسة الظواهر الاجتماعية الصغيرة (عواده، ١٩٨٥، بيضون، ١٩٩٣، إ. لونغينيس، ١٩٨٦)، الجوانب التي يمكن العثور عليها أيضاً في بعض كتب الصحفيين (باجيه، ١٩٨٥؛ سارنر، ١٩٨٥). نوع من المقاربات التي تساعد قاعدة البيانات تحديداً في إبرازها ككل، والتي يكون وجودها قبل كل شيء انعكاساً لانتظام معين للمجتمع في الحياة اليومية للحرب (مما يجعل من الممكن علماً أكثر اعتيادية).

وهذه بدورها كلها أشياء لا يتم تناولها كثيراً في الحالة السورية، ويمكننا عمل سلسلة من الفرضيات في هذا الصدد. وسواء من خلال الخطوط العريضة المختلفة لهذا الصراع مقارنة بلبنان، يبدو أن الخطاب الذي يؤكد الطبيعة الهمجية للغاية لهذا الصراع، يشير إلى أن خارج نطاق الحرب أقل، وأقل وضوحاً محدداً في الزمان والمكان (سوى أن الفرضية ليست كذلك. واضح جداً، بقدر ما أظهرت العديد من الأعمال وجوده بالفعل) (خضور، ٢٠١٤). أو، وسنعود إلى هذا، حقيقة أن هذه الأشياء التي تظهر على الشاشة ليست أشياء يمكن للمرء أن يفهمها بسهولة من خلال كونه معاصراً للصراع (وهو ما يفسر ظهور هذه المنشورات في لبنان بعد ١٠ سنوات من الصراع). أو، أخيراً، تأثير الزاوية المميتة angle mort في النموذج الجديد لدراسة الحرب الأهلية، والتي، من خلال وضع مسألة العنف، المقاتلين ومنظماتهم في المركز، غالباً ما تتجاهل الديناميكيات الأخرى التي تُنسج الحروب بسببها. ومع ذلك، فإنها تجذب المزيد والمزيد من الاهتمام وتظهر تحولاً كبيراً في أهداف الدراسة في دراسات الحروب الأهلية (بي ٢٠١٣، بيلّيغ ولينهارد، ٢٠١٣).

ومن الناحية النظرية، يُظهر هذا الجزء غير المعروف من الببليوغرافيا عن لبنان ظاهرة الحرب من منظور آخر، حيث لا يبدو فقط أنها مندمجة في مجموعة من الأشياء ذات الامتيازات (الجبهة، العنف، الفاعلون المسلحون، الفاعلون السياسيون، الضحايا، وما إلى ذلك)، أو يمكن اختزالها إلى مجموعة من الديناميكيات الاجتماعية التي من شأنها أن تكون خاصة بالحرب (استقطاب الصديق والعدو، والارتقاء إلى التطرف، والجشع والشكوى، وما إلى ذلك)، على الرغم من أن هذه هي العناصر التي تضرب المعاصرين، وهي منتشرة في كل مكان في الخطب التي تم جمعها. إن هذا الجزء من البحث حول لبنان هو بالتالي أقرب إلى خطوة مفيدة جانباً تجعل من الممكن التعامل بشكل أفضل مع الحرب كظاهرة اجتماعية، ليس كسلسلة من كائنات البحث المحددة (في الواقع أكثر مما يمكن أن يكون السلام)، ولكن السياق الذي يتم فيه نشر البحث، حقيقة اجتماعية كاملة والتي بحكم تعريفها تفسح المجال لإدخالات متعددة.

وإلى هذا التظاهر النظري البحت الأول، يجب أن نضيف عرضاً ثانياً أكثر عملية: دراسة الحرب هي بالتحديد الاعتماد في معظم الوقت على هذه الأشياء خارج الشاشات (إلى درجة جعل البعض نفسه موضوعاً للدراسة في لبنان). وفي الواقع، نادراً ما تكون الاثنوغرافيا للحرب ملاحظة (حتى أقل مشاركاً) للقتال"١٣". وفي سوريا كما في لبنان، يعتمد العمل على الحرب في الغالب على واقع اجتماعي مكوّن لها، فضاءات وأزمنة فترة ما بين الحربين (ديبوس، ٢٠١٣)، أي الجزء الخلفي من القتال، الأنظمة السياسية والاجتماعية التي وضعتها الميليشيات، فترات الهدنة، الشبكات خارج البلاد (والآن على شبكة الإنترنت)، حيث الخطاب حول ما يحدث في "قلب" الحرب. على عكس ما كرّره الأدب في التسعينيات، فإن تفكك حدود الحرب، بين الجبهة والمؤخرة على وجه الخصوص، في حرب أهلية ليس مطلقاً (مارشال وميسيانت، ٢٠٠٦)، وهو بالتحديد من أجل لهذا السبب من الممكن عمليا دراستها.

حيث تجعلنا حالة لبنان نأسف لعدم كتابة المزيد عن المقاتلين والقتال، فإن التأريخ الناشئ عن سوريا يشير إلى احتمال ظهور مأزق معاكس (على سبيل الاستثناء، يراجع لونغينيس وكارّاسكال، ٢٠١٦) وهو نسيان كل شيء، هذا ليس القلب الواضح للحرب، والذي لا يثير اهتمام الكثير من خارج الباحثين، باستثناء عدد قليل من الصحف غير البديهية في الصحف. لذلك من الضروري توضيح جانبين في دراسة الحروب الأهلية: أولاً، تبديد ضجيج الخطابات حول تجربة العنف، وبالتالي عدم ترك دراسة أشياء معينة للمهن (الصحفيون، المنظمات غير الحكومية، المعلومات ...إلخ). لاسترجاعها لاحقاً (إما بعد النشر للصحفيين، أو في الأرشيفات المستقبلية لمؤرخي المستقبل). بالنسبة لهذه الأشياء نفسها، يتعلق الأمر بتبني طريقة علمية أخرى أكثر صرامة، ولكن أيضاً الاستفادة من لحظة معينة من تكثيف الاجتماعي، حيث تؤدي الظروف على سبيل المثال إلى تحرير مكثف للكلام، كما في الحالة التي أبلغ عنها فنسنت روماني Vincent Romani في فلسطين، حيث تصبح المقابلة أكثر حميمية مع الاقتراب المفاجئ من الاشتباكات (روماني، ٢٠٠٧). إنما ثانياً، يكمن التحدي أيضاً في التعامل بجدّية مع ما هو غير مذهل في الحرب. هذه الجوانب لا تهم العديد من الممثلين في ذلك الوقت، كما أنها لم تتم مناقشة الجوانب بشكل عفوي في الشهادات، وغالباً ما تكون محصورة في مرحلة الحكاية. إذا كان الحديث فقط عن هذه الشاشات الخارجة عن الشاشات يمثل مخاطرة كبيرة، ليس من دون تذكر ما كان يمكن أن يحدث في تأريخ ١٤-١٨ والذي ترك لبعض الوقت دراسة القتال (كازالس، ٢٠٠٢) أو قبل كل شيء تحوَّل إلى بذاءة، متناسياً من ناحية أخرى، فإنهم يمثلون تنازلاً كبيراً جداً عن بعض الاستشراق المهووس (أنا أستلف هنا مصطلحاً استخدمه كريستيان كولون، ١٩٩٧) والذي ينتظر دراسات حول المنطقة.

مجال ضعيف؟

بالنظر مرة أخرى إلى قاعدة البيانات الببليوغرافية هذه، وقبل كل شيء من خلال دراسة تلك الأعمال التي يتم الاستشهاد بها بشكل متكرر والأكثر بروزاً، ومع ذلك نرى عنصراً ثالثاً ينشأ: نقطة وسط للأعمال الأكثر الاستشهاد بها. والتي تثير أيضاً في الوقت نفسه مسألة حدود القاعدة. ففي الواقع، هذه الأعمال لها طابع هجين إلى حد كبير، بعيداً عن كونه عملاً للباحثين فقط، وبعيداً عن نهج يعتمد على هذا المجال أو ذاك (أو حتى المجال فقط) أو تخصص معين. علاوة على ذلك، تبين أن هذه الأعمال تتشابك مع الأسئلة وشكل من أشكال الجدل المشترك، والتي سنسعى لتحديد بعض التوبو هنا. يبدو أن كل هذه العناصر تشير إلى وجود سبب وشرط مشترك بين مجموعة من الفاعلين، وانطلاقاً من "حقل ضعيف" في دراسة الحرب الأهلية، والذي يبدو أنه متشابه تماماً بين لبنان وسوريا. ملاحظة تتطلب تحويل السؤال ليس فقط إلى النماذج والميدان، ولكن إلى حالة معينة، تتعلق بالزمانية المشتركة مع موضوع الدراسة (ريفوال ٢٠١٤)، حيث ينخرط أولئك الذين يكتبون.

ومن المفارقات أن تنشأ مسألة الحدود بين العلوم الاجتماعية وأنواع الأدب الأخرى في صميم قاعدة البيانات. لأن الأدبيات العلمية يتم نشرها من قبل الناشرين لعامة الناس، وتمزج العمل الصحفي مع البحث (دالّي وغلاسمان، ٢٠١٦)، والأدب، وتنقسم بين المنشورات العلمية وما يمكن وصفه بـ "المنشقين": الأدب الرمادي المتشدد و / أو داخل المنظمات الدولية، المواقف المتخذة أو التدخلات في الصحف ...إلخ "١٤". ويحتمل أن تكون جميعها بعدة لغات وعلى العديد من الوسائط (مكتوبة، فيديو، رقمية الآن ... إلخ). علاوة على ذلك، يصعب تصنيف العديد من الأعمال، أو تتجاوز المعايير الأكاديمية (بينما في الوقت نفسه يحتكر بعض الصحفيين أحيانًا شكلاً أكاديميًا نموذجياً) "١٥". وفي الحالة السورية، يمكن للمرء أن يفكر بشكل خاص في عمل (بيرلمان، ٢٠١٧) الذي يجمع ٨٧ شهادة خام دون تعليق، مع عرض موجز لهوية كل من الشهود (الاسم، المهنة، المدينة الأصلية، ضمنياً الجنس)"١٦". وقد أكد المحرر العلاقة مع الكتب الأخرى ذات الشهادات الأدبية البحتة (تلك الخاصة بالحائزة على جائزة نوبل سفيتلانا أليكسييفتش)، مما أدى إلى تراجع الحجة العلمية لصالح التأثير الحقيقي للشهادات، والتي يتم تقليلها أحياناً إلى بضعة سطور قوية. يمكن الإبلاغ عن العديد من الرسوم التوضيحية الأخرى لهذه "المنهجينة" والافتراضات من عالم إلى آخر، أو سلسلة من شهادات الفيديو (دوناتي، ٢٠١٤)، أو "سرد" أدبي لشخصية متشددة مثل رزان زيتونة (أوجييه، ٢٠١٧). وهي تردد صدى إنتاجات مماثلة من الجانب اللبناني، حيث نجد، على سبيل المثال، كتب "روائية" "١٧" كتبها أثناء الحرب اللبنانية (قرم، ١٩٩٢ أ؛ إغناطيوس،

١٩٨٧؛ لارتيغي، ١٩٨٧) لصحفيين أو باحثين، أحياناً تحت أسماء مستعارة. بينما تُنسب بعض الأعمال الطموحة إلى الصحفيين أو لأشكال أخرى، مثل العديد من الأفلام الوثائقية في حالة لبنان (العيساوي، ٢٠٠٢؛ البغدادي، ٢٠١٣؛ فوكس، ١٩٩١؛ صعب، ١٩٧٦).

ويجب أن نضيف إلى هذا العناصر العديدة التي لدينا في أماكن أخرى حول تقاطع الممارسات في العديد من حالات الحرب الأهلية: يعتمد الباحثون على مؤسسات مثل المنظمات غير الحكومية للوصول إلى الميدان (لو بابي سيميان وفيدال، ٢٠٠٧، فيلّينوف، ٢٠١٨)، الذين ينتحلون شخصية (وود، ٢٠٠٦) أو يتم الخلط بينهم وبين المهن الأخرى (أخصائي اجتماعي، دبلوماسي، جاسوس ... إلخ). (كرونين فورمان ولايك، ٢٠١٨؛ مازورانا، جاكوبسن وجيل، ٢٠١٣)، المنافسة والتواجد المشترك على نفس الشيء الأرض، مما يؤدي بشكل خاص إلى حالات البحث الزائد) (باسكوتشي، ٢٠١٧، سكريه وتنوّك، ٢٠١٣) ، أو حتى الاعتماد على الممثلين أنفسهم (الوسطاء على سبيل المثال).

في الواقع، يتم خلط العمل البحثي بعمل الخبراء والصحفيين والناشرين والمترجمين والناشطين والعاملين في المجال الإنساني والفنانين والدبلوماسيين (إلخ)، أي إن كلا من البيانات والمقالات تستخدم كمواد إجمالية، سواء كانوا مطلوب منهم العمل معاً"١٨" أو ما إذا كان هناك تداول من مهنة إلى أخرى"١٩". لقد سلطت الأدبيات المنهجية حول النزاعات والتضاريس المتطرفة الضوء على هذه الظاهرة إلى حد كبير، ولكن يبدو أن كل عمل قبل كل شيء يقوم بتحليل بعض المسامية الخاصة بتضاريس معينة، أو أكثر وضوحاً من غيرها، على سبيل المثال مع عالم المنظمات غير الحكومية (لو بابي وآخرون، ٢٠٠٧)، أو التشدد، أو المنظمات الدولية (صيفاي وأميروكس، ٢٠٠٢) **(بينما يؤكد الأدب الأنجلو ساكسوني من جانبه على المزيد من الرو ابط العديدة مع** الصحافة (مازورانا وآخرون، ٢٠١٣). وبالطبع تختلف هذه المسامية باختلاف جنسية المؤلفين أو الحالة أو الفترة المدروسة، ولكن لكل ذلك نكتسب من خلال التفكير بها في سلسلة كما يبدو أنها موجودة - من خلال عبور الأدبيات إلى الوراء من سوريا إلى لبنان، وتمر بالصراعات الأفريقية في التسعينيات، أو حالة يوغوسلافيا السابقة - باستمرار.

وما تُظهره هذه الأنواع من الأنواع الهجينة ضمنياً (سيميان- غيرمانوس، ٢٠٠٢)، والذي يوجد أيضاً على سبيل المثال في الحالة الجزائرية (ليبيرليه، ٢٠١٦)، هو إلى أي مدى نادراً ما يكون العمل العلمي، حتى لا يكون من المستحيل القول، "نقي"، في حالة الحرب الأهلية هذه. يعتمد على أعمال مهن أخرى سواء أحببناها وسواء عرضناها أم لا: في كتابه عن الحرب اللبنانية سمير قصير بينما انتقد كتاب الصحفي جون راندال (راندال ١٩٨٤) لكنه استخدمه لاحقاً. في عدة فقرات (قصير، ١٩٩٤ أ). بل أكثر من ذلك، يقدم كتابه على أنه محاولة للكتابة ضد رؤية معينة للحرب، على وجه التحديد غير أكاديمية "٢٠". بعبارة أخرى، ما إذا كانت العلاقات طوعية أم نزاع أم معروضة أم لا "٢١"، هي مجرد مسألة شكل هذه العلاقات، والتي لم يتم اختيارها بأي حال: لدراسة حرب أهلية

يجب أن تواجه هذا الفضاء المشبع. مع المترجمين والخطابات التي ليست علمية فقط، ولا يمكن أن يعتمد التأريخ في الواقع على إنتاجات معينة على المعيار الوحيد للتسمية المؤسسية "علمي". إلى حالة الحرب ذاتها وصعوبة الميدان التي نوقشت على نطاق واسع في الأدبيات، تمت إضافة هذه الديناميكية الاجتماعية الأخرى، تماماً مثل الهيكلة، والتي لا تؤثر فقط على المجال، ولكن لاحقاً بشكل خاص على الكتابة.

وفي النهاية، يكون مكان أولئك الذين يبلغون عن الصراع محدداً، وغالباً ما يكون على حافة العديد من المساحات الاجتماعية. وبالتالي يصعب فهم الإنتاج دون الأخذ في الاعتبار الاضطرابات الداخلية التي يسببها الصراع في العمل العلمي (على مستوى النظريات والتخصصات والأشياء ومن ثم التسلسل الهرمي بين الباحثين، الذين يتذبذبون بشكل أو بآخر)، وهي الجوانب التي نحن نغادر هنا طواعية، وإنما قبل كل شيء، وبالتوازي، مع تقاطع المنطق العلمي مع أجندات المجالات الأخرى والأكوان الاجتماعية. وهذه ليست وطنية فقط. وهكذا، وبطريقة نموذجية مثالية، يمكننا وضع الفرضية القائلة بأنها تتكون، على مفترق طرق المجال العلمي اللبناني (أو السوري)، في المجالات العلمية لبلدان أخرى (فرنسا، الولايات المتحدة، المملكة المتحدة... إلخ). ولكن أيضاً المجالات والخبرات الصحفية والأدبية والفنية المحتملة، وهي منطقة "مجال ضعيف"، تتمحور حول دراسة الحرب الأهلية وتهتم عموماً بإنهائها. بعيداً عن التطابق مع مجال علمي محدد، على المستوى الوطني، تبدو دراسة الحرب الأهلية في هذا الفضاء مختلطة بشكل أساسي، على مفترق طرق المنطق المختلفة. يبدو هذا الوصف للمجال الضعيف مناسباً بشكل خاص لوصف هذا النوع من الفضاء الاجتماعي الدولي (إيال، ٢٠١٣)، بقدر ما يردد صدى ملاحظات عالم اجتماعي "مقسم" في الأزمات السياسية (دوبريه، ٢٠٠٩)، وأخيراً إلى تحليل أداء المجالات الجامعية في المنطقة، بمنطق مريح للغاية (روماني، ٢٠٠٨). وهذا المجال الضعيف هو مساحة من الفهم المشترك ومنطقة توتر بين العديد من المنطق، ويمكننا أن نجد عدة تجسيدات له: المناقشات وطرق تفسير الصراع الذي يبدو متشابهاً (والذي سيركز عليه هذا المقال)، أرضية مشتركة، مهن مختلطة (باحثون أو نشطاء يصبحون خبراء، صحفيون، والعكس صحيح)، مساحات أو مؤسسات تضفي الطابع الرسمي على وجودها (مراكز بحثية، مؤتمرات، ندوات، إلخ). دون الرغبة في تقديم تحليل تاريخي "٢٢"، أو تقويم الإحداثيات داخل هذا الفضاء لكل مؤلف عمل عن الحرب الأهلية - فإن التحليل من حيث المهن المتقاطعة للباحثين في لبنان وسوريا بعيد المنال لمقال بسيط - وجودها هو فرضية مفيدة لتوضيح شكل المنشورات في مثل هذا السياق بشكل أفضل، والقيود التي تؤثر عليها.

موضوع الحرب الأهلية

يستحث هذا الحقل الضعيف نوعاً معيناً من الخطاب، حيث تتقاطع سلسلة من أشكال السرد العلوي للحرب. حتى لو لم تكن موجودة بالضرورة في جميع الكتب التي تمت مناقشتها هنا، ويبدو أن بعض الكتب على العكس من ذلك، هي شبه أشكال للمقاومة العلمية لهذه اللغة "٢٣"، يُظهر التكرار الطويل لهاتين التأريختين أنهما متكررتان وغالباً ما تكونان مجتمعتين. وبالقدر نفسه في لبنان وسوريا، وبالتالي يبدو أنها "تلك الأشكال" تشير إلى قضايا أخرى غير مسألة التضاريس أو النماذج (وبالتالي الاختلافات بين هذه الصراعات).

استحالة تحديد هدف الحرب

النقطة الأولى، التي سبق ذكرها، هي الميل إلى جعل تحليل الحرب على أنه تحليل لنوع معين من الديناميكيات والممثلين، الأكثر إثارة: من ناحية الرجال في السلاح، وفي كثير من الأحيان القادة أكثر من الرجال في الجبهة وحتى أقل المستويات بين الاثنين (نصر، ١٩٩٠)، من ناحية أخرى، الضحايا، غالباً مع استقطاب قوي جداً، وترك جانباً العمل على الهيئات الوسيطة، وقبل كل شيء ظواهر التداول بين هذه الفئات (المدنيون الذين يقومون على مساعدة الجنود والجنود الذين يصبحون مدنيين، وما إلى ذلك). في لبنان، على مدار خمسة عشر عاماً من الصراع، نشهد بالتالي استبدالاً كاملاً لموضوعات الدراسة (بالإضافة إلى النماذج "٢٤": على سبيل المثال في العلوم السياسية وعلم الاجتماع، لا يكاد يكون هناك أي سؤال حول العمل على النقابات أو العمال أو النخب الاقتصادية أو المؤسسات الكلاسيكية للحكومة، ولكن على الميليشيات والعنف والطائفية وقريباً الإرهاب. وتختفي بين عشية وضحاها (أبي حبيب، ١٩٩٦)، وأن إعادة تشكيل المجتمع حول هويات جديدة، إذا كان ذلك حقيقياً، هو ليس مطلقاً أيضاً: لا يصبح الجميع فجأة حاملاً بسيطاً لعلامة طائفية في لبنان منذ عام ١٩٧٥ بالتوقف عن كونه مهندساً أو أستاذاً أو عاملاً، ينحدر من هذه المنطقة أو تلك، ويمتلك رأس المال والمهارات هذا أو ذاك، إلخ. حيث أن الميليشيات أو المؤسسات الخاصة التي تظهر لا تعود لا تحل محل مؤسسات الدولة التي كانت موجودة مسبقاً في مجملها (فرنسا، ٢٠١٩؛ ستانيلان، ٢٠١٢).

ويضاف إلى هذه الصعوبة الأولى تأطير آخر، في شكل إغراء دراسة الحرب في شبه كليتها. وهكذا يتم تقديم العديد من الكتب على مفترق طرق التاريخ، والاقتصاد، وعلم الاجتماع (إلخ)، بمهنة تكاد تكون شاملة. انعكاس نظام التاريخية (هارتوغ، ٢٠١٥) في أزمة حيث يختلط الماضي والحاضر والمستقبل بشكل خاص، ويرجع ذلك جزئياً إلى أن الفاعلين السياسيين يستحضرون ويعبئون

التاريخ أو الأنثروبولوجيا على سبيل المثال، ولكن أيضاً (في داخل المجال العلمي) بسبب عدم وجود تخصص تُترك جانباً، بما في ذلك تلك التي تركز على دراسة الماضي. هؤلاء يرون الأهمية المادية لمصادرهم متأثرة بالصراعات، مثل المؤرخين للأرشيف أو حتى علماء الآثار في مواقعهم (غوينو، ٢٠١٥). إنه أيضاً انعكاس لطبيعة الحقيقة الاجتماعية الكلية للحرب التي سبق ذكرها، وهي موضوع لا يتوقف فعلياً عند أي نظام، وليس له نهاية تقريباً. وأخيراً، وبطريقة أكثر عملية، يكون تأثير الكتابة المصاحبة بدلاً من الكتابة التراكمية، كما يتضح من تواريخ النشر القريبة للغاية: يجب ملاحظة في هذا الصدد الجدل الصغير بين الأعمال التي علاوة على ذلك لها شكل كتابي مميز بشكل خاص.

خطاب شبه قضائي

الجانب الثاني هو الميل إلى تبنّي خطاب يُصبح فيه معاصرو النزاع "شهوداً" بالمعنى شبه القضائي. لا يخفي جزء من الأدبيات على الإطلاق هذا الطموح لتوثيق الصراع من هذا المنظور (لو كيسني، ٢٠١٥؛ ياسين كساب والشامي، ٢٠١٦)، الذي يعبُر أحياناً عمل المهنيين في هذا القطاع (وهو ما يعيدنا إلى الآخرين. مناقشات حول التعبئة المتزايدة للباحثين في قاعات المحاكم) (أتلاني- دوالت ودوفواكس، ٢٠١٤). علاوة على ذلك، فإن هذا الخطاب الفردي، المهتم بالبحث عن صانعي القرار، ينتشر بشكل أكبر لأنه أيضاً عبارة عن تحليلات من حيث "الاختيار العقلاني"، وهو نوع من النهج المعمم في التفكير الاستراتيجي، وشكل من الخطاب اليومي بالنسبة لـ الفاعلين في الصراع أنفسهم (راجع على سبيل المثال الشكل، بين التبرير والعروض الإستراتيجية، التي تأخذها الشهادات في الفيلم الوثائقي حرب لبنان) (العيساوي، ٢٠٠٢). سواء في الحالة اللبنانية أو السورية، هناك عدة أحداث تبلور هذا النوع من الاستجواب: عين الرمانة، الدامور (١٩٧٥)، أو جسر الشغور (٢٠١١) والغوطة (٢٠١٣)، هي بالتالي موضع امتياز لهذه الخلافات. كل جانب. والأمر برمته يشبه إلى حد كبير النقاشات الكلاسيكية حول المسؤوليات في تأريخ الهولوكوست"٢٥". ومع ذلك، فإن مثل هذا النهج له تأثير في جعل الناس ينسون الأبعاد غير المنضبطة للصراع، وجعل الأدب بياناً للمواقف المتقاطعة والبحث عن المسؤوليات التي تكون أحياناً غير مجدية.

لأن تأريخ المحرقة يظهرها بدقة (برايار، ٢٠٠٩): هذا البحث عن المسئوليات يأتي ضد عمليات منسوجة من أشياء أخرى غير القرارات الواضحة والشخصية. بادئ ذي بدء، فإن لعبة الأفعال - ردود الفعل - التوقعات هي أكثر تعقيداً نظراً لأن عدد الفاعلين المتورطين كبير جداً في هذين الصراعين. ومن المحتمل أن تكون هذه الاشتباكات بين المعسكرين بالإضافة إلى الاشتباكات الداخلية (في لبنان هذا هو الحال بشكل خاص منذ بداية القتال في عام ١٩٧٥، حيث تم تحديد

الفصائل الفلسطينية المعارضة ولها أجندات مختلفة تماماً من قبل الميليشيات المسيحية على أنها الجبهة المشتركة) (شيخ، ١٩٩٧). كما تتضمن أيضاً قنوات متعددة للاتصال والمفاوضات التي تحيد وتتقاطع مع بعضها بعضاً، مما يوفر الكثير من المعلومات المتناقضة لصنع القرار. علاوة على ذلك، نادراً ما يتم اختزال القرارات في هيكل اجتماعي وإلى الأداء الفعال للتسلسل القيادي: بعض القرارات، عندما تكون موجودة، يكون لها تداعيات سيئة في سلسلة أوامر جنينية في كثير من الأحيان، مع وجود عدد كبير من القادة المتنافسين. ومما يزيد الأمر صعوبة عندما يتعين على الأخيرة أن تؤيد جزئياً، في المقابل، المبادرات المحلية (التي تستند أحياناً إلى إرهاق الجنود الذين لا يفعلون شيئاً، كما روى أحد رجال الميليشيات اللبنانية الذي انتهك أحياناً وقف إطلاق النار كلعبة) (بازي، ٢٠٠٧). يميل البحث عن المسئوليات إلى التقليل من هذه العمليات، وإلى تجسيد الهياكل التي لا تمتلك التماسك والمركزية التي ننسبها إليها والتي نسعى إليها هناك: هذا هو الحال في الميليشيات اللبنانية، ولكن هذا يخص الدولة السورية أيضاً، نظام "استبدادي" ولكنه أكثر تفككاً وتعقيداً (غلاسمان، ٢٠١٣) أكثر من المركزية الشديدة والتماسك "٢٦".

زيادة الاتجاه بشكل عام

هناك أيضاً اتجاه متكرر نحو التعميم والتجريد، والذي يبدو على وجه التحديد أنه يتعارض مع الحاجة إلى تأسيس دراسة الحرب على المستوى الجزئي. وقد أصبحت "الأزمة" و "الحرب الأهلية" و "لبنان" و "سوريا" في حد ذاتها موضوعات للدراسة، تتجاوز التخصصات التي تعمل عادة على هذا النطاق ومع مثل هذه المفاهيم (العلاقات الدولية، العلوم السياسية، وخاصة الأمريكية، والجغرافيا السياسية). إنها بالطبع حقيقة الأرضية التي تصبح صعبة، وتقطع من ترسيخ موضعي، وهي أيضاً بطريقة أكثر واقعية، احتياطياً للكتابة المستخدمة للغاية، مما يجعل من الممكن عدم الاقتباس بالاسم، أو الكتابة المجردة. يسمح لك بفصل نفسك عن الحياة اليومية لأولئك الذين عانوا من الصراع عن قرب. ولكن بشكل أكثر عمومية، من تأثير حوافز التعميم التي تعمل في إطار المجال الضعيف. انعكاس لتدويل حقيقي للصراع (وللحسابات الجيوسياسية الحقيقية من جانب الفاعلين المشاركين فيه)، ولكن أيضاً انعكاس للتساؤل حول استدامة أو مستقبل الكيانات الكبيرة مثل "لبنان" أو "سوريا". هذا الخطاب (الجغرافي) السياسي هو، أكثر من ذلك، واقع اجتماعي، خطاب يومي: إنهم يتحدثون عن سوريا. سوريا، سوريا، سوريا "(بيرلمان، ٢٠١٧، ص ٣٢٨) يشكو أحد من قابلتهم ويندي بيرلمان، دون أن يتذكر الإرهاق الذي يمكن أن يكون، في الببليوغرافيا اللبنانية، من العثور على كتب غريبة، والتي كان يمكن للمرء أن يتخيلها في البداية البصر لتكون

شهادات مباشرة في ضوء مؤلفيها، وهي في الواقع تحليلات بمستوى عالٍ من التعميم (يراجع على سبيل المثال، عزام، ٢٠٠٥).

ومع ذلك، فإن هذا الارتفاع في العموم غالباً ما يكون موضوعاً للدراسة أكثر من كونه إطاراً ضمنياً للفكر. خاصةً أنه يحتوي على أدلة مصاحبة لتدويل المهن، حيث تساهم تجربة المؤلفين (في مواجهة المنفى على سبيل المثال) في إثبات هذا التأطير. وهنا يجب أن نعمل من مهن الباحثين، حتى لو أظهرت ذلك الكتب في بعض الأحيان: عندما أشاع غسان تويني مصطلح "الحرب من أجل الآخرين" (تويني، ١٩٨٥) في لبنان، وهي أطروحة تصر على مسؤولية دول الجوار، وهكذا في أعقاب الاجتياح الإسرائيلي، عندما شغل منصب ممثل لبنان في الأمم المتحدة، وكتب كتابه في باريس. قبله وبعده، كتب العديد من اللبنانيين عن بعد، وأحياناً مسافة مزدوجة، جغرافياً ولغوياً (التحول من العربية إلى الفرنسية أو العكس) (ريمون، ٢٠١٣).

لغة مشتركة

وبالتالي فإن المجال الضعيف له تأثير على اللغة المستخدمة، وتقسيم الدراسات في اللغة العربية والدراسات بلغة أجنبية (أي، في سياق هذه المقالة، باللغتين الإنجليزية والفرنسية) هو في هذا العنوان اللافت للنظر. في سوريا، حتى الآن، تمت ترجمة عدد قليل جداً من التحليلات المكتوبة باللغة العربية (تمت ترجمة المزيد من الكتب الأجنبية إلى العربية)، ولم يظهر أيُّ كتاب باللغة العربية عن الأزمة السورية كمرجع مشترك. إن شبكة التداخلات بين الأعمال تكشف بشكل كبير عن هذه النقطة: مثل كتاب نيكولاوس فان دام، المستعرب، يتضمن مصادر قليلة في هذه اللغة (فان دام، ٢٠١٧)، بينما ثلاثة كتب باللغة العربية، مذكورة في ٢٠١٤ في كتاب آخر ليست كذلك. أكثر من ذلك في جميع المؤلفات التي تمت دراستها في هذه المقالة (ماجد، ٢٠١٤). هذه الظاهرة هي نتيجة للهشاشة البنيوية للبحوث في المنطقة (حنفي وأرفانيتس، ٢٠١٥)، ولكن أيضاً نتيجة لتفوق شخصية أخرى، شخصية المثقف. وهذا يعني أن هذا الرقم مرتبط أيضاً بمساحات نشر أخرى، لا سيما الصحف (الافتراضية أو الورقية)، وهو إطار يتم تداول الكثير من التفكير بشأن الحرب في سوريا فيه اليوم باللغة العربية. من ناحية أخرى، تم استثمار شكل الكتاب بشكل كبير من قبل أنواع أخرى من المنشورات، الصحفية والعامة أولاً، ولكن بشكل خاص "شهادات" و "يوميات"، شهادات مباشرة عن الصراع (ديك، ٢٠١٦؛ الخطيب، ٢٠١٧؛ لاريسا، ٢٠١٦؛ صابر، ٢٠١٥)، وأخيراً التخيلات (حيث غالباً ما تكون الحدود واهية مع الشهادة) (الحاج صالح، ٢٠١٦). فاللغة العربية إذن هي لغة نوع معين من التحليل السياسي، مترجمة قليلاً، وفي الوقت نفسه لغة الشهادة

والمعلومات الأولية، لكنها ليست لغة علمية، ويشك البعض في احتمالها الآن: يستمتع ياسين الحاج صالح من مقدمة كتابه برغبة في الحديث علمياً عن الحرب الأهلية (الحاج صالح، ٢٠١٧).

ويبدو أن لبنان يلعب دوراً محورياً في هذا الاتجاه، نحو سحب اللغة العربية المكتوبة كلغة تحليل: عندما بدأ الصراع في عام ١٩٧٥، كانت بيروت لا تزال مركزاً للناشرين العرب، في فترة تطور النظام الجامعي اللبناني و(الإقليمي) ونتيجة لذلك تتكاثر المطبوعات في شكل كتب وكذلك في الصحف. اللغة العربية هي أيضاً اللغة المفضلة، وخياراً واعياً للكتابة للأشخاص الذين تدربوا مع ذلك في جامعات أمريكية أو فرنسية، وكذلك للعديد من المجموعات السياسية، القريبة من القومية العربية أو الحركات اليسارية التي تعمل بعد ذلك على المستوى الإقليمي. مقياس. لاحظت إليزابيث بيكار في ذلك الوقت، أن "أعنف انعكاس لتطور البلاد، كان كلوفيس مقصود، من أدونيس، قد تم باللغة العربية" (بيكار، ١٩٧٧). ومع ذلك، سيُكتب الصراع تدريجياً بلغة أخرى، باللغتين الإنجليزية والفرنسية، حول تدويله وظهور مجال ضعيف. في التسعينيات، اختفت الإشارات العربية للنزاع تدريجياً من المراجع ونادراً ما أعيد طبعها ومن ثم يصعب العثور عليها. في عام ١٩٨١، أشارت قائمة المنشورات إلى ٥٧٢ مرجعاً باللغة العربية و ٣٣٨ مرجعاً بلغات أخرى (صدقة وسلام، ١٩٨٢)، يصعب العثور على جزء كبير من هذه الأعمال باللغة العربية وغير معروف اليوم تقريباً (انعكاس أوسع أيضاً "إزالة الماركسية" [روماني، ٢٠٠٩] من الأعمال باللغة العربية على نطاق المنطقة، التي اعتمدوا عليها إلى حد كبير) "٢٧". أكثر من ذلك، خارج نطاق التداول، أو حقيقة كونه قديماً، فإن الإنتاج أيضاً هو موضع تساؤل: الكتب نادرة، معظمها عامة، كما أنها تعتمد بشكل كبير على مصادر أجنبية (الأرشيفات الدبلوماسية أو الصحف على سبيل المثال) (سِنو، ٢٠٠٨)، أما بالنسبة لسوريا فالمنشورات القصيرة في الصحف مفضلة الآن على الكتب "٢٨". وفي الواقع، فإن الكتب المتعلقة بالحرب التي نوقشت في السنوات الأخيرة في لبنان هي في الأساس ترجمات من الإنجليزية أو الفرنسية "٢٩" ...، بينما أصبحت اللغة العربية قبل كل شيء لغة الشهادة للعديد من المحاربين القدامى أو السياسيين الذين ينشرون مذكراتهم.

الحرب الأهلية كمشكلة زمنية

بعض هذه الموضوعات هي من بين أشكال سرد الحرب التي تمت تنحيتها جانباً من قبل الإثنوغرافيا المعاصرة للصراع، لكن البعض الآخر لا يزال كامناً في التحليل، ويبدو التحايل عليه أكثر صعوبة، لأنها تعكس حالة اجتماعية معينة مرتبطة بزمنية الحروب الأهلية. ولا تكمن المشكلة فقط في الألم الناتج عن التعرض لأحداث صادمة، ولكن أيضاً بمعنى آخر، حقيقة أن ما يدرسه المرء يتحرك (ريفوال، ٢٠١٤). بالمعنى الأول، يتعلق الأمر بمسألة النظر في ما لا يمكن للمرء كتابته

بسهولة عن الحرب عندما يتم القبض عليه، وفراغات هذه الأعمال، ليست فقط الأشياء الأقل دراسة مقارنة بتلك التي سبق ذكرها والتي تبدو مركزية، ولكن الأشياء التي يصعب، بحكم التعريف، أن تكون قادراً على استيعابها. وإن دراسة الحرب الأهلية هي جزئياً أن نضع أنفسنا على ثبات أو عدم ثبات الأشياء المدروسة، في سياق يتغير فيه المجتمع بدقة (بونيلّا، ٢٠١٤). وبالتالي، فإن الأسئلة التي يتم توجيهها إلى الصراع هي رهانات جزئية، وتعتمد على التخوف من الحاضر، وكذلك توقع المستقبل. هناك مشكلة تم تناولها بشكل خاص في الأنثروبولوجيا، منذ بداياتها، تتعلق بوفاة المجتمعات المدروسة (بواسّيير، ٢٠١٥).

وبالمعنى الثاني، يواجه الباحثون مسألة إطالة أمد الصراع، والتي تؤدي أيضاً إلى تغيير جذري في أوراق ممارساتهم وطريقة كتابتهم. وتتطلب ملاحظة الصفحات السابقة، التي أبلغت عن حالة معينة في وقت t، أن يتم النظر فيها على مستوى ثانٍ، أكثر ارتباطاً بالتزامن. لإعادة صياغة فلورنت برايار، فإن الطبيعة الصعبة للموضوع مثل "الارتباط الطويل بالموتى" هي التي تؤثر على ما يمكن كتابته عن الحرب "٣٠" (٢٠٠٩) وهي ليست مجرد أحداث. وهكذا تثير هاتان الحربان مشكلة منهجية كبرى مرتبطة بالزمن: مشكلة زمنية طويلة، حتى بالنسبة للباحثين الذين لا يكفي عملهم طويل الأمد بحكم التعريف لتغطية فترات ١٥ سنة للبنان أو الآن ٨ سنوات لسوريا. حتى أبعد من هذا المجال المحدد، نادراً ما يُثار السؤال المتعلق بمجال قد يكون طويلاً جداً في الأدبيات المنهجية بشكل عام، أي أكثر من آثاره السلبية المحتملة (نتيجة البحث أو الباحث أو المستجيبين له) "٣١"....

ومدة النزاعات هي مشكلة يتم تناولها بشكل شائع في نظريات الحروب الأهلية، ولكن كمتغير يجب تفسيره (غالباً ما يتم البحث عن أسباب طول النزاع) (فيارون، ٢٠٠٤) دون اعتبار المدة عاملاً في حد ذاته، والذي يغير إطار التحليل وفقاً لذلك. منذ البداية، يتسبب طول الأزمة في حدوث مشكلات عملية، وقبل كل شيء انقطاع في متابعتها الملموسة: حتى لو كان الوصول إلى الأرض ممكناً، فهل هذا ممكن بالفعل؟ على هذا النحو، إذا وُلد الممثلون والديناميكيات أو اختفوا في الصراع نفسه، فهذا هو الحال أيضاً لمن يتحدثون عنه. نادرون هم أولئك الذين يتابعون الأزمة بأكملها بطريقة مستمرة، حتى أقل من أولئك الذين لا يتطور موقعهم بمرور الوقت (فقط في بعض الأحيان بالانتقال من مهنة إلى أخرى في هذا المجال الضعيف). في هذا السياق، يمكن للعديد من المؤلفين متابعة بعضهم بعضاً بمرور الوقت، وإعادة النظر في الموضوع نفسه بعد بضع سنوات، وتعمل عدة "أجيال" (كل منها يحمل نظريات وأغراض دراسة جديدة) واحدة تلو الأخرى. للأسف، كان التأثير الأكثر شيوعاً لهذا الوقت الطويل هو إغلاق عدد كبير من المشاريع دون متابعة أو استئناف، مثل مشروع تيليكوميكس لأرشفة مقاطع الفيديو الخاصة بالحرب الأهلية السورية، الذي توقف بعد عام"٣٢"، أو حتى مجموعات أو مجموعات عديدة من "التسلسل الزمني" (أو يوميات) للحرب اللبنانية، والتي غطت الفترة بأكملها عدد قليل جداً منها.

إذا بدا أنه من الضروري عدم ترك قلب الأحداث (كاتوس وآخرون، ٢٠١٥) لنوع معين من الممثلين أو الصحفيين أو الخبراء، فإن ما يمكن أن تساهم به العلوم الاجتماعية هو بالتأكيد، إن لم يكن أكثر، على المدى الطويل، التي يمكنهم التحكم فيها بمفردهم. ولكنها تطرح على وجه التحديد مشاكل عملية ومشاكل في التفسير، والتي لا يتم ملاحظتها في كثير من الأحيان، وبالتالي يمكن العثور على آثارها بشكل عشوائي في الأدب في سوريا ولبنان على حد سواء.

تحريك الأشياء، أشياء مستحيلة؟

لذلك من الصعب أن نأخذ هذه "الهدنات trêves" وهذه الفترات الفاصلة بين الحروب والأماكن التي لا نقاتل فيها، والمذكورة في بداية هذا العمل، موضوعاً للدراسة. وإذا كانت هذه الهدنات دائماً أكثر عددا من فترات القتال الفعال، وهذا في جميع الحروب (المدنية أو غير ذلك) (كلاوزفيتز، ١٩٥٩)، فإن هذا الوضع الطبيعي في الحرب يطرح مشكلة تخوف: إما أنه يُنظر إليه أساساً على أنه فضاء-زمان سريع الزمان، "بين مواجهات entre les combats"، انتظار، بدون محتوى حقيقي؛ أو موضوع مرحلة طبيعية، مما يجعل دراستها محفوفة بالمخاطر أو منحازة، هذه هي حالة عرض "الحياة الطبيعية" للحياة الدمشقية في الصحف الأجنبية، على غرار عرض الحياة الاحتفالية والعاطلة في "المعقل المسيحي" في لبنان في ثمانينيات القرن الماضي، وأخيراً، فإن الهدنة هي قبل كل شيء عملية مكانية وزمانية وليست موضوعاً كما سبق وأشرنا. في الواقع، لقد جعلوا من الممكن إجراء مقابلات أثناء فترة الهدوء أو الكتابة، كما فعل العديد من المؤلفين في عام ١٩٧٧، أول انقطاع في الصراع.

هناك قضية أخرى ذات صلة وهي العمل على شيء آخر غير الثوار والمسلحين، وتغطية جميع الفاعلين في أزمة: النظام وأنصار بشار الأسد (لاستثناءات قليلة ينظر، فورن، ٢٠١٣، خضّور، ٢٠١٥) لا يزالون طي- دراسات sous-étudiés، بسبب الصعوبة العملية للمجال، المحظورات الأخلاقية والسياسية للمجال، ولكن أبعد من ذلك أيضاً بسبب الندرة التقليدية للأدب حول هذا النوع من الأسئلة (كومبيس وفيلّييل، ٢٠١١). لكن الأمر الأكثر جوهرية هو أنه جزئياً لأنه يبدو قبل كل شيء أنه من غير المجدي في البداية دراسة الجانب الآخر من الصراع، حيث يُطلب من النظام أن يختفي سريعاً في الرواية النبوية للخطوات الأولى للأزمة. سواء مع الجيش السوري من عام ٢٠١١، أو مع اللبنانيين في ١٩٧٥-١٩٧٦، فنحن ندرس على سبيل المثال الانشقاقات بشكل أساسي. على العكس من ذلك، فإن العديد من المقالات التي تتناول المؤسسات المدنية التي أنشأها الثوار، الجيش السوري الحر، الكتائب المسيحية أو منظمة التحرير الفلسطينية، تهدف صراحة إلى جعل هؤلاء الفاعلين موجودين منذ ولادتهم، ثم الإصرار لاحقاً على حقيقة وجودهم.

(دورّونسور وكويسناي، ٢٠١٦؛ ليجراند، ٢٠١٤؛ روبنبرغ، ١٩٨٣). إن الحد الفاصل بين تصحيح الرؤية الخاطئة، خاصة في وسائل الإعلام، والخطاب الأدائي هو في هذا النوع من الحالات المتغيرة. وهنا يتقاطع الموقف السياسي والقلق من فكرة فقدان أرضها والمستجيبين.

هل يمكننا فعلاً العمل على شيء آخر غير "العالم الجديد" الخارج من أزمة سياسية أو حرب؟ على نطاق واسع ولاحق، يتم التعبير عن كل هذا بالضرورة مع استمرار من ناحية الهياكل الاجتماعية، "[الحرب] تؤثر بالفعل في المجتمع وتغيره، ولكن ليس بعد إلى درجة تجعله غير معروف ويقلل تماماً من كفاءة هياكلها ومؤسساتها الاجتماعية" (بواسيير ٢٠١٥). والملاحظة عامة في أي حالة من حالات الأزمة السياسية، ولكن من الناحية العملية لا يمكن للمرء أن يحدد إلى أي مدى سيذهب الصراع وأي من هذه الهياكل والمؤسسات سيستمر في النهاية. بعبارة أخرى، يبدو من الخطير جعله موضوعاً للبحث، باستثناء جعل المجال شكلاً من أشكال الرهان العلمي، نادراً ما يتم طرحه على هذا النحو. في لبنان، انتظر عالم الأنثروبولوجيا مايكل جونسون (جونسون، ١٩٨٦) عشر سنوات ليحكم على صلابة وتطور نظام الوجهاء السنة في بيروت الغربية الذي درسه في أوائل السبعينيات، ويبدو أنه أول من فوجئ بإصراره. في سوريا، فقط في عام ٢٠١٧ طرح نيكولاوس فان دام فكرة أن سوريا لم تنقسم إلى عدة دول، في وقت يبدو فيه الآن احتمال التقسيم غير مرجح (فان دام، ٢٠١٧). وغالباً ما يتم التأكيد على أنه لم يختف كل شيء إلا بعد الحرب، عندما يُترك الأمر للمؤرخين. لذلك يجب التأكيد على أنه لا يمكن للمرء، بحكم التعريف، كتابة كل شيء، بما في ذلك خطر أن يصبح العكس العلمي فاحشاً، عندما يكون المرء معاصراً للصراع.

التفسير المواجه مراراً

من ناحية أخرى، يشير طول هذه المرة إلى أنه لا توجد طبقة واحدة من التفسيرات النافذة، أو ليس فقط التفسيرات المتنافسة والمتزامنة، ولكن العديد من التفسيرات المتتالية والتي تجيب بعضها البعض، تعيش داخل التفسير "٣٣"، بينما الكائن المدروس لا يزال متحركاً. إنها ليست فقط مسألة تأطير النضالات في لحظة يتبعها الآخرون لاحقاً يعيدون تفسير الحدث، بل يتعلق بالأطر التي تستجيب لبعضها البعض في الوقت المناسب، غالباً من زاوية الانعكاس الجذري، وتغذي التغييرات في تصورات الصراع الذي تطور. لقد شدد نيكولاس بيوبري بالفعل على هذا في حالة حرب ١٤-١٨، من خلال إظهار كيف أن الانطباع بأن الحرب لم تنتهِ أبداً أعقب الانطباع الأول حيث بدا النصر سريعاً موعوداً (بوبريه ٢٠١٣). وهكذا، بين لبنان في الأعوام ١٩٧٥-١٩٨٢ و ١٩٨٢-١٩٩٠، لم يكن هناك تطور للحرب فحسب، بل كان هناك أيضاً فقدان للأمل فيما يتعلق بإمكانية حل النزاع (خلف، ١٩٨٢). التي لها تأثير أكبر على طريقة تحليلها. لدرجة أنه لا أحد يرى أنها تنتهي في

بداية عام ١٩٩٠ (نورتون، ١٩٩١) أو حتى أن الحرب لا تزال مستمرة بالنسبة للبعض. في وقت سابق من الصراع، بعد عام ١٩٧٨، كان هناك ظهور لخطاب أكثر تفضيلاً للكتائب اللبنانية (بيرونسيل-هوغوز، ١٩٨٥) في سياق كتابات مؤيدة جداً للفلسطينيين، تم تقديمها حتى ذلك الحين على أنها خطأ جانب من التاريخ. وأخيراً، هذه المرة بطريقة أقل سياسية، تجدر الإشارة إلى أن ظهور الدراسات على الشاشة "خارج الشاشة" للحرب، والتي ذكرناها في الجزء الأول، ظهر في لحظة معينة، في منتصف الثمانينيات، أي في وقت سئم من تحليلات بداية الصراع والنموذج الماركسي الذي بدأ يضعف.

وفي سوريا، كان الأمل الأولي "٣٤" الذي نسج منه جزء من الأدب متبوعاً بخطب تشبه شكلاً من أشكال فشل نبوءة بعد سنوات قليلة: يروي الشهود خيبة أملهم، وانقلبت الآمال الماضية في الاعتراف بالفشل أو تمارين الخطأ: التفكير الحكيم للدبلوماسية الأجنبية في سوريا (فان دام، ٢٠١٧)، أخطاء الغرب (جيرار، ٢٠١٤)، إلخ. بعبارة أخرى، فإن الجانب الآخر من هذه الرهانات العلمية الموصوفة في الجزء الأول، هو أن تكون قادراً على العثور عليها بهذه الطريقة. يكمن الخطر في اختزال التاريخ الماضي للصراع كل مرة من إلى الوضع الأخير، وعلى سبيل المثال وصف النظام السوري الذي لم يسقط لأنه لم يستطع السقوط منذ البداية (مالبرونو وشيسنو، ٢٠١٤)، متناسين المواقف حيث كانت هشاشتها، على العكس من ذلك، واضحة جداً (وبالتالي الحشود لإنقاذه) "٣٥". وهكذا ترتّب هذه التفسيرات كل منها بطريقة جديدة، الماضي والحاضر والمستقبل، وتعيد إلى المركز أو تهمش جوانب معينة من الصراع، وتفكك بعضها البعض، وتمحو بانتظام في تمرير كل الاحتمالات التي لم تحدث. إذا كان الانتقال من تفسير إلى آخر أمراً شائعاً في المجال العلمي، فإن السرعة التي يحدث بها هنا تبدو رائعة "٣٦"، مما يتطلب مراقباً لاحقاً لكشف هذه الطبقات المختلفة.

مرض الزمان

على مستوى آخر، يؤدي الوقت أيضاً إلى تراكم كتل من المعلومات، أكثر وأكثر عدداً، خاصة وأن المنطق الداخلي لهذين الصراعين يميل إلى أن يصبح أكثر وأكثر محلية، مما يؤدي إلى تشتت المعرفة بشكل أكبر. بحكم التعريف، يتطلب العمل البحثي في الأزمات فرز كمية كبيرة من المعلومات ذات الصلة بشكل أو بآخر (سواء تم جمعها بشكل مباشر أم لا)، كما أظهرت العديد من الدراسات حول الشائعات (كوفاكس، ١٩٩٨): على المدى الطويل، يصبح هذا العمل مذهلاً في الحجم. إن عملية المراقبة هذه، التحديث المستمر لإحداثيات الأزمة أو الجمع اللامتناهي للشهادات والحقائق، جانبٌ لم يكن بحاجة إلى أن تكون شبكة الإنترنت موجودة بالفعل، فهي أكثر وضوحاً وتأكيداً اليوم

في سوريا. إن طول المدة والتدفق المستمر للمعلومات لهما عواقب عديدة. أولاً، يمكنها تحويل العمل العلمي إلى عملية أرشفة. ثم يصحبها الإرهاق المعرفي والتعب: إرهاق الجهات الفاعلة في الصراع الذي لوحظ في السنوات الأخيرة بالنسبة لسوريا، لا يخلو من القلق لمن يغطيه. وهكذا فإن جميع الشهود على هذه الحروب محاصرون في شكل من أشكال "مرض الوقت": "يدرك الناس أنهم أخذوا صحيفة أول أمس ليومنا، ويجدون صعوبة في تذكر حالة الأمان خلال الأسبوع السابق [...] (بيضون، ١٩٩٣، ص ١٧١).

وفي هذا السياق يجب فهم التخفيض التدريجي في تغطية هذين التعارضين، فهو يعكس إرهاق المؤلفين والناشرين والقراء. على سبيل المثال، كانت فترة ما بعد عام ١٩٨٢ من الصراع اللبناني موضع دراسة أقل بكثير، بينما كانت بداية الحرب، ١٩٧٥-١٩٧٦، موضوعاً لمعظم الأدبيات. وعلى الرغم من كل الأدبيات التي تدفع لدراسة الأزمات السياسية في محتواها اليومي، ونقد المسببات، يتكرر الأمر نفسه بالنسبة للأزمة السورية. يغطي كتاب واحد فقط حتى الآن الصراع حتى عام ٢٠١٦ (أبو زيد، ٢٠١٨)، وتوقف الآخرون في الغالب في عام ٢٠١٣. ومن الواضح جداً أنه إذا كانت هذه الحدود الزمنية في الحالة السورية تبدو مرتبطة على ما يبدو بإغلاق الحدود، فهي ليست موجودة على الإطلاق. في الحالة اللبنانية، حيث يمكن التواجد في البلاد حتى ١٩٨٤-٥. وقع مرة أخرى على أن الوصول إلى الأرض ليس هو السبب الوحيد.

الفكر العفوي لوقت طويل

أخيراً، هذا الوقت الطويل له نتيجة أخرى: فهو يشجع على تطوير أنواع معينة من التفكير والحجج البروتستوريتين التي تدمجها أو تتحايل عليها. في لبنان، تم تناول دراسة العقد الذي بدأ مع الغزو الإسرائيلي في حزيران ١٩٨٢ وفقاً لمنطق جدلي محدد للغاية، والذي نجده اليوم في حالة سوريا: تلك المتعلقة بالحدث المفرط المذكورة أعلاه، والتي من شأنها أن تؤدي إلى ميل إلى تسجيل الأحداث بشكل سلبي أكثر فأكثر، والاشتراك في شكل من أشكال الأسباب الزمنية، والخرائطية والنمطية، ولكن أيضاً تأثير الأثر التراكمي، الذي يميل إلى أن يُقرأ من حيث الفوضى والجنون، و/ أو الطبيعة الدورية لـ الأحداث التي لا يبدو أنها تتطور، لكنها تكرر نفسها بلا كلل وفقاً لمصفوفة معينة. من هذا الإطار النظري، غالباً ما يكون ضمنياً، يستمد ما يبدو أنه من الممكن دراسته أو القيام به حيال الصراع.

أولاً، يمكن أن تؤدي الفعالية المفرطة l'hyperévénementialité إلى شكل معين من التحويل إلى عمل عصور البروتوستر، نادراً ما يتم التفكير فيه على هذا النحو، والذي، أيضاً بسبب الطبيعة المتزامنة للبحث، يميل إلى القيام به في الوقت نفسه وبطريقة مماثلة من قبل العديد من الناس. في

لبنان، تم تسجيل جزء من الإنتاج الثقافي والعلمي جزئياً عن الحرب في العديد من "اليوميات" و "التسلسل الزمني" و "الموسوعات" المخصصة للحرب (شامي، ٢٠٠٣ الشامسي، ١٩٧٨؛ الخالدي، ١٩٧٩؛ مسعود، ٢٠٠٦ ؛ سركيس، ١٩٩٣). ويمكن العثور على نفس الاتجاه في الحالة السورية، من خلال نشر العديد من "الوثائق" أو الكتب التي تسلسل الشهادات (مجموعة، ٢٠١٧)، مواقع الويب التي تقدم التسلسل الزمني والمراقبة (الأرشيف السوري) "٣٧" وهذا يبدو بقدر ما هو وسيلة. للتصدي للممارسات العرفية (التي تهدف إلى إنتاج الجهل) للجهات الفاعلة في النزاع، ولا سيما في الحالة السورية، كطريقة عملية للغاية لإدارة التضاريس التي لا نهاية لها، أو حتى التخفيف في الواقع المفرط لأي احتمال لاتخاذ موقف جزئي. بعبارة أخرى، يتحول العمل العلمي إلى عمل تجميعي، وأرشفة، وتصنيف للشهادات والحقائق. وهذا بدوره يعرض الكتابة لخطر سرد الوقائع، بل وأكثر من ذلك، على المدى الطويل، مخاطر تحديد المواقع التي تتكون في متابعة الأخبار على الدوام: يستمر جزء من البحث عن لبنان، بعد الحرب وحتى اليوم البحث عن "لبنان" المعاصر جدا، الذي أصبح تخصصا في حد ذاته، يحافظ على علاقة مع الخبرة والصحافة.

ثانياً، يميل التأثير التراكمي إلى إعادة سلسلة الأحداث إلى ملاحظة مجتمع فوضوي بشكل متزايد و"منتشر" (ياسين، كساب والشامي، ٢٠١٦) وخطّي للأسوأ. ضمنياً، يحتوي هذا الشكل من التفكير على مفهوم تبسيطي للوقت والأزمات السياسية كما لو أن استمرارها بمرور الوقت كان مجرد مرادف للتدمير الإضافي. بعبارة أخرى، لا يمكن للأزمات والحروب أن تختبر أبداً ديناميكيات إعادة الهيكلة، أو ظهور أنظمة جديدة، أو مد العنف، أو حتى فترات أو مسافات بين الحروب، في لحظات قصيرة من تدفق السيولة (دوبري، ٢٠٠٩). ومع ذلك فهي مكونة إلى حد كبير (ولكن لأسباب أوضحناها أعلاه، بالكاد يمكن التعبير عنها في سياق الحرب). يتجاهل هذا النوع من التفكير بشكل خاص جانباً رئيسياً يحدث بمرور الوقت: وهو على وجه التحديد تكاثر الهدنات والمساحات التي تتميز باستقرار اجتماعي معين. هذا الأخير يجري تعهدات جديدة محتملة في المقابل الأراضي.

والجانب الدوري، أخيراً، هو وسيلة للتحايل على الظهور المستمر للأحداث من خلال جعلها تحقق الهياكل أو الديناميكيات العالمية "٣٨": صراع يكون أساساً بين الصديق X والعدو Y، أو (لاستخدام المصطلحات المستخدمة في لبنان) "نظام الحرب" أو "نظام الميليشيات". في نسخة غير مجدية بشكل خاص، هذا النوع من شبكة القراءة له طابع رجعي بلا حدود، كما في الحالة اللبنانية حيث تمكنا من البحث عن نموذج توضيحي في حرب أخرى عام ١٨٦٠ "٣٩"، عندما لا يصبح مجرد غير تاريخي، لأنه مثال في الأدبيات التي ترى في الحرب الأهلية مثالاً على مواجهة كبيرة بين المسلمين والمسيحيين (بيرونسيل- هوغوز، ١٩٨٥). وينتمي أيضاً إلى هذا النوع من الحجج الوظيفية - وظيفة تقليل الحدث - شبكة القراءة الأخرى هذه من حيث نظرية المؤامرة، حيث الأحداث ليست سوى

البراهين المتتالية لتنفيذ خطة أولية عظيمة: في لبنان الجدل حول "خطة كيسنجر plan Kissinger " (سليمان، ٢٠١٣)، في سوريا الخطاب حول مؤامرة دولية.

ومع ذلك، فإن هذا النهج الفكري له أيضاً جانب إيجابي. في أفضل الحالات، يكون مشابهاً لمقاربة من النوع المثالي للتكوين الاجتماعي (دوبري، ٢٠٠٧)، مما يجعل من الممكن ترتيب الواقع بطريقة مفيدة بشكل خاص. وهذه هي حالة مفهوم "نظام الميليشيات" (نصر، ١٩٩٠) المطروح في حالة لبنان، والذي يمثل في الواقع تنظيماً اجتماعياً مستقراً ومتكرراً جزئياً (مما أدى إلى استقرار الجهات، وتحديد الجهات الفاعلة بشكل أكثر وضوحاً ومؤسسية، جداول المعارك أو الفنون التي يجب القيام بها للحماية منها). ومع ذلك، فإن الخطر هو أن تكون غير تاريخي وأن تقوم فقط بعمل آراء مقطعية في وقت t دون شرح المرور من تكوين إلى آخر، وتأثيرات الترسيب بين كل موقف: هذا هو الحد المحتمل للفكر من حيث المصطلحات من النظام أو النظام.

وفي الأساس، القضية أوسع من مجرد هذه الحروب وتبين أنها مشكلة العلوم الاجتماعية بالمعنى الدقيق للكلمة: كيف تفسر الأزمات السياسية الطويلة، من الناحية النظرية ومن حيث الكتابة (غوريسّي، ٢٠١٢)؟ هو التشكيك في التعبير عن البنية والتغيير، لإعطاء المرء الوسائل الفكرية لفرز التسلسل الزمني وتجاوز التدفق المستمر للأحداث، ليس فقط لاختزال العالم الاجتماعي إلى أحداث، أو للتساؤل عما تفعله الأحداث الهيكل الاجتماعي (أبوت، ٢٠١٥؛ سيويل، ٢٠٠٥)، ولكن أيضاً لطرح مسألة تسلسل الأحداث باعتبارها تشكل مشكلة هيكلية في حد ذاتها.

خاتمة: صورة للباحث كأخصائي أرشيف

انطلاقاً من مقارنة بين سوريا ولبنان لفهم الصراع اللبناني وإنتاجه الفكري بشكل أفضل، انتقل هذا العمل إلى مسألة الخطوط العريضة المحتملة للتأريخ المستقبلي للحرب في سوريا، وبعض أشكال الجدل المتكررة. صراع لآخر. الهدف الأساسي هو توفير الوسائل لتجنب شكل من أشكال سرد القصص للحرب الذي سيصبح عتيقاً سريعاً: الخطاب الواقعي، والعقل الزمني (مع كل مخاطر الوهم بأثر رجعيrétrospective)، والعمل المنسوج من القرارات السياسية، والمقاتلين والعنف، والقراءة في شروط المصالح والحسابات، ومستوى التحليل الكلي. ومثل هذا النهج يترك جانباً فترة ما بين الحربين، والتعقيد والمفارقات في عالم اجتماعي في حالة حرب، حيث يدمر المرء ما يحمي، أو يستفيد، أو يبني روابط اجتماعية. إنه ينقل عالم الحرب إلى جانب واحد، ويترك جانباً أي احتمال للصدفة والآثار الضارة وعدم سيطرة الجهات الفاعلة على الأحداث. على وجه الخصوص، يستبعد كل المستقبلات التي لم تحدث، كل "تذبذب الاحتمالات" (الشاذلي ورواينر، ٢٠١٨)، مما يجعل الممثلين يقولون "[نحن] نغير آراءنا طوال الوقت. وما أكتبه يوماً ما لم أعد أفكر

به في اليوم التالي "(معروف، ٢٠١٤، ص ١٧٠-١). وبشكل أساسي، ظهور الويب، وتطور النماذج، والإغلاق السريع جداً للحقل السوري، والعديد من العناصر التي قد يعتقد المرء أنها تحدث تغييرات جذرية، والتي تميل إلى التجمع بمجرد وضعها في بُعد زمني مزدوج (لسياق متغير وسياق طويل الأجل) يشتركان فيهما.

لكن بشكل عابر، يدعونا هذا العمل أيضاً إلى التفكير في إمكانية إعادة التفكير في العمل العلمي على نطاق أوسع قليلاً في مثل هذا السياق والنتائج التي ينطوي عليها موقف "الشاهد" هذا، حتى المتميز أو الأكثر اطلاعاً. بعيداً عن شغل منصب متدني، يكون الباحث، قريباً أو بعيداً، عالقاً في موضوعه في الحقل أو حتى من مسافة، مُدرجاً في حزمة من القيود التي تحتاج إلى توضيح بما يتجاوز المنهجية الوحيدة. على أرض الواقع، وتقاسم "الحيل" العملية في مثل هذه الحالة. إن طرح فرضية مجال ضعيف يجعل من الممكن التساؤل عن الحاجة إلى عدم إعادة، كباحث، نفس الحقول مثل الجهات الفاعلة الأخرى (على العكس من ذلك من خلال المرور بجوانب أقل استكشافاً في عالم الحرب؟ والظواهر التي تترك أقل آثار؟). إنها سياسة كاملة لحدود البحث التي يجب إجراؤها: تحديد المنهجية والأرضية المتروكة من الموضوع والمهربة (سيميان-غيرمانوس، ٢٠٠٢)، للبحث في أوقات الحرب الأهلية شيء مختلف تماماً عن المطالبة بوجودها أو تطورها. التحدي هو إعادة بناء شعور جديد بالحدود لتكامل وخصوصية العمل العلمي.

إنها أولاً وقبل كل شيء فرصة للتساؤل عن إمكانية إعادة النظر فيها، وما وراء تقسيم العمل العلمي بين الباحثين (من مختلف الأجيال و/ أو التخصصات)، وماذا تعني الكتابة مع العلم أنك ستُقرأ في المستقبل بواسطة زملائك. وبالتالي، فإن الأمر يتعلق بتحضير زيارة المرء مرة أخرى أو زيارة باحثين آخرين (بوراويو، ٢٠١٠): مهما كانت التضاريس أو جودة العرض النهائي، وأن تكون قادراً على إتاحة البيانات يوماً ما، دون محوها لصالحها. من التفسير، فإن الأخير، كما أوضحنا، مُدرج في حزمة ثقيلة من القيود. ينبع هذا من سياسة المجال (ساردان، ٢٠٠٨) ولكن هذا لا يكفي: النطاق الإثنوغرافي للمنشور أو ترسيخه في نظام ما ليس في حد ذاته ضماناً للمستقبل "٤٠"، كما أوضحنا هذا في صعوبة الملاحظة الفعلية لأشياء معينة من الدراسة، ويجب استكمالها بسياسة كتابة وأرشفة البحث (لافيرتي، ٢٠٠٦). بالنسبة إلى معاصري الصراع، سيكون من الضروري كتابة كتابين تقريباً، وتحليل فوري، وثاني بعد بضع سنوات (أو تركه للمؤرخين).

ابتكار أشكال وسيطة للكتابة

ويظهر الشكل الأصلي الذي اتخذته بعض الأعمال في لبنان أو سوريا بوضوح، أن الوضع يساعد على اختراع الكتابة المبتكرة. ومن موقع الشاهد هذا، ربما ينبغي للمرء أن يتوقع أقل من توليفة

بارعة ومنطقية، من الملاحظات، والمحاولات، والمقالات الوسيطة، والفرضيات المطروحة بوضوح على هذا النحو. وإذا جرى تفضيل الشكل الكتابي بالطبع في سياق الحرب الأهلية، من خلال المطلب التحريري بقدر الرغبة في تنظيم وتبرير انطباع الفوضى للشهود، فمن الواضح أنه ليس الأنسب لواقع المجلد ونوع المعلومات المتاحة. ومن المؤكد أن الشكل المخطوطة للصحيفة، أو الشكل المختصر للمقالة هو في الواقع الأنسب لمثل هذه الحقيقة المتمثلة في المقتطفات والشائعات، والمعلومات الخاطئة (التي كانت موجودة في مارك بلوخ قبل الأخبار المزيفة) للإدارة والفرز، ولكن أيضاً دليل كل يوم لا يمكن تدوينه عند التحدث إلى معاصريه.

في كتابه المرجعي عن الحرب، يمكن لسمير قصير أن يكتب الجملة التالية، "بالنسبة للعمل بأكمله، بدا لي أن هناك نوعاً من مجموعة الأفكار والمعلومات الدقيقة في كثير من الأحيان، لأنه تم التحقق منها، ولكن لا يمكن التنازل عنها لمصدر معين "(قصير، ١٩٩٤ أ). يتميز سمير قصير نفسه بخصوصية إنتاجه المزدوج الذي يستحق الاقتراب منه، يعكس أحدهما الآخر: مقالات كتبت أثناء النزاع وتوليفاً في فترة ما بعد الحرب مباشرة "٤١" وبالتالي لا يزال هناك ابتكار كتابة للشك والفرضيات، سيناريوهات متفائلة إلى حد ما والتي تتبع بعضها البعض (والتي ينسى المرء كتابتها)، وحتى نظام تصنيف لهذه المعلومات "٤٢" (حتى من مصدرها).

وفي سياق تكون فيه المعلومات غزيرة ويصعب تفسيرها (وبالتالي من المحتمل أن تكون هشة)، فإن الأمر يتعلق باختراع أشكال من الكتابة أو الأرشفة تجعل من الممكن ترك النصوص "مفتوحة" والتحضير لمراجعة أخرى، أو توقع توفر ما لم يكن قابلاً للنشر. في الواقع، نظراً لأنه يضع الباحثين في المواقف التي يكون لديهم فيها إمكانية الوصول إلى البيانات الحساسة، فإن حالة الحرب تنطوي على ممارسات تنسيق محددة مثل إخفاء هوية المصادر، والأسماء المستعارة للمؤلفين، والمصادر غير المذكورة لأسباب أمنية، وحتى، وهذا هو أحد أكثر الجوانب تعقيداً بعد ذلك، تحت "٤٣" أو عدم نشر بيانات معينة أو حتى المزيد من الأعمال بأكملها. وهكذا في لبنان، نادراً ما يُستشهد بعمل نبيل بيهوم، وهو أحد أهم أعمال فترة ما بعد الحرب، لأنه لم يُنشر أبداً "٤٤". وما يصلح للنصوص هو بالأحرى الشخصيات التي يستحق إنتاجها المزيد من التساؤل، بحكم طبيعتها نفسها والقوة الاجتماعية التي تنسب إليها، تبدو صلبة وتنتشر بسرعة: في لبنان يبدو أن هناك عدة تقديرات كمية للناتج المحلي الإجمالي، لأموال المليشيات أو حتى عدد رجال الميليشيات، مؤكدة اليوم "٤٥"، معززة بشبكة من الاقتباسات لسنوات. ومع ذلك، لا تزال أساليب بناء مثل هذه الأشكال مشكوك فيها حتى يومنا هذا في السياق الذي تم إنتاجها فيه. يبدو أن بعض الشخصيات المتداولة حول سوريا اليوم متجهة إلى مستقبل مماثل، مثل استطلاعات العينة، أو أرقام حول عدد المقاتلين الأجانب، أو حتى البيانات الاقتصادية.

وستكون أرشيفات البحث مهمة لتهيئة الظروف لرفع هذه القيود في المستقبل، والعودة إلى البيانات الأولية، بما يتجاوز هذا التنسيق وهذه القيود الظرفية. من الضروري التأكيد هنا على فائدة امتلاك مهنة، حتى لو كانت تأخذ شكل مهنة وعمل شخصي في كثير من الأحيان، فهي مدعومة أيضاً من قبل المؤسسات، التي كانت تتساءل منذ عدة سنوات على وجه التحديد عن فائدة ونطاق أرشفة البحث. ومع ذلك، فقد تم تقديم المنطق المؤسسي قبل كل شيء على أنه مقيد واستمر في الآونة الأخيرة، لأنه مقيد بشكل متزايد على ما يسمى بالتضاريس "الصعبة".

أرشيف البحث

هناك بالطبع تناقض في سؤال أولئك الذين يواجهون فيض مستمر من المعلومات أن يضعوها جانباً: أليس عددهم كبيراً لدرجة أنه حان الوقت للعثور على أثر لهم لاحقاً؟ الحقيقة هي أنه إذا بدت هذه المعلومات كثيرة جداً بالنسبة للشهود، فإن المعلومات على العكس من ذلك نادرة للأجيال التالية التي وصلت بعد الحرب، بما في ذلك كاتب هذا المقال الذي لم يختبر الحرب الأهلية التي يدرسها. سواء تم منع الوصول طوعياً من قبل سلطة استبدادية"٤٦"، أو "اختفوا" فعلياً أو تمت خصخصتها من قبل جهات فاعلة معينة في لبنان، أو فقط أرشيفات الحرب غير المباشرة (المحفوظات الدبلوماسية في المقام الأول)، فإن المصادر الأساسية للحرب من قبل المدنيين اللبنانيين نادرة اليوم، والسؤال هو وقت الافتتاح أقل من وجودهم ذاته. لقد ذكرت أغنيس فافيير بالفعل أنه في مثل هذا السياق، "يخصص جزء كبير من العمل البحثي [وبالتالي] لإنتاج البيانات" (فافيير، ٢٠٠٤). في مواجهة هذه الندرة، تعتبر أرشيفات الباحثين أو مراكز البحث، عند وجودها وتكوينها، مصادر ثمينة: أرشيف ميشيل سورات في حالة لبنان، أرشيفات فلاديمير غلاسمان في حالة سوريا، إلخ. علاوة على ذلك، فهي تتعلق بالمعلومات غير المنشورة التي أنتجها البحث كصندوق تتراكم فيه وثائق الفترة الأخرى، والتي أصبح يتعذر تعقبها: الصحافة، والأدب المتشدد، ومقالات من المجلات التي اختفت "٤٧".

الأدب الرمادي والوثائق الرسمية وما إلى ذلك.

قد يبدو النقاش خاصاً بالحالة اللبنانية، فهو في الواقع أكثر أهمية في الحالة السورية، حيث قيل الكثير عن الأرشيفات في أماكن أخرى (ماجد، ٢٠١٤). أولاً، لأن مكانة الباحث الشاهد ليست واضحة بأي حال من الأحوال، ويجب توضيح الاهتمام بتكوين هذه المحفوظات والحفاظ عليها. ثانياً، نظراً لأن أساليب تمويل البحث الحالية أكثر تشتتاً، حسب المشروعات، أو المهن الأقل خطية والأقل أكاديمية حصرياً (نقص الوظائف)، أو حتى البرامج التي يُطلب فيها محو البيانات صراحة

بمجرد انتهاء التمويل "٤٨"، على الفور يضعف الدستور المستقبلي للمحفوظات ويمكن أن يتسبب في اختفاء هذه المصادر بسهولة أكبر. من الصعب معرفة مصير ١٦١ مقابلة في كتاب واحد، و٨٧ مقابلة في كتاب آخر، والتي نُشرت مقتطفات معينة منها فقط (بازكو وآخرون، ٢٠١٦، بيارلمان، ٢٠١٧). علاوة على ذلك، على البيانات التي جمعها الباحثون، تظهر مشكلة أرشفة المصادر، تماماً كما تظهر للمسلحين: حيث يتم تداول جزء كبير من المعلومات حول الصراع السوري اليوم من خلال وسائل الإعلام، الويب، حيث المعلومات موجودة لزمن محدود فقط، مع لغة عربية مفهرسة بشكل سيئ، وظروف الأرشفة التي لا تزال غير واضحة، والسؤال هو الأكثر تعقيداً: كيفية أرشفة مقاطع الفيديو "٤٩"؟ "خريطة جوجل" لنقاط التفتيش في ريف دمشق؟ "٥٠" أحاديث على صفحات الفيسبوك؟ "٥١". فقط عدد قليل من المشاريع، ضعيفة التمويل، أدت إلى حملات أرشفة وجرد حتى الآن (الذاكرة الإبداعية للثورة السورية أو سوريا لا توصف)، إنما مسألة أرشيفات الباحثين أنفسهم لم تُطرح في هذا الإطار، حتى على الرغم من أنها مجمعات للمصادر الثمينة. وبالتالي، فإن توسيع نطاق الأسئلة المنهجية حول النزاعات طويلة الأمد يعيدنا إلى نقاش آخر: وهو إعادة الطابع الجماعي والمؤسسي للعمل العلمي في جوهره إلى صميم تخصصاتنا، وخصوصياته فيما يخص المهن الأخرى، وأخيراً تكامل العمل والتخصصات على المدى الطويل.

مصادروإشارات

١-أود أن أشكر المشاركين في مؤتمري "العلوم الاجتماعية في حالة الحرب" (MMSH، ١٩ حزيران، ٢٠١٥)، و"لبنان - سوريا: الالتزامات في زمن الحرب" (MMSH، ١٩-٢٠ حزيران، ٢٠١٧)، وكذلك لورا رويز دي إلفيرا، على ملاحظاتهم، وكندا شاب، ولورنس دوفرسنيس أوبيرتين، وإليزابيث بيكار، وماثيو ري، والمراجعين المجهولين في RIPC لتصحيحهم اللغوي الدقيق. ولقد أسهمَ الجميع إلى حد كبير في تغيير هذا المقال الذي ما زلت مسئولاً عنه إلى حد كبير.

٢-على سبيل المثال، في كتاب صدر مؤخراً، يوضح بشير سعادة أن حزب الله اللبناني لم يفكر أبداً في إقامة دولة إسلامية في لبنان، على عكس التفسير الحرفي والمثير للقلق للغاية الذي تم تقديمه لرسالة عام ١٩٨٥ التي تضفي الطابع الرسمي على ولادة الحركة. وبين السطور، من الواضح أن صعود الدولة الإسلامية ومشروعها لتماثل الدولة هو الذي يبرر إعادة النظر في هذه التعبئة الأخرى لمصطلح "الدولة الإسلامية". (سعادة، ٢٠١٦).

٣-انظر على سبيل المثال النقاش بين إليزابيث بيكار وفابريس بالانش حول سوريا (بيكار، ٢٠١٨).

٤-هذا ما نظمناه مع إيف ميرمان في IREMMO ثم في IFPO في عام ٢٠١٥ مع إليزابيث لونجينيسي وجون راندال ومارلين نصر وأندريه بورجي وملحم شاول.

٥-الجغرافيا تخصص حاضر بشكل خاص في لبنان في السنوات ١٩٦٠-١٩٧٠.

٦-أسمح لنفسي بالرجوع إلى الجزء الأول من رسالة الدكتوراه الخاصة بي حول هذه النقطة لاستغلال أكثر اكتمالاً.

٧-"يقضي وقته في بيروت بشكل خاص في الحرب. هذا المجتمع تسليمه إلى الفوضى، إلى أشد الاضطرابات تطرفاً يسحره. تصبح المغازلة هناك الشكل الأكثر اكتمالا للأنثروبولوجيا: من وقت لآخر، يأتي للاستحمام ووجبة ساخنة مع ميشيل وماري سورات، اللذين يخبرهما عن عالم رجال الميليشيات، مزيج العنف والجنس، اللصوصية وسياسة البنية التحتية للمجتمع "(كيبيل، ٢٠٠٠، ص ٧). من الواضح أن جان بيير ثيك لم يترك أي كتابات على هذا "الأساس".

٨-في الوقت نفسه، يبدو أن باحثاً مثل كريستيان جيفراي لديه نهج مماثل في إفريقيا. على هذا النحو، فإن علم الأنساب "للتضاريس الصعبة" وممارسيها، الذي يكون مهماً جداً في بعض الأحيان بالنسبة لمعاصريهم مثل تقرير أوليفييه روي عن ميشيل سورات (روي، ٢٠١٤)، لا يزال يتعين القيام به.

٩-أو على الأقل لم تُنشر أبداً، فلا يُستبعد أن ترى دفاتر الملاحظات الشخصية للباحثين ضوء النهار. مثل المذكرات التي تم العثور عليها لأمل مكارم (مكارم، ٢٠١٥).

١٠-ربما يكون هذا، في حالة فرنسا، انعكاساً لتدريب أولي مماثل لجيل جديد من الباحثين والصحفيين، لا سيما من خلال المرور عبر العلم الحيوي.

١١-كما في بعض الأبحاث في سنوات ما قبل الحرب، كان الباحثون اللبنانيون مسؤولين عن جمع البيانات والباحثين الفرنسيين لتحليلها. أو أنه خلال الحرب، ذهب طلاب الماجستير إلى الأرض نيابة عن مدير أطروحتهم. لا يخلو من إثارة الانقسامات الجندرية والجيلية الظاهرة في أماكن أخرى (بود، ١٩٩٦).

١٢-في شكل مقالات تدرس تباعاً الجذور الدينية، والجذور المناخية.. إلخ.

١٣-يجب أن نلاحظ حتى ندرة الدراسات الاستراتيجية التي من شأنها أن تسمح لنا بفهم ذخيرة وأنماط عمل المقاتلين، سواء في سوريا أو لبنان.

١٤-ومن المثير للاهتمام أن أحد الكتب عن سوريا يجادل بأن المؤلفين يفصلون تصريحاتهم العامة عن أعمالهم العلمية. (بازو، دورونسور، وكويسناي، ٢٠١٦).

١٥-في بعض الأحيان إلى حد الكاريكاتير، كما هو الحال في بعض الكتب حيث يكون عدد الهوامش في بعض الأحيان مذهلاً.

١٦-لذلك، باستثناء المتغيرات والمعلومات الكلاسيكية والأساسية في البحث: لا يُشار إلى العمر ولا مكان أو تاريخ الاجتماع، ربما من أجل الأمن.

١٧-لارتيغي يقول بمتعة: "أود أن أذكرك أن لور دي بعل هي رواية من الخيال الخالص. فقط الأرواح الشريرة هي التي يمكن أن تخلط بين المغامرات التي أنسبها إلى الأب أنطون وبين الأحداث الأخرى التي وقعت في ميازارا بالقرب من زغرتا "(ص ١٠٩).

١٨-هذا هو الحال، على سبيل المثال، في أحد الكتب الجماعية باللغة الفرنسية، حيث يلتقي الصحفيون والخبراء والباحثون. (بورغات وباولي، ٢٠١٣).

١٩-الجانب الذي لا يقتصر على لبنان أو سوريا، بدأ داني هوفمان، الذي يعمل في سيراليون، حياته المهنية كصحفي، وكذلك سكوت ستراوس في رواندا.

٢٠-"اعتقدت أنه من الممكن كتابة سرد موضوعي للحرب بقصد القول إنني كنت مفهومة. أعتقد أن هذا كان بسبب إقامتي في باريس حيث سمعت آراء تشير إلى أن الحرب كانت غير منطقية. اخترت منظوراً تاريخياً لإثبات أنه كان من الممكن فهم هذه الحرب". (قصير، ١٩٩٤ ب، ص ١٢٣).

٢١-وهكذا حافظ الباحثون والصحفيون في لبنان على القليل من الروابط.

٢٢-ومع ذلك، تجدر الإشارة إلى أنه في السياق الأخير حيث أصبحت الوظائف الجامعية أكثر ندرة، فإن الحوافز لترك الإطار الأكاديمي الصارم تكون منطقية أكثر عدداً.

٢٣-نفكر هنا في العمل الدقيق للغاية لأحمد بيضون في وسط الصراع. (بيضون ١٩٨٤).

٢٤-بعض النظريات، مثل النموذج التنموي لـ "التحديث" في السبعينيات، والذي وعد بمستقبل مشرق للبنان، تجد نفسها تقريباً خارج اللعبة بين عشية وضحاها. تماماً مثل التحديث السلطوي في سوريا، على سبيل المثال، الذي وعد هذا النظام، مثل غيره في المنطقة، بأفق مستقر. حقيقة أن الأشياء والنظريات تتغير في الوقت نفسه لا تخلو من مشاكلها في السماح، في العمل، بطرق جديدة للرؤية وتطور ظاهرة اجتماعية.

٢٥-غالباً ما تظهر المقارنة مع الهولوكوست، على سبيل المثال في فكرة "نظام الميليشيا" ذات النزعة الشمولية التي يندد بها جورج قرم في لبنان، تماماً كما تؤكد سلوى إسماعيل على مقارنة الذكريات بين معسكرات الاعتقال والسجون السورية. ومع ذلك، نادراً ما يتم إجراء المقارنة كمصطلح كمنهج في حد ذاته، ويمكن للمرء أن يتساءل عما إذا كان لا يعمل في كثير من الأحيان على الأعمال بطريقة ضمنية بدلاً من كونه مقارنة مفتوحة. ينظر (كورم، ١٩٩٢ ب، اسماعيل، ٢٠١٨).

٢٦-وببساطة أكثر، فهو يشير إلى إنجاز أساسي للعلوم السياسية فيما يتعلق بالطبيعة المجزأة وغير العقلانية للعمل اليومي داخل أي منظمة، بل وأكثر من ذلك داخل الدولة.

٢٧-ينظر على سبيل المثال مقال كمال حمدان ومروان عقل، الذي تم الاستشهاد به على نطاق واسع في السنوات الأولى من الصراع. (حمدان وعقل، ١٩٧٩).

٢٨-مثل مقالات الخبير الاقتصادي ألبرت داغر أو عالم الاجتماع ملحم شاول حول السؤال، على التوالي في جريدتي الأخبار والمشرق اليوم.

٢٩-شاهد على سبيل المثال سلسلة "كيف بدأت واشنطن الحرب الأهلية"، في جريدة الأخبار عام ٢٠١٦ مختصرة من كتاب. (ستوكر، ٢٠١٦).

٣٠-التشديد منّي.

٣١-يصبح السؤال أقل سماعاً في سياق الأطر الزمنية المخفضة لتمويل البحث والتي تطرح مشكلة معاكسة.

٣٢-"سوريا: صوروا الحرب من ألم"، التحرير، ٢٠١٦/٠٣.

٣٣-أقوم بتحويل مصطلح استخدمته كريستين روس. (روس، ٢٠٠٥).

٣٤-الكتاب الذي شارك في تحريره كل من فرانسوا بورغات وبرونو باولي يأخذ هذا في الاعتبار بشكل خاص، بقدر ما تم الانتهاء منه قبل صيف ٢٠١٣، وهو نقطة تحول في الصراع.

٣٥-هذا ما يذكرنا به جدل حديث: ("رد على ستيفن هايدمان" تقييم نيكولاس فان دام حول مصير سوريا "، بقلم نيكولاوس فان دام، ٢٠١٧) (مدونة لـ جوشوا لانديس)، تشرين الثاني ٢٠١٧.

٣٦-ويرتبط إلى حد كبير بحقيقة أنه ليس المجال العلمي هو الذي يملي الإيقاع.

https://syrianarchive.org-٣٧

٣٨-يجب أن يُنظر إليه أيضاً على أنه طريقة مثيرة للاهتمام للتوقف عن التفكير في الوقت من وجهة نظر اتجاهية، والتي تنطبق بشكل خاص على التكوينات حيث يكون المستقبل غير مؤكد على وجه التحديد، عندما لا يبدو السلام موعوداً وتبدأ الحرب.

٣٩-تاريخ حرب سابقة في الجبال بين الدروز والمسيحيين.

٤٠-لا يبدو من الطبيعي بالنسبة لنا، على سبيل المثال، أن "التحليلات [من النوع الإثنوغرافي] ستشكل، مهما حدث، مصدراً يمكن أن تستخدمه أجيال من الباحثين الذين سيقترحون نماذج تفسيرية لـ" الربيع العربي "على مدى عقود. ليأتي". (علال وبيريت، ٢٠١٣، ص ١٤)

٤١-في كتابها "لا عودة للوراء"، تذكر رانيا أبو زيد أيضاً، بجانب الكتاب، الـ١٥٠ ألف صفحة التي تمكنت من كتابتها سابقاً في شكل مقالات.

٤٢-يعتبر تصنيف المعلومات بهذه الطريقة، على مقياس الموثوقية، عملية فكرية يومية بين العديد من المهن الإعلامية أو وكالات الأنباء أو خدمات الاستخبارات.

٤٣-وهذا لا يعني عدم تداول: هكذا استدعت مارلين نصر خلال ندوة IFPO بيروت مقالاً مشتركاً مع زوجها سليم نصر حول الصلة بين المجتمع والطبقة في ضواحي بيروت، لم يُنشر قط ولكن تم تداوله في الأوساط المتشددة.

٤٤-لم تُنشر حينها، بحسب مؤلفها، لأسباب "أمنية". (بيوم، ١٩٩٠).

٤٥-مثل المقال المقتبس على نطاق واسع بعنوان "لبنان: أموال الميليشيات" المنشور في مجلة دفاتر الشرق عام ١٩٨٨، (العدد ١٠، ص ٢٧١-٢٨٧).

٤٦-هذا ما يمكن أن نتوقعه بالفعل في حالة سوريا، حيث يعرض بعض الأشخاص المقربين من السلطة إعادة النظر في تاريخ سوريا من الأرشيفات التي يتعذر الوصول إليها. ينظر شعبان، ٢٠١٧.

٤٧-إنها أيضاً مشكلة بارزة جداً في الحالة اللبنانية أن نواجه المجلات التي اختفت ولم تتم رقمنتها، وبالتالي يصعب العثور عليها أحياناً.

٤٨-هذا هو الحال مع بعض التمويل من مجلس البحوث الأوروبي. أشكر سيريل بلونديل على لفت انتباهي إلى هذه النقطة.

٤٩-شاهد عمل سيسيل بويكس حول هذه النقطة.

50ttps://www.google.com/maps/d/viewer?mid=1QV0TL6gd5aboEPddL8HQgY2vhjc&hl=ar_US&ll=33.47745086655156%2C36.246085499999936&z=8

٥١-الناصر و.، الاستخدامات السياسية للفيسبوك: إطار الظلم ومنطق التعبئة. حالة صفحة "الثورة السورية ٢٠١١"، أطروحة في العلوم السياسية، بروفانس -IEP Aix-en، ٢٠١٧.

*-Pierre France:Deux guerres lasses" « Champ faible », formes de narrations et temps long dans l'écriture des guerres civiles en Syrie et au Liban " Dans Revue internationale de politique comparée 2018/1-2 (Vol. 25)

* بيير فرانس: حربان مرهقتان "• "المجال الضعيف"، أشكال السرد ووقت طويل في كتابة الحروب الأهلية في سوريا ولبنان "في المجلة الدولية للسياسات المقارنة ٢٠١٨ / ١-٢ (المجلد ٢٥).

بقلم: بلير أوستن

ترجمة: حسين جرود

شاعر وصحفي ومترجم سوري، من أعماله: المجموعة الناقصة - جنود البحر.

القارئ هو المهم..
في الفضاء الميتافيزيقي للأدب

غالباً ما يمحو العمل الأدبي الخيالي الغرفة التي كان من المفترض فتحها ويفتح غرفة أخرى مختلفة تماماً. هذا شيء مثمر بذاته. لم يُنجز أي شيء إطلاقاً في القارئ في تلك اللحظة. لا يوجد توظيف للأدب إذن؛ يوجد سلوك، استخراج وقتٍ موازٍ (فضاء ميتافيزيقي) من جزء معين من اليوم. تحدث الكثير من قراءتنا في هذا الفضاء.

أنوي في هذا المقال قول شيء واضح تماماً على سبيل التذكير: القارئ هو «المكان» الوحيد المهم، وكل واحد منا قارئ مختلف في أوقات مختلفة من حياته، وحتى في أوقات مختلفة من اليوم أو الأسبوع. من ثم، نحن قراء مختلفون حسب الجيل والعصر. نظراً إلى الجودة المؤقتة للقراءة، وباستخدام الطرائق التي نقرأ بها فعلياً، برهانًا على ذلك. لا توجد طريقة صحيحة للقراءة. لا يوجد سوى أنواع القراءة.

أنا أمين مكتبة سجن سابق، وقد حُرمت من حريتي لفترات طويلة في ظل ظروف أخرى. تأخذ قراءة الأدب الخيالي شكلاً مختلفاً عندما لا يمكنك مغادرة المكان الذي تكون فيه. ولذا تبدو الأسئلة المتعلقة بالطريقة الصحيحة لقراءة الأدب الخيالي والواجب الأخلاقي للقارئ في مجتمع مدني غريبة. كل القراءة تجري في الفضاء الميتافيزيقي أولاً، ويوجد الكثير من أنواع القراءة مثل الأشخاص الذين يمكنهم القراءة.

من ثم، إنها فوضى القراءة التي أود الحديث عنها هنا، ومن ثم حدودها وغرابتها المتأصلة لكل واحد منا، داخل المجتمع وخارجه.

من طريق «أنماط القراءة» أتحدَّث عما يدور في العقل (الحالة الذهنية، وحالة الوجود) في أثناء القراءة، وتُقدَّم هنا دون حكم أو تعليق. توجد قراءة مثل «رحلة خيالية»، وقراءة غافلة، وقراءة بعقل منقسم، وقراءة نوستالجية، وقراءة سياحية، وقراءة مهنية احترافية، وقراءة من قبل بروفيسور، وقراءة دون تذكُّر لما قرأته، وقراءة لتدريب العقل ليكون قادراً على القراءة مرة أخرى، وقراءة قهرية، وقراءة تحليلية، وقراءة انتقادية، وقراءة استفهامية، وقراءة لصنع التغيير، وقراءة تأويلية، وقراءة أحلام اليقظة، وقراءة فاحصة، وقراءة للحصول على المعلومات، وقراءة غاضبة وساخطة، ومئات أخرى. ولا يمنع التبديل في اللحظة التالية إلى نوع آخر من القراءة. يحدث الكثير في الوقت نفسه.

غالباً ما تؤدي الظروف التي نقرأ فيها إلى نوع معين من القراءة. توجد قراءة في حالة سكر أو انتشاء. القراءة في مترو الأنفاق أو الحافلة. القراءة في غرفة مليئة بالأشخاص الذين يتحدثون، والقراءة في أثناء تشغيل يوتيوب. قراءة الأدب الخيالي في العمل بينما تتراكم الأعمال فوق رأسك، والقراءة بينما يحدث العنف في كل مكان، والقراءة وحيداً في الظلام. أنا لا أتحدث عن أسباب قراءتنا ولا عن اختياراتنا للقراءة بل عما يحدث فيما كنا نسميه «العقل» ونسميه الآن «الدماغ». هذا المكان -إن وجد- بعد التصوير المقطعي والتصوير بالرنين المغناطيسي والتصوير المقطعي بالإصدار البوزيتروني، فإن قراءتنا -مثل حياتنا- فوضوية.

***

يوماً ما، في وقت متأخر من الصباح، كنت أسحب عربة بين الوحدات السكنية في أحد السجون الشهيرة -وهو مرفق من المستوى الرابع في السهول- حيث عملت. انتهى وقت التنفُّس، وكانت الساحة فارغة: مساحة شاسعة من مثلثات العشب الأخضر تقطعها ممرات خرسانية رمادية. صدر صوت طقطقة في اللاسلكي: «التحكُّم.. غرفة المرجل». «تحكُّم.. انطلق». «موظف واحد من غرفة المرجل إلى كوخ الصيانة». «١٠-٤. التحكُّم واضح، خمسة عشر - ثلاثون - خمسة».

كنت أسير أمام حوضَي زهور، ممزوجة بأزهار المخملية. وقد مررت تواً بغرفة التحكم في طريقي إلى وحدة الصدى لجمع الكتب عندما قال صوت مرح، «مرحباً! اعذرني!».

استدرتُ، وكان الفناء فارغاً تماماً. كان باب وحدة دلتا الصغير على بعد مئتي متر، عبر ذلك الفناء الشاسع، المحاط بجدران مكوَّنة من المباني نفسها التي فُتحتْ جميعها نحو الداخل. «هنا في الأعلى!»، قال الصوت. كان يقف فوق السطح مباشرةً ضابط يحمل بندقية AR-15. إنه الرقيب المتمركز في البرج الثاني، في تخشيبة حراسة على السطح تطلُّ على الفناء. «هل يمكنني إعادة كتابي؟»، قال. كان صوته ناصعاً، صوت شاب يرى العالم بالمقلوب. حصل على غلاف ورقي من

السوق الشعبي. قلت: «بالتأكيد»، وطرح الكتاب بلطف. سقط في البداية كحجر، ثم انتشرتْ صفحاته، وهبط بضربة على العشب. «شكراً!»، قال، وضعتُه في عربتي، وواصلتُ السير إلى وحدة الصدى.

لكني دهشت. لم أكن أتصوَّر الضابط في البرج الثاني يقرأ، ولكن هذا منطقي. لم يكن لديه ما يفعله في نوبات العمل باستثناء انتظار أمر الحركة والردِّ على عمليات التفتيش على اللاسلكي كل ساعة، والإبلاغ عن الطائرات، وما إلى ذلك. في حالة الملل تلك، نظراً إلى وظيفته مع البندقية، يجب أن يكون هذا نوعاً من الرفاهية. عند حدوث عنف في أثناء الحركة الخاضعة للرقابة، يسير الرجال في خطوط خضراء، وجرى تكليفه بإطلاق طلقة تحذيرية واحدة في حوض الزهور، ثم إطلاق النار، وسط الحشد، على أي شخص لم يسقط على بطنه.

طوال اليوم، دون أن يفعل شيئاً، ثم عمليات اختبار اللاسلكي والحركة عندما يتعيَّن عليه أن يكون يقظاً، ثم لا شيء. وكان يقرأ هناك في ظلال مرآته، متتبعاً الكلمات بذهن تشغله حركة الراديو، وعقل في ثلاثة أماكن أو أكثر في الوقت نفسه: تخشيبة البرج الثاني، والفضاء الميتافيزيقي لمكالمات الراديو، وفضاء الرواية ذاتها. ربما كان يخاطر بوظيفته، ولكنه على الأرجح، حصل على إذن لقراءة إنديميون دان سيمونز في أثناء انتظار إطلاق النار على شخص ما.

***

يكتب هنري جيمس -الذي لم يكن يفتقر قط إلى الاستعارات الفنية، ما يتطلب إيضاحه اقتباساً كاملاً- عن نافذة في مقدمة «بورتريه سيدة»:

«بيت الرواية باختصار لا يملك نافذة واحدة بل مليون نافذة؛ عدد من النوافذ الممكنة التي لا يمكن حسابها، بالأحرى؛ كل واحدة منها قد اختُرقت، أو لا تزال قابلة للاختراق، في جبهتها الواسعة، بسبب الحاجة إلى الرؤية الفردية ووجود الإرادة الفردية. هذه الفتحات، ذات الشكل والحجم المتباينين، تتدلى، معاً، على المشهد البشري الذي ربما توقعنا لديها تشابهاً أكثر مما نجده. إنها مجرد نوافذ في أحسن الأحوال، مجرد ثقوب في جدار ميت، منفصلة، تطفو عالياً؛ إنها ليست أبواباً مفصلية تفتح مباشرة على الحياة. لكن لديها هذه العلامة المميزة، إذ تقع في كل منها شخصية بعينَين، أو على الأقل بزجاج ميداني، ما يشكل، مراراً وتكراراً، أداة فريدة للمراقبة، تضمن للشخص الذي يستخدمها انطباعاً متميزاً عن غيره. يشاهد هو وجيرانه العرض نفسه، لكن أحدهم يرى الكثير حيث يرى الآخر القليل، ويرى أحدهم اللون الأسود بينما يرى الآخر الأبيض، ويرى الآخر الكبر حيث يرى الآخر الضآلة، ويرى الآخر الجلافة حيث يرى الآخر الرقي... لكنها، فرادى أو مجتمعة، لا شيء دون الحضور المعلن للمراقب. بعبارة أخرى، وعي الفنان».

الكلام عن الجانب الآخر من الزجاج صحيح. علينا فقط استبدال كلمة «فنان» بكلمة «قارئ» لنرى أوجه التشابه. ما يمكن قوله عن الكاتب ينطبق أيضاً على القارئ. يدور الزجاج على قرص

كبير مثل الباب الدوار، ويجد القراء والكتاب أنفسهم على الجانب نفسه. لا حاجة إلى الانفصال. هذا لأن القراءة شكل من أشكال الترجمة. والترجمة هي الكتابة، ما يسميه والتر بنجامين «نمطاً» للأدب، عمل إبداعي بحد ذاته ومثال لغة خالصة موجودة بحد ذاتها. يتغير العمل الفني، ويتغير مرة أخرى، بعدد المرات التي يواجهه فيها القراء.

القارئ هو الكاتب الحقيقي (لترجمته الفردية للعمل)، والكاتب هو فقط القارئ الأول للكتاب الذي كتبه. صحيح أن الكاتب قارئ خبير، ومن الواضح أنه مألوف -حتى الغثيان- لمنتَجه، قارئ متحيز. كما نحن جميعاً. ومع ذلك، فإن خبرة الكاتب لها حدودها في الصمت المفروض على الكاتب -وعلى جميع قرائه- بمرور الوقت.

عندما عملت في أحد مراكز الحد الأدنى للرجال، أتذكر رجلاً أراد بناء كوخ. من طريق الإعارة بين المكتبات، طلبت كل كتاب متاح عن الأكواخ. «تأطير الأخشاب»، و«تأطير الأخشاب للجميع»، و«الكابينة الخشبية»، و«آلة التكسير الكلاسيكية» وغيرها الكثير. عند الحديث عن الأكواخ، يتحوَّل لون الرجل إلى الأحمر من الغضب، رافعاً إصبعه في الهواء. لم يكن يريد بناء «خردة ريفية». لقد أراد أن يصمم هيكلاً حقيقياً متيناً وإطاراً خشبياً بطريقة حذرة من الماضي.

ما حدث أنه كان متورطاً في القتل غير العمد، وقد قتل أسرة مكونة من أربعة أفراد في أثناء القيادة تحت تأثير الشرب. لا يتذكر شيئاً عن تلك الليلة إطلاقاً. كان هناك فجوة في الذاكرة. كان الأمر كما لو أن تلك الليلة لم تحدث قط. كان الحادث أمراً فعله ولم يختبره. الآن هو في أواخر الستينيات من عمره، شعره أشيب بذيل حصان، وأنفه المشوب بالندوب مع نتوءات عميقة وشقوق لسكِّير سابق، وقد كانت وردية من الصحة. لم يخرج من السجن أبداً، ولذا كان عليه بناء الكوخ بالكامل في ذهنه.

عندما عملتُ في منشأة للنساء، كانت هناك امرأة تطلب نسخاً مصوَّرة من الكتب المتوفِرة في المكتبة من أجل البطاقات التي كانت تصنعها لطفلها الصغير. كانت تجد كتباً مصوَّرة على الرفوف، وتضع علامة على الصفحات، وتملأ نموذج طلب النسخ، الذي يطلب عادةً الإدلاء ببعض التفاصيل. من النسخ، كانت تقصُّ الطائرات و«حراس القوة»، وتلوِّن بعضها، وتترك بعضها الآخر دون تلوين، ليلوِّنها بنفسه عندما يتلَّقى البطاقة ويتمكنا من التلوين معاً.

عندما تتحدَّث عن ابنها، كان وجهها يتوهَّج ويداها تتعانقان أمامها، وعيناها تنظران فوق رأسك بالطريقة التي يتوقَّف فيها الممثلون في مسرحيات برودواي وينظرون نحو الأضواء قبل الأغنية، كما لو أن الصبي يعيش في السماء. لم أستطع استيعاب شيئين: كانت عواطفها حقيقية، ولكنها كانت تمثِّل أيضاً. يوجد شيء ما غائب عن المشهد، ولم أستطع معرفته.

كانت تكلفة كل نسخة خمسة عشر سنتاً، وتُغطَّى من «كتبها» أو «حساب النزيل». لم يكن لديها أي دعم مالي في السجن، لذلك كان عليها أن تكسب المال من وظيفتها «مدبِّرة منزل»، وتنظيف

مناطق الموظفين. كانت تجني ٤٢ سنتاً في اليوم. ستكلِّفها عملية التصوير أكثر من يوم عمل. للتوضيح، عليها تغطية تكلفة المغلف والطوابع والقلم لكتابة الرسالة.

بعد عملية النسخ الثالثة تقريباً، علمت أن المرأة قد وقعت ضحية ابنها. لم يُسمح لها بأي تواصل معه، لا شيء إطلاقاً. كانت النسخ والبطاقات أملاً ووهماً. كانت تضعها في البريد، وتضع غرفة البريد علامة عليها. لن تغادر السجن أبداً. لن يراهم الطفل أبداً. كانت تعرف ذلك، ولم تكن تعرفه في الوقت نفسه.

كان كل من الرجل والمرأة يقرآن القصص الخيالية للبقاء على قيد الحياة في وضع لا يطاق.

يرى يونغ الأمر بنحو مختلف. يصف العمل الفني بأنه فيروس ذو شخصية، «كائن حي يستخدم الإنسان فقط وسيطاً غذائياً» لتحقيق غرضه الخفي. أنا أقول أن القارئ لديه الشخصية، والقراءة نفسها هي الفيروس داخل كل واحد منا. لسدِّ الفجوة بين هذين المفهومين، فإن العمل الفني عبر ترجمة قراءته يكون قوياً وعاجزاً في واقع القارئ: الاثنان في الوقت نفسه.

رغم أن الكلمات تتلعثم بترتيب معين، فإن الكتاب ليس حقيقة ثابتة في عصرنا أو في أي وقت آخر. الكتاب، حتى لو كان مجلداً مليئاً بالغبار في المجال العام، هو عملية مستمرة، وفقاً لأمين المكتبة والمنظر الهندي العظيم إس آر رانجاناثان، في قانونه الخامس لعلوم المكتبات، «المكتبة كائن حي متنامٍ». نشوِّه المحتويات بطرائق مثيرة للاهتمام. نحن نعرف هذا؛ ننسى ذلك كل يوم.

***

مرة في يوم إجازة من العمل في سجن للأولاد المحكوم عليهم كبالغين، كنت أستقل الحافلة الإقليمية بين المدن لزيارة الأصدقاء عندما رأيت رجلاً في الأسفل يقرأ في أثناء القيادة. كان الشتاء قارساً وسيارته الصغيرة مغطَّاة بالصقيع، الذي غطَّى سيارة برتقالية صغيرة في داخلها رجل ضخم جداً. رأيت رجلاً ضخماً، وهو ينجرف في الممر الأيمن، تقدمت ببطء إلى الأمام حتى أتمكن من رؤية السيارة. كان ملفوفاً بالكامل في معطف من الصوف، وقفازات سوداء، وقد سحق قبعته بالسقف، ووشاحه ملفوف بإحكام.

كانت النوافذ مغطاة بالضباب؛ لم تكن لديه مدفأة. لقد أزال ثقباً صغيراً في الجليد، يكفي فقط للتجسس، محاطاً برغوة بيضاء، وركب في حوض مائي مظلم، يقرأ كتاباً. نظارته قاتمة، مثل نظارة روبرت هايدن، ويبدو أنها مصنوعة من طبقات متدرجة من الزجاج الأخضر، في قاعها عين صغيرة منكمشة. كانت يده على لوحة القيادة، تحمل رواية مفتوحة بين الإبهام والخنصر. وانجرف نحو الماضي.

لا أستطيع تخيُّل مدى تعقيد الانتباه الذي كان يمكنه فعله دون أن يموت، ولكنه كان يدير الأمر في ذلك الوقت، ولا يمكنني تخيُّل الجوع، أو الإكراه. لا بد أنه شعر بمعرفة ما سيحدث بعد ذلك

على جسر مركبة الشحن، بينما يندفع بسرعة خمسة وستين ميلاً في الساعة في سيارته، متوقعاً حتى اللحظة الأخيرة الوصول إلى العمل.

***

في روايتي «ديوراماس»، تكون ديوراماس بديلاً لأشكال الفضاء الميتافيزيقي التي جرت مناقشتها هنا، إذ تمثل قراءة المشاهد خلف الزجاج لويغينز (المحاضر القديم) فعلاً وجودياً وميتافيزيقياً يمكن أن ترتبط به أية مجموعة من الأفكار، من المحتمل أو غير المحتمل، أن تكون مرتبطة بالعالم أو لا. إنه يبحث عن إجابات ضمن وسيط (ديوراماس ومواقفه)، حيث لا توجد إجابات واضحة.

عقيدتي أن كل شيء ينبع من تجربة القراءة، فعندما نبدأ حديثنا الجماعي عن الأدب، نضطر إلى التجاهل، فهو أمر غير قابل للترجمة في البداية. بعد كل شيء، ماذا نقول بعد أن ركبنا قطار الملاهي، وقبَّلنا شخصاً ما، وتركَنا، وركض جانباً، وهرب؟ إنها بالضبط التجربة التي تستعصي على اللغة. في وسطها فراغ ليس لدينا خيار سوى اعتباره أمراً مفروغاً منه.

نشعر بالقلق يزحف عندما ندخل «فضاء الأدب». نتخيل أنه من الأفضل أن نستدير ونعبر الحجاب ثانيةً ونعود إلى العالم. ولا شك أن هذا أمر حكيم: يوجد الكثير لنقوم به، والكثير الذي ينبغي فعله إذا أردنا النجاة معًا. استجابةً لهذا القلق، نجعل الوقت الذي نقضيه هناك، في الفضاء الميتافيزيقي، يُحسب للوقت الذي لا نقوم فيه بتحسين العالم. نطالب عالم البخار بما نشعر أنه يجب علينا فعله بعد أن ننتهي ونعيد عبور الحجاب. لكن الكثير من حياة الإنسان يقضيها في الفجوات بين العوالم، في الفضاء الميتافيزيقي للفكر، فضاء الفكر، وفضاء العقل، وأنواع الغموض التي لا علاقة لها بمحتويات كتاب تقرأه عن كثب. نقرأ بنقاء، ونية مسبقة، وشعور بالذنب، متناسين الطرائق الحقيقية التي يظهر فيها عدم الانتباه: الخطأ، والملل، والانزلاق. باختصار إنه يوم عادي، في تجربتنا مع القراءة.

***

عند كتابة «ديوراماس»، خلال السنوات الطويلة التي سبقت الانتهاء من المسودة الأولى، تلقيت بعض العلاجات الطبية التي تسببت في فقدان ذاكرتي قصيرة المدى وجزءاً من ذاكرتي طويلة المدى. أتذكَّر أني عدت من المشفى ورأيت كومة من الأوراق وكنت أقلِّبها بإبهامي وأتوقف لقراءة فقرة وليس لدي أية فكرة عما تعنيه أو ما هي مرتبطة به. كنت أعلم أني كاتب، ولكن لم تكن لدي إمكانية الوصول إلى ما مضى. شعرت بوجود شخص آخر (مترجم لم أعرفه من قبل) مثل ظل في الخلفية. لقد كان يحتفظ بهذا النوع من السرِّ الذي يخترق، ولكنه لا يكشف عن نفسه أبداً، ولكنه دائماً يعمل على الوصول إليك.

الشيء الوحيد الذي استطعت تمييزه هو نسخ الكتاب يدوياً. لقد نسختُه، ولم أغيِّر شيئاً. بعد ذلك، لم تكن لدي أية فكرة عما بداخله، لذلك نسختُ الكتاب عبر IBM Selectric II، وبعد ذلك

بدأت ببعض الومضات الخافتة بالظهور، ولكنها لم تكن كافية لمواصلة العمل. لذلك نسختُ الكتاب بأكمله مرة ثالثة، بوساطة وورد. ورغم أن محتويات الكتاب لا تزال غير متماسكة، فإنه يمكنني على الأقل بدء التحرك نحو مسودة ثانية، مع التركيز على المشاهد القصيرة: النوافذ التي تفتح على «ديوراماس» الوهمية. ولكن حتى يومنا هذا، ورغم أن الكتاب بُنِي بعناية، فإنني ما زلت لا أتذكَّر ما بداخله.

***

بصفتي أمين مكتبة، تلقيتُ تعليماً في قانون المكتبات وحقوق السجين في القراءة، وهي المستندات التي تحرك قرارات وممارسات المكتبات داخل السجن وخارجه في جميع أنحاء البلاد، وتعكس بين المكتبيين إيماناً معيناً بحقوق الإنسان. أنا متمسك بها بإحكام شديد. ومثلما يكون نوع معين من القراءة مهماً بالنسبة لك، فهو مهم بالنسبة لي. حتى لو لم أستطع رؤية الشكل الذي تأخذه قراءتك من الداخل، حتى لو أسأتُ الفهم، حتى لو افتقرتُ إلى الخبرة أو الذكاء أو القدرة على تخيُّل ما تعنيه حقاً لك أنت من الداخل، أو إذا كانت الحقيقة على الصفحة مع دخول الكلمات مختلفة بنحو ملحوظ عن تطلُّعاتك، فأنا أقرُّ باستحالة التقاط ذلك. أعترف بوجوده في كل إنسان.

اعتاد المخرج التجريبي ستان براكاج أن يضغط على جفنيه بأصابعه لإثارة ومضات ضوئية يقوم بتحريكها على فيلم مقاس ١٦ مم، إطاراً بإطار، ٢٤ إطاراً في الثانية. أربعة وعشرون تكويناً صغيراً، التي تُجرى بالطلاء وأقلام التحديد والخدوش على سطح بحجم الصورة المصغَّرة، للحصول على ثانية واحدة من الفيلم. كانت الأنماط التي وجدها في الظلام فريدة من نوعها في تلك اللحظة بالنسبة إليه. لقد كانت تعبيراً عن نفسه ورؤيته في ذلك المكان والزمان، وكان هذا بالنسبة إليه التمثيل الأكثر صدقاً وحماساً الممكن حشده: شخص واحد، وملاحظته، في مكان واحد، في الوقت نفسه، مع وضد ثقافة «الرؤية»، السائدة في العالم هناك.

بالمثل، فإن مسرح القراء المتحرِّك عقل فريد تماماً لا يمكن التنبؤ به، إذ يتغيَّر ويدخل في حالة الفوضى، ويخرج منها، في فعل القراءة نفسه، ويسقط، ويتجوَّل، ويعود، وينشئ روابط مروِّعة قد تكون -أو لا تكون لها- علاقة إطلاقاً بالنص الموجود في متناول اليد. قد يقودنا إلى بعض الجمال في الحياة بين الأشخاص الآخرين، أو -فعلياً- إلى فكرة مروِّعة عن التدمير وحدَه، أو قد لا يؤدي إلى أي شيء إطلاقاً. هذا ليس سؤالاً أخلاقياً -ما الذي يمكن أن تفعله القراءة لتحسين شخص ما؟ مثلاً- هذا سبب للقراءة ونوع من القراءة، كليهما. هذا صحيح لسبب بسيط هو أننا بشر.

لا، إنها عاصفة العقل استجابة لعاصفة اللغة التي تدور في أرض منبسطة مظلمة، وعدم القدرة على التنبؤ بها، وهذا ما أودُّ لفت الانتباه إليه ليس لأنه جيد أو حتى أفضل من أي شيء آخر، ولكن لأنه -مثل مفاجأة ترجمة ستان براكاج عن الرؤية في مكان وزمان واحد- أقرب إلى الواقع، إلى طريقة لرؤية المكان الذي نقرأ فيه. يبدو لي هذا أكثر من اقتراح أو طلب للقراءة بطرائق معينة خشية أن

نفقد ديمقراطيتنا، ونفقد قدرتنا على التركيز، بعد أن انجرفت الثقافة إلى القتل، واليأس، وعدم الانتباه، والعمى، في فوضى غرفة واحدة تفقد عقلها.

تختلف الطريقة التي يقرأ بها شخص ما، على أعمق مستوى إنساني، عن طريقة قراءة شخص آخر. وهذا شيء يثير الرهبة بدلاً من الاحتفاء به نشيداً للفردانية: إنه هذا فقط، كما هي القراءة بكل بساطة، لهذه اللحظة القصيرة من ثقافة الطباعة.

أوراق
التشكيل

حوار محمد زعل السلوم

كاتب ومترجم ومدير تحرير أوراق

مجلة أوراق تحاور النحات والفنان التشكيلي

عمر إبراهيم

ابن مجل شمس المقيم في بايون فرنسا

شكل التمازج اللوني بين الأبيض والأسود أصدق حالة تعبير عن أزمتنا في سوريا وعن تعاطفي مع الثورة وما شهدناه من مجازر ودمار...

اللوحة مستمرة والكتابة مستمر وطوحي تحرير الإنسان داخلياً.

جسدّتُ الغرنيكا السورية بجدارية الوحوش كما جسدّت المرأة السورية بجبل قاسيون لتكون المرأة الجبل

عمر إبراهيم فنان تشكيلي سوري وكاتب مقيم في فرنسا، تخرج من كلية الفنون الجميلة في دمشق – قسم النحت عام ٢٠٠٢، يعمل ويقيم حالياً في باريس. له معارض فردية ومشاركات جماعية داخل سوريا وخارجها، إضافةً إلى ورشات عمل في عدة جامعاتٍ أوروبية، وعدة أعمال معروضة في العاصمة الفرنسية. وقد رغب أن يمنحنا رأيه المهم حول الفن وثورة السوريين، قبل بدء الحوار عن حياته وأعماله.

*****

الفن وثورة السوريين

قد يبدو للوهلة الأولى أن تناول عنوان كبير من نوع الفن والثورة أمر شديد التعقيد ويحتوي على تعميم عقيم حول إمكانية الإحاطة بهذا القدر من المعنى المتسع بما يحمله من إسقاطات عميقة ومجالات واسعة للبحث وتعميق الفهم حولهما كمفاهيم فضفاضة، ولكن أكثر ما قد أكون معنياً به اليوم هو توضيح تلك العلاقة العفوية والجدلية التي تمت خلال ما يقارب ١٢ عام ما بين الثورة السورية خلال مسيرتها ومراحلها المتداخلة بدءاً من كونها انتفاضة للشعب السوري للإصلاح مروراً بالثورة ولاحقاً التسليح ومن ثم الأزمة والحرب وصولاً لفوضى ما بعد الحرب، التي لا نزال نعيش ترددداتها وتأثيرها علينا حتى اليوم، والتي أفرزت العديد من النتائج كان أهمها هنا هو موجات الفنانين السوريين سواءً الذين بقوا في سورية أو الذين غادروها وتأثرت أعمالهم الفنية بشكل مباشر أو غير مباشر بأحداث الثورة السورية سواءً الذين اصطفوا منهم في موقف معارض للنظام وسياساته أو من كان موالياً لبقاء النظام السوري أو من وقف على الحياد.

هذه العلاقة الخاصة والعفوية بين الفن وما تم إنتاجه خلال سنوات الأحداث من جهة وأحداث الحراك الشعبي الثوري من جهة أخرى هي أشد ما أثار اهتمامي خلال ما يقارب العقد الماضي من الزمن.

فقد وجد الكثير من الفنانين التشكيليين السوريين أنفسهم أمام واقع مؤثر في أعماق الوجداني الجمالي للفنانين أقل ما يمكن وصفه به هو أنه صعب، محير وغير قابل للاستيعاب والهضم السهل المباشر فكرياً كان أم إبداعياً. فبدأت أعمالهم بقصد أو من غير قصد بالتأثر بهذا الحراك الشعبي وما تبعه من الوحشية المدمرة على المدن والقرى السورية والتعبير عنه بزخم إلى حد بات الشغل الشاغل للكثيرين من المشتغلين في هذا المجال التعبير عن شدة وطأة المشهد بصرياً ونفسياً بعد أن بات مشاهدة فيديوهات القصف والاعتقال والتعذيب وعمليات التصفية أمراً يومياً يعيشه السوريون ويتناولونه بصرياً ووجدانياً بشكل غير واع لآثاره على الذات البشرية أو خلق مسافة أمان منه كمثل الكثير من أشياء تفاصيل حياتهم اليومية غير القابلة للكثير من التحليل والفهم.

تلك المشاهد البصرية المحملة بالكثير من الألم والتي اتصفت بالثقل على البصر والوعي الواقعي والفني للفنان قادت الفنانين التشكيليين السوريين إلى تغيير الكثير من ثيمات العمل القديمة (موضوعات العمل) التي قد عملوا عليها خلال سنوات سابقة وخصوها بالبحث والدراسة والممارسة الفنية فكرياً وثقافياً ليبدؤوا بتجسيد أعمال فنية تمثل هول المأساة السورية وعمق المصاب وهنا نرى كيف طغت بصرياً سكاكين الحرب والبنادق والهياكل العظمية وغيرها الكثير من عناصر بناء التكوينات الفنية رسماً ونحتاً وأعمال تركيبية وسينمائية وغيرها الكثير كذلك دلالات الألوان التي بدأت بتقلد معان جديدة قد تكون غير مألوفة سابقاً كالألوان الباردة أحياناً للتعبير عن نفور وبرود الواقع من جهة أو الحارة للتعبير عن قوة وصعوبة المشاهد اليومية الدموية المتابعة عبر وسائل الإعلام ووسائل التوصل الاجتماعي والرماديات واللا لون كالأبيض والأسود، الأمر الذي ظهر جلياً في أعمال فنانين كثر كان مثالاً عليه من نوع الفنان عمران يونس في رسم براميل الموت وثيمة الموت المتكررة في أعمالها وعنف هذا الموضوع بالأخص في تجربة الفحم التي عمل عليها طويلاً محاولاً تعميق بحثه. كذلك الفنان عبدالكريم مجدل بيك الذي بات يستخدم أقمشة الخيام والألبسة المتبقية بعد التفجيرات ليلقيها فوق فراغ العمل ويحيكها مع بعضها دلالة على أماكن التهجير والتفجير والدمار، واستحضاره مجموعة من السكاكين والمسدسات يكررها فوق فضاء العمل. وطبعاً فإن الفنانين يونس ومجدل بيك ما هما سوى مثالين من أعمال كثيرة لفنانين سوريين شباب عاصروا هذه المأساة وعبروا عنها بطرائقهم. أذكرهما على سبيل المثال وليس الحصر.

كان من أهم ما ظهر على الساحة الفنية التشكيلية السورية خلال هذا العقد أيضاً أنواع فنية جديدة، كان حيز حضورها سابقاً قبل الثورة السورية ضيقاً ولم يكن شديد الانتشار مقارنة بفنون بصرية عرفناها من مثل نوع "فنون الغرافيتي – الرسم على الحائط وقد يكون الرجل البخاخ من أكثر الفنانين خفة للظل في تلك المرحلة التي ظهر فيها مقنعاً يخط جمل مناهضة للنظام السوري ويجري تصويره بتقنية فيلم بسيطة على شاشة الخلوي لينتشر بعدها بقوة في وسائل التواصل الاجتماعي حاملاً رسالته للناس. كذلك رأينا تطور نوع فن الأنستليشن (الفن التركيبي) الذي باتت مواد المخيمات وبقايا أماكن القصف والمواد المهملة عنصراً أساسياً فيه ومادة مقدمة بشكلها الجديد رسالة ومعنى يؤكد على مناهضة الحرب أو التوثيق لمجزرة أو قصف ما في منطقة من مناطق سورية المتضررة. أضف إلى ذلك النشاط الشديد لفن الأنيمشن (فن الكرتون المتحرك) والذي كان وسيلة تعبير مباشرة عن الاستنكار والرفض لممارسات القمعية والوحشية في الساحة السورية أو لتوثيق حدث ما أو لاستنهاض الهمم وحشد الناس للمطالبة بحقوقهم. وقد تكون سلسلة "كرتونة سوداء من دير الزور" من أشد الأمثلة تعبيراً عن ذلك.

كذلك شهدت الساحة التشكيلية السورية ظهور مجموعات كان لها دور هام وأساسي في التغطيات الإعلامية من خلال إصدار مجلات إلكترونية وبوسترات تحض على الثورة من مثل مجموعة "الشعب السوري عارف طريقه" أو مجموعة "عنب بلدي".

في الجانب الآخر، نرى كيف أثر الفن في الحراك الشعبي السوري والذي بدأ بالظهور والتجلي من خلال استخدام بعض الناشطين الثقافيين أو السياسيين أعمال الفنانين التشكيلية (صور وأعمال مطبوعة عن أعمالهم) حيث تم توظيفها في المظاهرات أو في وسائل التواصل الاجتماعي لضخ وعي شعبي بأهمية الصورة البصرية في الحراك الشعبي وقوتها التأثيرية على الداخل السوري والخارجي الإقليمي والعالمي. ومن خلال هذه الإعمال تم تكريس أهمية هذا الحراك وزاد من الاهتمام الشعبي بقيمة الفنانين في هذه المعركة اليومية الحياتية لدى الجمهور السوري بعد أن كان الفن التشكيلي إلى حد ما لا يعتبر مهنة حقيقية كباقي المهن ويتم التعامل معه كهاوية ونشاط ليس أكثر. الأمر الذي ربما لم يكن الجمهور السوري قد اهتم به أو تعمق سابقاً لأسباب اقتصادية ودينية ومفاهيم اجتماعية حول الفن التشكيلي ليصبح هذا النوع من الفنون رافداً للحراك الشعبي وداعماً له. وقد كان لبعض الأفراد - غير المختصين - نشاط مميز ضمن هذا التحرك الثوري الفني مثل ما شهدناه من "لوحات كفرنبل" والتي تم عرضها على وسائل التواصل الاجتماعي ليتم نقل بعضها لاحقاً وعرضه في بعض المدن الأوربية وقد لاقت هذه البوسترات/اللافتات تعاطفاً كبيراً في الشارع السوري وفي الخارج.

من الواضح أن الحراك الشعبي السوري رفد الفن التشكيلي السوري بزخم شديد من فيض المشاعر والأحاسيس والأفكار. ونحن هنا لسنا بصدد التدليل ودراسة مدى قيمة هذه الأعمال الفنية، الأمر الذي قد نتعامل معه في بحث آخر كذلك سيقوم الوقت بدوره بفرز للقيمة التعبير والجمالية والثقافية والإنسانية لهذه الأعمال التي أتى قسم منها كرد فعل مباشر على قسوة المشهد السوري خلال هذه السنوات الاثنتي عشر الماضية.

رفد الفن التشكيلي السوري في هذا العقد الأخير الشارع السوري بهوية بصرية قوية وحاضرة لم نشهدها خلال العقود الخمسة الماضية من حكم النظام السوري للبلاد أسهمت إلى حد ما بنشر رسالة الشعب السورية في الخارج والداخل والعمل على توثيق لهذه المرحلة المصيرية من تاريخ البلاد.

أما أهم ملامح هذه المرحلة والتي نشهدها اليوم على الصعيد الفني كذلك على الصعيد السياسي هو وصول أعداد كبيرة من الفنانين التشكيليين السوريين إلى بلاد كثيرة حول العالم واستمرار عدد لا يستهان به بتطوير بحثه وتجربته الفنية ليكون صوت من لا صوت في الداخل السوري وليكون ربما الأقدر بحكم مساحة وجوده في مساحة حرية أوسع في البلاد المضيفة على نقل رسالة إنسانية وحضارية واضحة بعد أن تلقى العالم سورية في وسائل الإعلام الدولية على أنها بقعة نزاع مسلح بين قوى لا تقل تطرفاً عن بعضها بعضاً. فإذا بشريحة الفنانين السوريين تنقل ملمحاً آخر من

ملامح تلك البلاد المنهكة. لطالما ارتاحت أفئدة السوريين لوجوده رغم كل الصعوبات. فهل سينجح الفنانون السوريين بالوصول إلى شرائح أوسع في مجتمعاتهم الجديدة وتطوير بحثهم وعملهم الفني أمام الصعوبات التي تواجههم في التأقلم والتكييف داخل المجتمعات المضيفة لهم. وهل سيكون لهم أثر واضح في هذه المجتمعات خصوصاً أننا شهدنا في العقود القليلة الماضية أسماء سورية برزت في الساحة التشكيلية العالمية والإقليمية من أمثال مروان قصاب باشي وفاتح المدرس وصفوان داحول وغيرهم؟

أسأل هذا برسم الزمن للإجابة عليها للدلالة ربما على مدى صلابة المنتج التشكيلي السوري خارج عوامل الحظ والقدر.

*****

أوراق تحاور التشكيلي عمر إبراهيم:

لاحظنا في اللوحات الأخيرة المنشورة لكم وكأنها تتجلى بألوان العلم الفلسطيني، فما تعليقكم، وما هو آخر مشاريعكم؟

عمر ابراهيم: اللوحات الأخيرة عبرت عن هم إنساني وجداني قبل الهم السياسي. بطبيعتي، أنا دائماً منحاز للضعفاء، ولكن لوحاتي الأخيرة أخذت تعبر عن هاجس آخر وهو الانحياز والتركيز على الفضاء الداخلي للكائن الإنساني بشكل خاص والموجودات في هذا العالم بشكل عام وذلك ضمن مراجعتي لذاتي والوعي بها، هذا الهاجس كان قد بدأ منذ شهر، وقبل ذلك كنت قد عملت على عدة مشاريع أخرى خلال السنوات الإحدى والعشرين الماضية ومنها وجوه من الذاكرة السورية لسنتين وقبلها مشروع للتعبير الفني المعاصر من خلال الخط العربي واستمر البحث أيضاً لعامين وقد تناول مشروع الخط العربي بصفة تجريدية معاصرة بعيدة عن تقاليد الخط العربي الصارمة والدقيقة كذلك كان مشروع وحوش والذي تجلى بهاجس معين بعد وصولي إلى فرنسا لمعالجة عدوي الداخلي وبالنسبة لمشروعي الأخير والحالي ربما كان الفضاء الداخلي يتقاطع بشكل غير مباشر مع الحالة الفلسطينية كحالة إنسانية نمر بها ونسمع أخبارها ولو أن وعيي أصلاً لم يكن متمحوراً تماماً على القضية الفلسطينية ولكن ربما أثارت اهتمامك طبيعة الألوان المستخدمة بالأحبار الصينية كونك متلقياً، والمعروف أن المتلقي شريك إبداعي للفنان من حيث القدرة على قراءة العمل الفني وصياغة تجلياته وفهمه وأحاسيسه الخاصة للعمل.

لماذا كانت ألوان المرحلة التي اشتغلت فيها بتأثير من قيام الثورة السورية يطغى عليها اللونين الأبيض والأسود وكيف تحولت اللوحة إلى عمل ملون بالدرجة الأولى في المراحل اللاحقة لدى عمر إبراهيم؟

عمر إبراهيم: كانت الثورة السورية وفيما بعد التي ستتحول بدورها إلى أزمة ومن ثم إلى حرب أياً كانت التسميات التي نطلقها على كل مرحلة. هي المحرضة لمرحلة مشروع الحصان والضبع التي ستتوقف فيها الألوان عن الظهور ضمن عملي وأقتصر المشهد البصري فيها على الأبيض والأسود لإحساسي أني بهذين اللونين سأكون أقدر على تمثيل ما أريد بأصدق ما يمكن. لم أكن يومها قادراً فعلاً على استخدام الألوان أمام المشاهد اليومية الفظيعة التي كنا نشاهدها في وسائل التواصل الاجتماعي أو وسائل الإعلام. الأبيض والأسود اختصروا حالة المجازر والقصف والدمار والتهجير

حينها، استمرت هذه المرحلة وأقصد مرحلة اللون بالأبيض والأسود في أوجها خصوصاً بين أعوام ٢٠١١-٢٠١٤. لاحقاً سأقوم بإضافة بعض أنماط اللون المونوكرومي «الحيادي» مثل الأزرق للتعبير عن الضوء وحالة الحلم بالحرية والخلاص أو الأورانج للتعبير عن لون الدماء ربما كنوع من الرغبة بخلق الأمل أمام فعل الحياة والموت اليومية المكثفة التي شهدناها حينها أو لتجنب المباشرة من رسم اللون الأحمر كلون للدماء والاستعاضة عنه باللون البرتقالي الذي يحمل شيئاً من السلام، بعد عام ٢٠١٤ وعندما وصلت إلى فرنسا كانت حدة المشاهد اليومية التي عايشناها في سورية قد خفت قليلاً، وبدأت الألوان تدخل أكثر إلى لوحاتي وبدأت بعض المواضيع والثيمات الجديدة بالدخول إلى أعمالي من مثل موضوعة جنرالات الحرب وقضية اللاجئين حول العالم. وإذا تحدثت عن خط زمني واضح أستطيع أن أعتبر أن ألواني قد تحولت وتغيرت المجموعات اللونية التي أعمل عليها ما قبل عام ٢٠١١ ومن ثم بين ٢٠١١-٢٠١٤ والألوان الإضافية بين ٢٠١٤-٢٠٢٢. أما لماذا عدت إلى الألوان اليوم في مشروعي الأخير فبسبب حاجتي في هذه المرحلة داخلياً إلى العودة إلى الزخم اللوني الذي كنت أرسم بها ما قبل عام ٢٠١١، ربما كان السبب أنه بعد الثورة بدأت التوجه للبحث عن حلول يومية وتشكيلية للتعامل مع الوضع الإنساني القائم في منطقة الشرق الأوسط الذي يحمل الكثير من الأزمات وحاجتنا الماسة اليوم إلى خلق فن قادر على تجسيد محبتنا للحياة وتمسكنا بها على الرغم من كل المآسي التي تمر بها المنطقة، ربما أستطيع القول إني وصلت لمصالحة من نوع ما مع نفسي وواقعي في هذه المرحلة من حياتي ليعود زخم الألوان للتخلي ضمن فضاء العمل الفني.

هل تحدثنا قليلاً عن لوحاتك "فضاء داخلي" لهذه المرحلة وما هي الألوان وكيفية عملك على اللوحة؟

عمر إبراهيم: باتت الأولوية اليوم لفضاء العمل، للفراغ الكبير الذي يمثل أمامي وكيفية التعامل معه. لم أعد أشعر بالحاجة إلى عناصر لوحتي القديمة من بيوت وأشجار وجنرالات ووحوش... القيمة الأولى والأخيرة للفراغ بمعناه الصوفي، الواعي، والذي يحمل حقيقة من نكون ككائنات حية. هذا الفراغ الذي أملؤه بالألوان وأعمل على حساسية سطح اللوحة يمثل لي العنصر الأهم في بناء تكوين العمل، ودلالته البصرية. أحب التفكير بأني أعمل على إعطاء المتلقي مساحة للتأمل، للحلم وربما للسفر في أعماقه. مساحة للراحة من أعباء الحياة اليومية. أود أن تنتج أعمالاً تفك تحرر وتضيء ويكون للون والضوء الحضور الأقوى فيها.

مشروع الوجوه السورية مثير للاهتمام لأن مجرد ذكر الوجوه السورية أستطيع الاستنتاج أنها تأريخ مهم للحظة معينة وحاسمة من التاريخ السوري، كيف تجلى هذا المشروع لدى عمر إبراهيم وكيف عبر عن الروح السورية وعن أي فترة كانت تلك الوجوه؟

عمر إبراهيم: كان مشروع الوجوه السورية عبارة عن وسيط بصري أساسي لربطي بالقضية السورية التي لا أزال مهتماً بها حتى اليوم، تلك الوجوه المتعبة المنهكة من الحرب التي استهلكتها مثيرة جداً للانتباه وللإعجاب لدي، بذات الوقت فقد وجدت فيها رغم إنهاكها أنها مليئة بما يكفي من الجاذبية والروح وقوة التحدي للاستمرار بالحياة. وجْه أبي على سبيل المثال الذي لم أره منذ تسع سنوات ونلتقي عبر وسائل التواصل الاجتماعي ورغم كل تعبه لازلت أجد فيه روح قوية وإرادة واضحة لخلق أسباب الحياة. لذلك أتى هذا المشروع وهذه التجربة لتجيب عن تساؤل حميم لدي: كيف تقوى هذه الوجوه المتعبة والمنهكة من الوضع السوري الداخلي على حمل مثل هذه القوى ومن أين تأتي بكل هذه القدرة على الاستمرار؟ لذلك ترى على الرغم من قسوة ملامح الوجوه في لوحاتي إلا أنها طافحة بالضوء واللون والحياة على الرغم من كل شيء. إظهار نقائض الأمور في العمل الفني هو ما يؤمن لدي خلق حالة دراما العمل ونقطة تفجر الروح البشرية بالصرخة الأولى للحياة. ومن هذه التساؤلات ستتسع رقعة سوريا لدي لتشمل نفس الأسئلة الوجودية في كل أنحاء العالم وفي كل البلاد التي تتخللها أزمات من فلسطين إلى اليمن وأفغانستان وحتى شوارع باريس التي تشهد الكثير من المتسولين والمتعبين والمنهكين في هذا العالم ولكنهم يحملون على الرغم من ذلك سوءهم الداخلي الخاص بهم.

لاحظنا على صفحتك على فيسبوك هاجس المنفى والعزلة والوحدة، كيف يرى عمر إبراهيم هذا الهاجس وكيف تأثر به وانعكس على أعماله؟

عمر إبراهيم: أستطيع القول إني أحمل بداخلي اليوم مجموعة من الأسئلة مثل أسئلة المنفى والعزلة واللجوء أو غيرها الكثير. أما الهاجس لدي فهو أمر مرحلي يتعلق بمشروع فني ثقافي وإنساني أعمل عليه بالدرجة الأولى، أو هاجس عام يلازمني بعدما تعرفت على غايتي في الحياة في مرحلة ما من حياتي ألا وهو كيف أستطيع أن أساعد أكبر عدد ممكن من الناس من مكاني الذي أنا فيه.

لا شك أننا عانينا في سورية قبل الثورة هذا النوع من العزلة وعدم الانتماء حين كنا أرقاماً في بلد لم تستطع أن تحمل أبنائها. حين لم نعرف المواطنة واكتساب حقوقنا بشكل شرعي وقانوني. حين كنا نعاني الحاجة والفاقة وكانت مساحة الحياة والوطن محددة بحجم رغيف الخبز لدينا.

لاحقاً ولدى وصولي إلى فرنسا كنا قد حملنا منفانا وغربتنا مسبقاً بداخلنا قبل الوصول. هنا واجهنا غربة الانقطاع عن الجذور، الانقطاع عن مجتمعنا الذي كنا نعتمد عليه ويعتمد علينا في ظل غياب حماية الدولة والقانون للمواطنين. أصبحنا كأطفال لا يملكون لغة للتواصل ولا أهل للجوء إليهم عند الحاجة.

كانت الحاجة ماسة لملء هذا الفراغ المرعب حينها. وقد كان الفن بالنسبة إلي هو قارب النجاة الذي بدأت من خلاله رحلتي في فرنسا. من خلاله أقمت الندوات والمعارض ودرست الفنون في جامعات مرموقة في أوروبا وفرنسا. لكن الشعور بالوحدة ظل ملازماً لي خصوصاً بعد تجربتي الأخيرة مع مرض السرطان العام الفائت. حيث وقبلها تجربة الحجر الصحي في سنوات وباء الكوفيد.

الفرق بين العزلة السورية والفرنسية أن العزلة السورية كانت طوعية بمعنى أنه لا زال لديك خيار أن تكون بين أصدقاء منتقين، أما العزلة الفرنسية فقد كانت من النوع الإجباري والقسري. لقد عانيت طويلاً من العزلة الفرنسية حتى ما قبل عام ونصف وقد أبدو أني أبالغ إذا ما ذكرت أن إصابتي بالسرطان كانت الحل للتصالح بالكامل مع عزلتي ووحدتي، فقد فتحت الباب أمامي لاتخاذ قرار بالطمأنينة والسكينة وقبول كل ما يأتي من الخارج، وخلق سعادتي الداخلية بنفسي أياً كانت الظروف وعدم انتظار أن تصبح الحياة سهلة كي أكون سعيداً ومعززاً بالتفاؤل والأمل، لقد كان السرطان بالنسبة لي مثل وعاء كبير مملوء بالبارود الذي أحضر لإطفاء حرائق صغيرة موجودة في حقل نفط. فالنار الكبيرة التي يحدثها انفجار البارود ستطفأ النيران الصغيرة في حقل النفط، وهذا ما فعله المرض تماماً.

ذكرت أنك تقوم بالتدريس في جامعة إقليم الباسك العليا للفنون الجميلة في مدينتي بيارتز وبايون، والسؤال هنا: ما الذي يقدمه فنان تشكيلي سوري لطالب فن تشكيلي جامعي في فرنسا؟

عمر إبراهيم: قمت في السابق وفي جامعة دمشق حتى عام ٢٠٠٢ عام تخرجي بدراسة الفن الغربي بأكمله لاحقاً وبعد تخرجي وسفري إلى اليابان سأكمل دراسة فنون الشرق الأقصى وذلك عام ٢٠٠٦، للمفارقة درست الفنون العالمية في الشرق والغرب عدا فنون منطقتنا، وعندما بدأت بتدريس الفنون في فرنسا ازداد شغفي واهتمامي بدراسة فنون الشرق الأوسط. ما أجده مثيراً للاهتمام هو ارتباط الفنون بمنطقتنا بقضايا سياسة واجتماعية وإنسانية عامة. أما ما لمسته وعايشته في أوروبا فقد كان هناك توجه للترفيه في الفنون أكثر من تعميق قضايا يومية معاشة. هذا الأمر الذي أعطاني أفضلية في إشراك طلابي بقضايا حياتية يومية ومعاصرة وبطريقة ثقافية راقية لكن مع التأكيد على فضل القيمة الإنسانية، فقمت بتعريف طلابي على العديد من الفنانين

من الكثير من أنحاء العالم من مثل الفنانين الإيرانية الأميركية شيرين نشأت، فاتح المدرس ويوسف عبدلكي من سوريا، سامي محمد من الكويت، وغيرهم الكثير من الفنانين من جنوب أمريكا والشرق الأقصى. هذا الأمر أثار دهشة طلابي وفتح لديهم الباب على خبرات وتجارب فنية وإنسانية عميقة. وتحويل وعيهم من التعامل مع الفن وأدواته كغرض إلى التعامل مع الفن كأسلوب حياة ورؤية للواقع والذات.

تحدثت عن تدريسك لطلابك فنون من أمريكا اللاتينية ولدينا في أوراق من ترجم شعر الشعوب الأصلية في تلك البلاد وخاصة الزنوج والعبودية وكان هناك البحر، فالبحر في القصيدة الثورية للزنوج في الأمريكيتين كان يعني الاستعباد فيما كان لدى اللاجئين السوريين الطريق إلى الحرية رغم غرق الكثيرين ولكن طريق الحرية بالحالتين له ثمن، كيف وجدت رحلتك العالمية وانتقالك بين عالمين: الشرق الأوسط والغرب؟

عمر إبراهيم: تذكرني حادثة مرت بي عام ٢٠١٦ وبينما كنت أقوم برحلة في قارب الكاياك وهو قارب شخصي لواحد أو اثنين للإبحار في المياه السريعة وأذكر جيداً إني لطالما كنت سباحاً جيداً في منتخب مدينتي الجنوبية السويداء مع العلم أن أصلي من مجدل شمس في الجولان السوري. خلال تلك الرحلة وبعد أن دخلت ماء النهر ببضعة أمتار، هاجمت عقلي ذكرى صديقة لي من درعا غرقت في المتوسط في رحلة للنجاة، حينها شعرت أن الماء من حولي على وشك أن يغرقني وأصبت بنوبة هلع مفاجأة. أخبرت حينها صديقتي الفرنسية بضرورة عودتنا إلى الشاطئ. وبعد بضع دقائق انتهت نوبة الهلع وعدت إلى التجديف متحدياً نفسي من جديد في مياه النهر لأربع ساعات كاملة.

أحاول دائماً الشفاء من ذاكرتي وحنيني وتجاربي الشخصية التي مررت بها. وأعمل دائماً على إعادة تركيزي على وعي وتحدي عقلي لرؤية الوجه الحقيقي للموضوع وليس التجارب التي مررت بها. أحاول العيش اليوم خلف جدار تجاربي الشخصية. وقد صرت في حالة صلح كامل مع البحر. أنظر إليه اليوم كفضاء شاسع يعكس فضائي الداخلي من مبدأ «وتحسب أنك جرم صغير.. وأنت الكون قد انطوى فيك» أذهب لشاطئ الأطلنطي في مدينة بياريتز والذي يبعد عني حوالي نصف الساعة بالدراجة الهوائية. أمتلئ بصوته المهدئ، وأنظر لرحابة اتساعه فقد بات أخيراً لكل أحبتنا الذين غرقوا فيه وطناً يخلدون فيه للراحة. فينا تستمر رحلتنا لبلوغهم هكذا أحب أن أفكر.

وفي صدد الحديث عن الانعزال بالذات والتصالح معها فقد تعرضت للتوقيف مرتين من ميليشا حزب الله في بيروت مرتين وتذكرت أصدقائي الذين تعرضوا للاعتقال لعامين وخرجوا من السجن وكيف وجدوا لأنفسهم خلال احتجازهم نوعاً من الفضاء الداخلي رغم شعورهم بقرب موتهم في عدة لحظات، وكانوا مصدر للسكينة والطمأنينة لباقي المعتقلين من حولهم.

كيف يتعامل عمر إبراهيم مع الآخر في بلاد اللجوء؟ وما هي مشاريعه؟

عمر إبراهيم: قمت بتغيير نظرة الشفقة باللاشعور إلى نظرة الاحترام والنجاح، وعملت في الإغاثة في بيروت وعملت على مساعدة أكبر قدر من الأشخاص، وشاركت بمعارض فردية وجماعية في بيروت وفرنسا وتنقلت في اليابان والسعودية والإمارات وكان الاستقرار في فرنسا، كتبت لجريدة المدن العديد من المقالات وموقع مكاتب دمشق التابع لمنظمة الحرب والسلم التابعة للأمم المتحدة باسم مستعار هو جان بلاند، وصممت موقعاً مؤخراً فيه قسمين قسم مخصص للمقالات وقسم لأعمالي الفنية الأخيرة، كل طموحي اليوم هو أن أستطيع أن أعيش اللحظة الراهنة بكامل امتلاءها. وإعطاء الأولوية لرحلتي الداخلية مرفقة برحلتي الخارجية في الرسم والكتابة.

لو قرر عمر إبراهيم الآن أن يسأل ذاته سؤالًا، فما هو؟ وماذا سيكون الجواب؟

عمر إبراهيم: السؤال للذات هو دائرة مفرغة وتخليت عن سؤال ذاتي وخرجت من تلك الدائرة المغلقة وقبلت واقعي كما هو، أستمتع بأبسط تفاصيل حياتي والتي قد لا تعتني شيئاً لأحد. أعمل كلما كنت بحاجة إلى ذلك، وتفرغت لمشروعي الثقافي الذي أود أن أخلق فيه معنى قيمة، نعم عملت في الإغاثة والفن التشكيلي والنحت والكتابة، ولكن ما يرضيني ويرضي ذاتي ربما الآن أكثر أن أعرف أن أحد الأشخاص قد تأثر بتجربتي وأنها تعطيه أملاً للإبداع والحياة مما يرضي شعوري بأني ربما أكون قادراً فعلاً على مساعدة الآخرين.

حلم

عمر إبراهيم النحات، أين هو من ذلك؟ وما هي أعماله التي يراها مميزة مع تحولاته ومشاريعه؟

عمر إبراهيم: النحت بالنسبة لي عشق لا ينتهي مثل الرسم والكتابة ولكني أواجه حاجزين الأول هو الحاجز الصحي مثل مرض الديسك والسرطان والحاجز الثاني عدم استقراري بمكان معين فالنحت يحتاج إلى مكان ثابت وليس انتقالاً مستمراً ومع ذلك فأنا مستمر بالنحت ولكن بأحجام صغيرة.

بالنسبة للمشاريع اللافتة كانت لدي مشاركة ببيت للفنون في باريس بجدارية الوحوش قياس ٣×٦ متر، وشاركت سنوياً بمتحف تاريخ المهاجرين في باريس بأعمال جدارية عملاقة عن قضايا اللجوء وكذلك تجسيد المرأة السورية بجبل قاسيون لتكون المرأة الجبل بثباتها وتحديها للواقع وحول سؤالك لِمَ ارتبطت بجبل قاسيون أكثر مما أرتبط بجبل الشيخ وأنا ابن مجدل شمس ربما كان الأمر أن هويتي البصرية مرتبطة بجبل قاسيون، مرتبطة بلحظات السعادة اللطيفة بدمشق مثل أوراق الخريف التي تهشم تحت أقدامك في التكية السليمانية مثل ألوان السماء وتدرجات ضيائها في السويداء وهي الأشياء التي تربطنا بالبلد بشكل أوثق وهنا في فرنسا لا أشعر حقيقة أني لاجئ وأتوجه للمحيط على الدوام في بياريتز ليغمرني ويمنحني تلك الوفرة الداخلية.

ملحق
أوراق

شعر

اغتصاب
أتون جهنم الكبرى

فواز قادري

جميع الحقوق محفوظة ©

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من المؤلّف.

الإهداء

إلى:

الأرواح التي فارقت الأجساد

أرواح مشبوحة أرواح على قيد العيش

أجساد بلا أراوح وتحلم بوردة

إلى سوط يفهم ما فعل ويفعل

إلى أيدي وحوش صنعت كل هذا الدم

وأعادت عجلة الإنسان إلى قرون الهتك الأقصى

إلى إنسان عاجز

يرى ويسمع ولا يفعل شيئاً!

إلى السوريين وكل شعب

مرّت على روحه مقصلة الاغتصاب.

لا تفارقيني

وردتك تتفتّح في مكان ما

وما زال عندي تأويل أخير!.

عبور

الخبز اغتصاب

الجسد اغتصاب

الحجر اغتصاب

الحرّية من نزفت كل هذا الوقت.

أدور على مقاهي الأرصفة
أحكي قصة أصابعها المبتورة قبل الاغتصاب
لباسها الداخلي الملوّث بشرف العالم
عينيها المفقوءتين بعده
المنجل الذي سرق أطرافها
قبل أن تمشي خطوة الحب الأولى
العتمة الكاتمة لا ترعب
المخيف هو النور
الضوء شديد ولم
يحدث شيء في الظلام
ليست امرأة تروي غصّتها وتنتهي
ليست بيت أيتام أو محطة قطار أو قنّ دجاج
ليست قرية أو مدينة أو قطاراً مهجوراً
بلاد مسفوحة النهدين
ومسفوحة الدم والدمع
اغتصاب لا يرتدي أقنعة
يتدلّى كمشنقة من نار وصراخ.

**

أسكب الصباح كما تنسكب غيمة
اغتصاب مالح اغتصاب مرّ
اغتصاب يخرج شرراً مع الأنفاس
أسكب الصباح
على كل بقعة من ظلامها المهول
الزنزانة عتمة مشعّة
الصرخة العالقة في الحنجرة
هواء قديم معتقل
القيد عاصفة ساكنة في جسد هزيل
اغتصاب الأسارير وسرقة احتمال التورّد من الوجه
هناك في بئر الصمت الداكن
خلف جدران السجون العالية
آلاف الأجساد المعطوبة
هياكل عظمية تلفظ الروح.

**

في الصباح التالي
سأكسر هذه المرآة الفاجرة
علي شفتي ابتسامة وسيمة
وتريني وجهاً حزيناً ودموعاً وكآبة
اختفت الأشجار التي اغتسلت معي
في عاصفة هذا اليوم الثلجية
غدا أو بعد غد
ساتمرأى في ينابيع الجبال الشاهقة
حيث الثلوج عذراء ولا تغش
عندما أجد وجهي ثانية
سأعتذر للكلب من صراخي عليه
كانت أنثاه تعبر الطرف الآخر من الحديقة

تمرأى في عينيها ولم يعد
أخذته رائحة يعرفها
حزين أنا
وجه امرأة مرآتي
يردد قصة اغتصابها دون بكاء.

**

بنت على قيد الحياة
خيال تراه ولا تراه
تتكلّم يخرج من فمها لهب بلا صوت
بركان غضب صامت يمشي على قدمين
لاكت أفواه تمساحيّة جسدها وبصقته رمّة من رمم
ماتت البنت
وظلت تأكل وتشرب ولا تنام
كرهت نهديها منذ أن ترك الجلاد
آثار أسنانه عليهما
ماتت عيناها منذ أن قرفص وتحرك في رحمها جنين الرعب
ماتت شفتاها وذبل الرحيق
ماتت قدماها منذ أن صارتا على كتف الجنرال!
وحولهما وفوق رأسه تلمع نجوم الهتك!

**

زمن طويل من الاغتصاب
سيرة يقطر منها دم الكرامة ودم الخبز
وطن يتفكّك وتتكاثر تماثيل الطاغية
تتعالى آهات الناس وصرير المجنزرات
قبل تاريخ تفكيك الاغتصاب ٢٠١١
في عصر الهتك الحجري
عصر كيماويّ ينام في أسرّة ورئات الصغار

زمن ديناصوري
في عصر أنوار سيارات الدفع الرباعيّ وجنون الطائرات
الهراوة حنونة والرصاصة أرحم من فتح الفخذين في الأسر
الأضواء على السجون وغرف النوم
اغتصابات عصرية بمفاهيم وأسلحة وأديان
ثورة تُغتصب من كل جهاتها
تتناهبها دول عظمى
أقزام مسوخ دول خنثويّة تتمرجل
أحزاب مزابل ميليشيات ضباع.

**

هنا في البعيد
كل نجمة تحتها غريب
كل شاعر فوقه كوكب يدور
كل دمعة فوقها عين ترتجف
كل سماء تمد ذراعيها
لتحتضن سرباً تائها من الطيور
كل وردة حول خصرها يد عاشق تتعرّق
كل امرأة شرفة على العالم
أنا الذي لا ينهزم
لا أتكلّم فقط عن الاغتصاب
لا أجر أذيال الخسائر معي
لكن البلاد على وشك أن تفطس
القناديل غير صالحة للاستعمال
والأقمار عرجاء تتعكز على الظلام
الصبر أحمق وسيّئ السمعة
القصائد من عجينة ناشفة
العصافير تأخّرت على الصباح.

**

من اغتصب تلك البنت الميتة في الشارع؟
مقيّدة الأيدي وعيناها معصوبتان
ودمها يصرخ على الفخذين
ومن ثم لا غطاء ولا قبر
كيف سأقفز إلى دمعة أخرى؟
الكلمات لا تشفي الغليل
احتمال السقوط وارد
أنا الذي يستعير الأعياد المستعملة
قرعتُ تلك الطبول التي بلا صوت
ورقصتُ مثل درويش أعرج
أفتّش الصباح عن أغنية غير حزينة
عن ابتسامة تنتظرني في الطريق
الحذاء المستعار كبير على أقدام الصغير
الخجل مدهون بالأحمر الفاقع
من اغتصب ضحكته في العيد؟
الفرح في الأسواق على قفا من يشيل
يذهب الشاعر ويعود
يد من أمام وأخرى من خلف
بقلب لا يخلو من الدمع.

**

كأنني نمتُ ألف عام من القلق
كانت البلاد معروضة للبيع
ثمنها بخس وتتويج عاهة سيّداً عليها
كل شيء كان اغتصاباً فصيحاً
هتافات دراويش البرلمان
هتاف عاهة المفكرين والمطربين والشعراء

ساسة أحذية تلمع وتتبدّل حين تشتدّ الحاجة
براغ صدئة ومفكّات تصلح لجميع القياسات
صحوت بعد ألف من الصرخات
لم يقل أحد أنا بريء من هذه المذبحة
أصابع الصغار تشير إلى شهود خرس
يحركون أفوههم ولا يخرج الكلام
نزفت الوجوه الأعين
لهذا اختفت الدموع!

**

لا أسمّيكِ سبيّة
وكل هذه الأحلام تدور حولك
أسمّيك وردة وأذكّر آذار بكِ
اغتصابك سنوات تدمع
أسمّيك حرّة
وأسمع خطواتكِ في الآفاق
أراك قريبة والأبعاد تتهشم كزجاج هش
أفتح الليل بالأقمار على مصراعيه
طفل يغني بلا سبب
على بابكِ والريح تقطر من الجهات
أنا راعي سراب لا يغش
هذا ظلكِ على الأرض
والشمس تتراقص في صباح قريب.

**

لم يتغيّر طعمكِ بعد الاغتصاب
جسدك حريقي
أشتعل أدخنه وأسعل
فاكهتك مازالت على الأشجار

أشتهيها وأسعل
يتشرّبك الكيماوي
أتنفّسك أعيش بك وأسعل
أصوم عنكِ أصلّي وأسعل
الربيع فيها ليس زهرة أو قبلة مسروقة
ليس نحلة وفراشة ورحيقاً
ليس طريقاً تمشي عليه سيارات مطمئنة
ليس شرطي مرور يختار أجمل الأحصنة
يكتب مخالفات للقبح والخراب
وقت عاشق هو الربيع
ميزان الفصول وبيضة القبّان
أنجبته الطبيعة بعد حالة حب لا تتكرر.

**

بجانبكِ أنا
وأنتِ تحتالين على الدمعة كي لا تخرج
الدمع كلام ملح سائل
الدمعة معلّمة بارعة في المآتم
أو نخّاس يلتقط السبايا من حضن الأمهات
الدمعة جلاد بلا قلب
تخرج أوجع ما فيها بعد الاغتصاب
ولكن من يقدر عليها
بعد أن ينشف كل شيء:
"الصرخة خشبة في فرن
الابتسامة حالة فم معوج من كثرة الهصر العنيف
قدماكِ عامودان لحميان منفرجان لا يستريحان
يتبادل على الدخول بينهما
دول ومرتزقة وجيوش! "

**

سنة ثامنة
من سنوات ورحمها مفتوح
من رحمها قبل الاغتصاب
من رحمها بعده
من رحمها قبل أن تتحوّل إلى زنزانة كبيرة
وقبل أن يتكاثر "جوج وماجوج"
وقبل أن يتعملق كابوس في منام الأولاد
جئتُ ومعي نذوري
تلّ من سنوات تتراكض
وطن من سراب في مشيمة الخوف
وكنتِ وردة في يد ديناصور
وديعة وأغلالكِ من شمس وزوابع
تتفرّجين كيف تهصرني العتمة
الأشجار هراوات وتيجان
لا نيران من خشب وكهرباء
من الظلال خرجت دمعة الضوء
وعلى ظهري طوابير العسكر.

**

ما أقلّ الذي يفرح باغتصابك!
ما أكثر الذين ينتظرون جفاف يديك!
يدفنون غيمة ويحتفون بالغبار
ما أكثر الذين يقفون تحت نجمتك العروس!
يفتحون الهاوية ويهيلون التراب
ما أكثر الذين يتساقطون!
ترتفع الأرض ويتشبثون بسراب ثقيل
وأنا قلت لأمي:

"نسيتني ذراعاك
لم يكفني الحليب
ولم أشبع من الغناء
على فمي حبيبات دافئة
حطّت على كتفي حمامتكِ بلا بشائر
على عينيها شريط حزن أسود
وأنتِ ينتظرك المدى الازرق وغرغرة الأبعاد".

**

أيها الشاعر المفجوع!

كيف تستطيع أن تحيط بسيرة مهول الاغتصاب؟
رجل في الستين كان
عبر صنوف التعذيب كلها
لم يقل كلمة واحدة عن ابنه المطلوب
حتى صار أقرب إلى جثّة عارية
بدأ ينهار والسجان يعتليه
بحث عن الموت
صرخ لكن البركان لم يخرج من الفم

اغتصب الرجلُ في زنزانة قويّة الضوء
في عينيه اختلط النهار بالليل

اغتصب حتى الصباح والصياح والبكاء

أُغتصاب ناموس الحياة وشرف البلاد!

**

هذا الرنين الموجع لي
لعنة لعنة مشيت إليكِ
وكان الزمان دعابة الموت على الأحياء

هدية مفخّخة بالرموز
لم يفهم أحد أحجية الشاعر عن القيامة
ولم يكتشف أحدث أسطورة عن الأغتصاب
هذا الأنين لها
الصور تتشابه وينقص كل جسد يداً
أو روحاً تالفة
لا يستعيد أحد شيئاً منها
العالم لا يملك آذاناً من رصاص لكنه يتجاهل أعلى الصراخ
وأنا لم أستطع تسوية الأمر
بيني وبين حزنها القديم
بين الخوف والصباح
تتناسل الكوابيس من أحلامها
كأن البلاد ابنة شرعية للمناحة.

**

دم بكارتها على إصبع الجندي
تتألم الصغيرة ولا تستوعب الأمر
يزحف فوقها ويفرغ شهوته الملعونة
تركض نحو أمها المحشورة في الزاوية
ودمها يشرشر على فخذيها
الأم تشاهد تتشنّج وتبكي بلا صوت
الأخ الصغير مرعوب

ترجف في معدته كسر الخبز ويتعمل الجوع
جثة الوالد في أرض الدار
الجنرال يقهقه بعد أن أفرغ فيها الرصاص
الجنود يبتسمون ويتحلّقون حوله
يشتم يبتسم ويرفع إصبعيه
إشارة انتصاره على العائلة المغتصبة!

**

من اغتصب البيت اغتصبكَ
أنتَ شرف البلاد وناقوس الكرامة
السماء ليست لك
الطيور وهم والهواء خيال
روحك نافذة مغلقة
قلبك بئر ناشفة
يلقي العابرون الأحجار
لا صوت للماء
تعبرك القوافل ولا تمرّ عليك
أنتَ جسد يمشي
ينحني يمجّد ويطيع
الوردة لا تعنيك
زقزقة العصافير ومواء القطط
حياتك مجردة من الحياة
رقّاص في آلة الخوف
"زنبلك" يهتزّ ويرتج أنتَ
هذا حال اغتصاب حياتك
حال كل مُغتَصب أيها الذليل.

**

ذكريات أعياد مغتصبة
اليتيمة أمي بلا أبوين
في السابعة رعت أغنام خالها
في "الراشدية" قرية على سفوح ماردين
وكان العشب يمشي على راحتيها
ومطر ربيعيّ يتبع الأثر
أمي بستان متنقّل

ريحان وفلّ وذكريات حارقة
الدمع توابل الرحيل حتى الممات
كانت الأعياد بخيلة
وكانت تشعّ طفولة وفرحاً
ونيران نيروز تتلألأ بعيداً على الجبال!

**

تاريخ طويل للاغتصاب
توأم الموت الحميم
يمد بساطه الطائر على الهاوية
حتى يقفز الأولاد ويسقطون
الحزن يغتصب الابتسامة
الفقر أيضاً يغتصب
الدمعة رحيمة ولا تفعل
تشعّ أو تكدّر الأعين
ما من تاريخ واحد للاغتصاب
اغتصاب وردة جريمة لا تُغتفر
اغتصاب الرغيف اغتصاب الغناء
علاقة حمقاء متبادلة
تاريخ لا حدود له
في كل مرحلة يفعل فعلته ويتوارى في النهار
لا يعرف الجندي أجير الطاغية المسكين
دوره المريع في الجريمة
المعنى الكامل لما يحدث
الطاغية ليس الوطن
الجنرال ليس الإله
اغتصاب اللحظة الهاربة

اغتصاب الصباح لا يطيل عمر الليل
ولا يستطيع اغتصاب أنفاس جميع الناس!

**

الاغتصاب عتمة الروح الشاملة
ليس الجسد وحده من يتفكّك ويُنتَهش
ليست الصرخات المكتومة
تنزلق من هاوية إلى هاوية
أتلمّس الليل المستلقي بجانبي
كم من اغتصاب يختفي فيه؟
كم من رجل يصير خرقة لمسح اللعاب؟
كم من طفلة يسيل ماء حيائها؟
كم من امرأة تتشظّى كمرآة على بلاط بارد؟
آلاف الوجوه تنكسر
ولا يجمعها أحد
يا زيوس الجحيم
تكسّر كل خيزرانك على ظهورنا
احدودبت أشجارنا من كثرة الانحناء
تباطأت الأنهار والأمواج رفلت بالسلاسل.

**

تعذّب نهارك أيها الطائر الطائش
تعبت الأعشاش منكَ
تخلّت عنك الحديقة
ولم تدافع عنك الأشجار
أين خلعت جناحيك أيّها الطائش؟
لم تهادن
ولم تقف في وجه الصيّاد
أنظر حولك

تلال من جثث مغتصبة
أنظر فوقك
هذه الزرقة ليست سماء
دخان طعين بزرقة موجة محروقة
الماء الذي يتبخّر
ليس الغيمة التي تبحث عنها
أيها المخاتل المقدام
صرخات المغتصبين العالية
لا تخرج من الحنجرة
مخالبها تنشب باللحم
تعذّر رقاد أنثاك على البيض
الحرائق تحيطك من كل الجهات.

**

هل كنتُ أبتسم؟
حرّكتُ فمي يميناً وشمالاً
لا أحد ينظر نحوي ويبتسم
صحيح خرجت لتوي من قصّة آخر اغتصاب
لكني لا أبكي
أغلقتُ على دمعي ألف مغارة
وسورته بأسلاك مكهربة
وطلبت من العجائز أن يقلن رأياً
هل أبدو كمن مسه الحزن؟
هل رأى أحد في عيني بجعة مذبوحة
أو نورساً مشنوقاً يتدلّى
أشرعة ملفوفة بأكفان الريح
أطفالاً يركضون على السراط ويتساقطون

حرائق تشبّ في ثياب العرائس البيض
موتى يبكون على الأحياء آخر الليل!

**

لم أرث شيئاً
وكلّ هذه الخسائر والحطام حولي
سوى هذه السلاسل التي تمشي على فمي
هذا الرصاص الذي يخترقني ولايعود
هذه الأشباح النهارية التي تكتب عني كل شيء
أنا اللقمة المنهوبة من فم الجائع
القطرة من فم العطشان
أنا ريش طائر يحترق
برق ليالي بلادي السود
أصحو وعلى فمي أغنيتي كالعصافير
لا يقدر جلاد على اغتصابي بعد اليوم
لم يبق في عينيّ أمي دمع
ولا في صوتها نحيب يفيّق الموتى
صنعتني من حليب قلبها
ودثّرتني بغطاء الحب.

**

حمامة تتشمّس في يوم بارد
أعبر فيجرحها ظلّي
أقف ولا أعرف كيف يصل اعتذاري

إليها وللشمس
رجل غريب يتدلّى من حبل أشواقه
سماء تتدلّى من عينيه
ثقوب في جمجمة النهار

الأسماك المجنونة تغتصب النهر
النهر يغتصب الغيمة الضعيفة
يتمشّى على رؤوس أصابعه
الاغتصاب لا يسأل عن أحد
لا عن ضحيّة ولا عن قانون
في بلادي أطال إقامته
سكن العتمة وجرّح النهار
بلا وطن وبلا ذمّة
يتجوّل حرّاً في النهار والليل
يختار الضحايا بصمت ويسكنها
إلى أن يطرده الصراخ.

**

كأنكِ نهر عابر
لا ينسبح فيك مرتين
والشام بعيدة علي
أغنّي ولا يصغي أحد
تركتُ وجهي على أبواب المقاهي
في الحارات نثرتُ نبوءتي
أتسوّل ابتسامة واحدة
كانت الدمعة من اغتصبتني
مددت يدي كي أشرب منكَ
أطلق جند الموت علي
حفنة رمل وقفت في الحلق
أين بردى العذب؟
وماذا أقول للخلان عن الفرات؟
أأنت نهر عابر؟

الرجل الذي تسوّلكِ حين حان الحنين
غرق في الأشواق المتحرّكة!

**

حاولت أن أقنع الحب
ينكمش ويتفتت في بلادي
لا تيأس وكل ما يدور حولك زائف
هناك ما هو عابر
وهناك ما لا نهاية له
أنتَ البقاء بسلالاتك الكثيرة
أنتَ المركز يدور حولك كل شيء
الكراهية لا تستطيع أن تقف في وجهك
تهاجمك بوحوشها المُغتَصِبة
الاغتصاب أداة الخاسر
وبذارك تنتقل من جيل إلى جيل
ومن فصل إلى فصل
تمطر فتتحوّل إلى طين
فيك كل هذا النور الكامن
به تتراسل مع الأغصان والجذور.

**

آذار العابر كالبرق
آذار الباقي كنهر في العروق
آذار الشاهد المتجدد
الشهيد الذي يترك خلفه البذار
أتخبّط أمامه كدمعة في عين ناشفة
لا يأخذ وردتي إلى البستان
ولا يعيدني إلى التراب
قطرة تحيي وقطرة تميت

يفهم المطر الذي طوّحته العاصفة
وانا ألملم ذيول اغتصابي
اعتذر من عصفور ينزف في الأسر
من زنزانة تضيق بساكنيها
سماء تخجل من زرقتها
وعلى الأرض كل هذا الفحيح.

**

أعبر جسر الخالدين
من يعبر معي
سيبذل العرق ويستعيد الأحلام الخاسرة
الآلهة البشرية التي من لحم ودم
تترصّد ولا تسمح
أعبر والخرافة خلفي
لا أترك جزيرة دون أثر مني
أنا مكتشف النفائس والكنوز
المعجزات التي لا تصدق
الملقاة في الزوايا المظلمة
أعبر ووحوش الأساطير خلفي
وأبحث عن أفعى ذات رؤوس سبع
تحرس أسرار كل مُغتَصِب فان
عن أحفاده الذين يرثون أنفاس الناس
عن دمعة المُغتَصَب الرحيمة
عن قدر غاشم يقيم الحد على الضعفاء
عن ماء الحلوق وعرق الأيادي
عن نجمة أضاعت طريقنا وأصيبت بالرمد.

**

على ظهري أنتِ وأدور بك
طعنة في الجبين
نجمة على الجبين
أنت علامتي السحريّة
أحملك وأدور البلاد
هل هي المغتصبة يسألون؟
أغير دمعتي وأمضي
ورق خريف مسنّ
يكدّسني عامل النظاف وينثرني الأولاد
أنا المشرّد في الكوانين
بلا سقف ولا غطاء
المطر بيتي والريح
نافذتي جهة على الخوف
أنا الرمال تعصفني الصحارى في الصيف
وتذروني فلا أتجمّع ولا أعود إلى البيت!

**

أسجّل وأمحو كي ألحق نفسي
ألحق المتقدم والمتأخّر
أنا طوفان نائم على كرسي في مقهى
وسادتي أحلام لا تنتهي
أطعم العصفور من يدي إلى الفم
ألتقط صورة وأخلّد المشهد
هناك من يفرّ ولا أستعيده
هناك من يستكين ويدخل في الصورة
أصدّق كل الذي فعلته حواء
كل من لمس يدها واستعاد خضاره
صدّقتُ حليبها صغيراً

وأصدّق نهديها قبل أن تدور الخمرة في الرأس
بين الفأس والشجرة
علاقة غرام تنتهي بمأساة غالباً
وحتى بين الطائر والصياد
وحالة اغتصاب دائمة
لا تزول من الروح
بين الجلّاد والضحيّة.

**

تعافيتُ من حالة اغتصابي
بأقلّ ثمن تدفعه الأشجار
كل الذي يدور حولي جميل
كل الذي يحدث ويذكرني بالابتسامة
أنا خطأ الكتابة والقراءة
يستغفرني الشارع ولافتات الطريق
أنا الصفر المهمل
أنقل الحياة من حال إلى حال
أمجّد عرائس الأرياف
حيث رغبات الحب والدبكات
تصعد الدم إلى أعلى الرأس
تتلوّن الحياة بالورديّ
وتستعيد الأشجار أوراقها الساقطة
رغيف خبز يفتح الشهيّة على الجنس
وردة تفعل ذلك أيضاً
وليمة تخضّ الشهوات وتسحبها من العقل الباطن
أنا صُدف المدن التي لا تتكرر
قصائد الحب التي تدور من بيت إلى بيت
حتى تنام في صدور وتحت رؤوس أجمل العاشقات.

**

أتعمّد بصباح الخير من غريب لا أعرفه
وبلادي تنزف وتُغتَصب في العلن
أرتشف القهوة وأشرب الشاي
يمرّ بي الربيع كالآخرين
يبللني مطره بمتعة كالآخرين
تخضرّ أمام عيني
أوراق جارتي الشجرة
تعود إليها العصافير وأفرح
تعيدني رغم الحزن إلى القصيدة
أسمع ضحك الأولاد بصفائه الكامل
)مازال صوتها حزيناً في الوداع(
أحزن وأتألّم بسبب أشياء صغيرة
مثل جميع الناس
أنا لست عاطلاً عن الحب
)منذ قليل سافرتْ(
أشرب القهوة والشاي في الصباح والمساء
وأتحسّر على الدخان بسبب مرض القلب
متخم بالحب والقصائد
أفرح لأصغر الأسباب
تتسخ ثيابي وحذائي بطينه
أنرفز وألعن الحظ
رغم أني لا أتيقّن منه
أُصاب بخيبة أمل كبيرة
لأي سوء تفاهم مع المعارف والأصحاب
لستُ صالحاً للجفاء والخلاف
حتى مع الذين يخونون الخبز والشعر والكأس.

**

لا تقف دون حراك
بلا أغنية أو على الأقل تحيّة
افتحْ النافذة دون أن تفكّر
صفّر بصوت هادئ
دون أن تحارب على جبهة الفرح
تخسر حروبك وينتصر الاغتصاب
كم مرّة ترنّح في عينيك الأمل
وجلس مُقعداً على بابك الرجاء
من عادتك أن لا تصدّ أغنية لامست قلبك
ولا تحسب الربح والخسارة أمام الجمال
تغنّي كأنك مالك أمر الصباح
وكأن الكرنفالات طوع مشيئتك
والأعراس من تُقام بنظرة منك
تسيّر الطبيعة على هواك
وتأتمر بأمرك الفصول.

**

أسقي الوردة وأكتب الاغتصاب
أصغي إلى العصفور وأكتب الاغتصاب
تمرّ جميلة أمامي
أبتسم وأكتب الاغتصاب
أمشي في الحديقة الصديقة
معي كلبي وأكتب الاغتصاب
أتكلّم مع الأشجار عن الربيع
وأكتب عن أعشاش مغتصبة
الحياة لا تنتظر أحداً
تمشي وتلعن الاغتصاب

العيش نشيد الأحياء
الجنرال الطاغية لا يفكّر
يعطي أوامره بقتل الصغار
يسمع موسيقى هادئة
ويلعب ويضحك مع أطفاله السعداء
في أوقاته القليلة
الفارغة من أوامر القتل.

**

نيسان دمعة عاشقة
كذبة الفرح التي صدّقها الجميع
بكيتُ وأنا داخل كفن سماء زرقاء
حولي طيور تشارك في التشييع لأول مرّة
لم تقرأ الفاتحة بشكل صحيح
ولم تأخذ بخاطر أصدقائي الأشباح
السماء كحلها أزرق على دخان
مراييل مدرسة اغتصبتها الطائرات
أكثر من مرة رقص الدم على صوت هديرها
وأمي تنتشلني من بين الأشلاء!:
"لم أدخلك أي مدرسة يا ولدي الغشّاش
من جاء بك إلى هنا؟
يا سارق الكلمات من أفواه الشوارع
أيها العدّاء البطيء الذي
فاز بسباق الحب
الأعياد التي شاركت وفرحتَ بها
كانت كذبة نيسانكَ الكبرى!".

**

اغتصاب متنكّر بالذكريات
يوم صعب دونها
يوم شقيّ وله أخوة وأقارب
تركني مثقلاً بديون صعبة
عليها فوائد ضخمة من حزن ونزق
كلّ عاشق بعيد عليه تركة صعبة من الأرق والخوف
كلّ عاشقة تقيس الزمان على مقاس شوقها
في الصباح تتكاثر أغاني الشجن
بدل أن تفتتحه بالأغاني الخفيفة والقهوة الحلوة
أتكلّم مع شجرة في الحديقة
العاشق طائر أيضاً
يحق له ما يحق للطيور
وفي المساء
له صفات الطيوف والسكارى
خفيف على الأرض
تلاعبه الظلال وتخدعه الأنوار
حركة بعض النساء من بعيد
هل هذا شبحكِ الذي يبتسم؟
شبحك الذي يراقبني
يشير ويتلاشى قبل الوصول.

**

علي أن أختار
قبل أن تتنكّر الأشياء ولا تتميّز
أقفز المكان أم الزمان؟
في الحالتين مهمّة شاقة
إذا قفزت من الزمان إلى المكان
هل يختلف الأمر؟

هل يتغيّر تاريخ الاغتصاب؟
هل تتغيّر أوامر الجنرال؟
وتقلّ هيبته أمام المسوخ
مثلما انعدمت أمام الشهداء
هل تسقط نياشينه المستعارة
بدل أن يقفز إلى الكرسي
مثلاً: هل سيقفز إلى الهاوية؟
وبدل أن يضع نجوماً كثيرة على كتفيه
تسقط نجمة وحيدة على رأسه
وتستريح الأرض!.

**

أعيش الاغتصاب
أتذكّر السنجاب المتواري طوال الشتاء
يقفز من شجرة إلى شرفة الجيران
أضحك وأقلّد قفزته على العشب
يا أمي البعيدة كالحياة
القريبة كالموت
أكتب ملحمة الاغتصاب
لك نصيب في لياليها
مخفف بطعم شراب الورد
ورائحة فل وريحان "ماردين" البعيدة
قلت لك لا تخافي
سأعيش رغم كل ماشفتُ
تتوالفين مع الموت وتحكين له حياتك الفاتنة
مراراً تظاهرتُ بالنوم
أراقب الأنجم تحرس عينيك من الدمع
مَن كسر فانوس الحكاية؟

وأسال الضوء على عينيّ طفل ميت
يعرف المعنى غير الشائع للاغتصاب!

**

طفل يتيم انكسرت كل ألعاب قلبه
هل يعيد الربيع هداياه المتأخّرة؟
اغتصاب ضحكة طفل
اغتصاب العالم
الدمعة لا تشفي
أمه الغائبة لن تعود
يتسوّل العالم
الحنان والابتسامة قبل لقمة الخبز
بيته خيمة منسوجة من ريح وعتمة
في اللا مكان عنوانه الشاق
لا تصله هدايا ولا نعوات الأهل
يتوسّد الرصيف حين لا تحمله قدماه
الذاكرة انفجار اغتصب كل شيء
وشبحُ بيت الولادة.

**

وأنتِ والعالم يغتصبك بالعلن
جيش يدخل وجيش يستريح
وأنتِ عليك الموتى
أنتِ وكلّك سواد ودمع وقبور
لا أستطيع أن أسلّم عليكِ وأنصرف دون عزاء
دون أن ألمس يدك أو أقبّلك على الخدود
أنا ضعيف بأخذ العزاء
ماتت قطتي ودفنتها وحدي

ولم يعلّمني أحد كيف أبكي
علّمتني الأيام والفواجع كم الأمس

كيف البكاء شعبي وحيداً
أبتسم في وجه زائري
كأن الحياة المليئة بالحب
لا تنقص إذا اغتصبها الطغاة
وكل الذي عرفته

أن الصغار يحزنون أيضاً
وأن الأعياد ليس من الضرورة
مع العازة والخسارة أن لا تجيء بالفرح.

**

حاربت لم أحارب طواحين الهواء
ولم أحارب الأشباح التي تعيش معنا
حاربت المطر الذي يخون
الظلال التي تركع
العيون التي تبكي ولا تصرخ
حاربت حصتي التي سكتت على كل اغتصاب
فتحتْ أبوابها من الخوف
رأتني وأدارت عينيها إلى المقابر
وردتي كانت في مدخل الصباح
أغنيتي اهتزاز القلب من النبضة الأولى
أفتتح كل شيء ومعي اغتصاب هرم
أبحث عن مكان لهذا الفيض
أقتلع الأعشاب الضارة من القصيدة
وألعن آلهة الاغتصاب.

**

لا مكان فيك للمزيد من الاغتصاب
أنا سجلّكِ الشاسع
قلبيني على مهل
أنا صفحاتك البيض
أخاف أن تسقط طفولتي
وتتسيّد الشيخوخة
من المرّة الأولى
أخاف أن تسقط ذكرياتي الناعمة
في المرّة الثانية
تنمو مخالب الذئب في المرايا
أخاف على العصافير أن تبقى في الأسر
أخاف أن تتسع جراح الأغاني
ولا تتفكّك شراك الصمت
أخاف على عينيكِ من العتمة
أنا الطفل الذي يلعب بالأقدار
أترك خلفي بكائي
وأدفع بالأغاني إلى الأمام.

**

في هذا الاغتصاب العميم
خفقة واحدة لا تكفي القلب
مهام صعبة ملقاة عليه
يضخّ ويضخ حتى لا تنقطع الأنفاس
الدم الساخن لا ينتظر
على عجلة يزرع ويحصد كي أتنفس
يعافر ويذهب في حال سبيله
صدقيني أنا لا أحلم بكِ
أنا حلم يتفتت عندما يطالك النوم

أقفز في الصباح كعصفور وأغني:
مكانها فارغ والموسيقى تعبث بالهدوء
لا أعرف أحداً آخر يشغلني غيرها
خفقتان تمشّي الحال
خفقة لكِ وخفقة للحب.

**

في غيابكَ وحضورك يتكرر الاغتصاب
تتكرر معه أغنية حزينة
ترافقك أينما تذهب
في السوق وأصوات السيارات
نشيج خفي يدور حولك
في الحديقة ونيسان يخرج فرحته الخضراء
جثث خضر تمشي معك وتدور حولك
في مهام الحب الصعبة
لامجال للتفكير والتردد
مثل مهام الموت والحياة
يسقط الطائر إذا تردد بالطيران
خذ مطلع أي أغنية حب
وأكمل باقي النشيد على هواك
لن تعرف في أي شوط سيسقط الحصان
في السباق الأخير؟
أم في الأغنية الأخيرة؟

**

أكتب قصيدة الاغتصاب
أنا قلب حزين مشطور إلى نصفين
شقّ تكوّر على نفسه ويذوب كالشمعة
وشق يمر كالنحل على شفاه الورد

أنا هذا الطائر الذي ينقر صباحكِ من أزهاره
السنجاب الذي يصعد أشجاركِ ويطل على الربيع
النافذة التي تتمسّح بشمسك قبل المغيب
الأغنية التي يرددها العاشق
قبل الوداع الأخير
قطرة المطر التي تفرح
حين تسقط على شفتيك وتتلوّن بالأحمر
الأرض تسمع صوت أقدامكِ
وأنت في مدينة أخرى!
الدمعة التي يداهمها حال الاغتصاب
تتجنب عينيكِ
وتنكسر وحيدة على حجر.

**

لا أطيق أن أرى المدن بلا أغنيات
سأترك قصيدتي الأخيرة
على أقرب رصيف وأنصرف
رصيف بلا ملامح ولا متسولين أو سكارى
الاغتصاب يلتهم الفصول وينجب المسوخ
يلتهم الخبز وينجب الجوعى
ليس من امرأة واحدة
لم يمتلئ رحمها بحمل كاذب
حمل من خوف الاغتصاب
رقم الآلاف قليل
يتناسل وينجب المأساة
لم يستشر الليل أحداً
يفشل وهو يحاول أن يغطي جثة واحدة
قصيدة على رصيف ترتجف من الوحدة

سيلتقطها أي عابر
بعيداً عن بلادي التي تزأر فيها الزنازين والقبور
هناك حيث الأقدام الكثيرة
والمرارات تختلف وتتشابه
وقع قلبي وتناثر على القارات.

**

أتلصّص عليكِ من ثقب في قصيدة الاغتصاب
لا أرى كل شيء
تكفيني كلمة وإشارة من اليد
يكفي أن تقرأي قصيدتي على الريح
شعرك الشمسي يطالب بحقه
الربيع المتكاسل يسأل
البحيرة تشعل نجومها
وتتمسّح بالغيم
أتوقّف وأكتب عنك
ولا أهتم إن لم يقرأني أحد
أكتب وأكتب وأترك الأيام تتضوّر خلفي
أعتذر من دمعة البلاد الكبيرة
أعتذر من الخيام الضعيفة
أترك الشتاء الظالم ورائي
وأفرح لأنك تتباركين بالربيع.

**

بلا قصيدة الاغتصاب الجارحة
الحزن خصمي الودود
نتفاهم ونختلف لأصعب الأسباب
أنا ذرّة وهو مركز الكون يقول
تدور حوله المجرات

وتبني عروشها الخديعة والأكاذيب
في الملمّات والمآتم
البعض يعصر العين من أجل دمعة
والبعض يبكي أنهاراً وشلّالات
دون سبب من أجل مشهد خادع
يكسب شفقة وتعاطف الناس
الشاعر يبصر ويرى كل ما حوله
عين حزينة وعين عاشقة
عينا الشاعر زنزانة وشرفة عندما يقل الحب
ويتكاثر الاغتصاب في النهار.

**

بحسب اغتصابك الأخير
كثرت ديون الشوق القديمة
لم أشبع منكِ لم أشبع
كل عناق غصة
كل قبلة مقصلة
مالت علي الدنيا فارغة الأيدي
عيونكِ مصابيح الطرقات
لم تعد ترافقني في العتمة
يرافقني الفرات ويدلني عليكِ
ترافقني ذراعاك ويلهثان من بعيد
لا أتوه تتبدل البلاد وتختلف المحطّات
أصير الغريب المتكاثر
أثري أثر وردة لم ترتو من غيمها
شوقي حديقة في الإعصار
رائحة غرباء يتكثرون

أنا الطريق أمشي من تلقائي نحوك
وأجرّ الأرض معي.

**

أترنّح ومعي أنتِ
طيف مجنون وهادئ
الحديقة ليست فارغة
وكلبي الأبيض يراكِ وينبح بحب
أضم يدي على فراغ دافئ وأتكلّم معك:
نيسان ليس آمنا هذا العام
ريحه خفيفة باردة ولا يتذمّر الناس
أتجنّب قصيدة الاغتصاب
ألتفت إلى نباتات خضراء صغيرة
طالعة من مقبرة أوراق الشجر
تلّ منسي من الأوراق الميتة
بالشاش ألفّ قلبي المجنون بكِ
حتى لا يقطر دماً على الطريق
الكثير من الأجساد المعطوبة
تنزف في زنازين بلادي التي بلا نوافذ
ويتهشم صراخها على الجدران
دون أن يلفّها أحد بالشاش أو بخرق بالية
أو يطبطب عليها
تتكسّر أطرافها وتذرف أياماً كثيرة.

**

لن يتوقف عن قصيدة الاغتصاب
هناك ما يغري الأمل
الشاعر لا يتردد
يكتب الحب ويعرف قصص اغتصاب كثيرة

يبدّل الذي لا يستقيم مع الهوى
لا تشوّشه المسافات ولا الزحام
يكتب قصيدة الشارع ويعود إليكِ
يكتب الحديقة ويعود إليكِ
يكتب الاغتصاب ويعود
يعرف ما يريد الحنين القاسي
ويعود إليكِ
الأيام تكثر شيبه ويعود
يشتهي وردتك ويعود
تمطر يتبلل ويعود
يبذهب إلى مواعيد الأصدقاء ويعود إليك
يذهب أينما يذهب يعود إليك
كأنك الجهات كلها.

**

يوم طويل من سنوات الاغتصاب
وأنا على حافة العالم
وفي قلبه أنبض
أخرج من الاغتصاب إلى الحب
وحدي والقصيدة سريري الشاسع
أقفز نحوها أيتها الهاوية
لا تتدخلي بين حبيبين
لست يائساً
أكره العتمة وأحفادها من الألوان
حين أتأخّر بالنوم
بعد أرق إلى الظهيرة
أحلم بالصباح
حتى لا يقترب الخريف

يمرّ وأزهاري تبتسم لكل عابر
يمضي وفي نفسه حسرة الخسران
ورودي مشلوحة على كل طريق
أغاني تتراقص وتدبك في الأعياد
أنتِ وحدك تتآكلين غيرة
ولم أستطع أن أفعل من أجلك شيئاً
أيتها العتمة المثابرة.

**

تكتب الاغتصاب ويسيل دم
تكتب عذراء ينفر دم من روح أخرى
تتلوّث الحلمات بلعاب الشهوة
يغرق جسد البنت بحليب اللصوص الدنس
يد تهزّ عرش نهديها
ويد تعيد الصرخات إلى الفم
أفواه برائحة عطنة
تطبق على فمها حتى تختنق اللعنات
لم تكن الأيادي وحدها التي تفعل
الاغتصاب يتكرر بالأصابع والعصي
ولا تعرف البنت كيف تستر عورتها
يتناوب المغتصبون ولا تقوى
على جمع فخذيها
حتى يحل عليها إغماء فاجر
تتهالك ويتناثر الرشد.

**

قبل أن يستولي عليكِ غول الاغتصاب
كنت أبني جسور الأحلام
وكان يهدم بيوت الناس الواطئة

كنت طفلاً وأهندس الأحجار تحت قدميكِ
وأطالب الأرض بالمزيد من الخبز والجريان
وأنتِ تطالبين الأنهار بالمزيد من النشاط
وتطالبين الغيوم أن تنصب أراجيحها على الحقول
فاجأنا العسكر بسيول الأكاذيب العالية
وراحوا يعرضون نهديك على القارعة
أنتِ لو مددتِ يدك مرّة
وعبرتِ دون أن يمسّكِ الغرق
أو رفعت عينيك إلى الأعلى
لمال الشاطئ نحوي
وتشبثتُ بالظهيرة حتى يجيء الرفاق
مددتِ جسرك المعلّق وكانت المشاوير مفرحة
يزقزق الرصيف وأكبال الحديد
يمرّ الهواء خفيفاً
ويرفع أشرعة الجهات المشرقة.

**

أنا الساكن في قصيدة الاغتصاب
أنا الخارج من قصيدة الاغتصاب
تجرّني معها ولا أتدارك نفسي
المتفتّح في ابتسامات الصغار على الطرقات
يمر البحر علي أحياناً
ويتفاجأ بملوحة الدمع
أنا النهريّ المُشرع على الشواطئ الآهلة
يمر علي الفرات أكثر الأحيان
يمر بنوارسه وبمراكب الصيد الصغيرة
بجزره الفتيّة وأشجار الفلاحين
يراني على الشاطئ أبني بيوتاً واطئة من الرمل

تسرقها الأمواج الهائجة
أبني وتسرق الأمواج
أبني ويرتفع النخيل ويتزيّن بالأعشاش
أصدقائي البحّارة المغامرون
يأكلون المحار ويتعاطون الأحلام الضارة
ويسكرون بالشغب.

**

اللغة شبح المعنى
اللغة جسر بين هاويتين
أرجوحة النفس ووديها السحيق
ليس من السهل الإمساك بالمعنى
ما يحدث يقطع مشيمة الجنين قبل الولادة
الاغتصاب كلمة تجرح حتى الجماد
صرخات الضحايا جثث مطفأة في الليل
تحدث إلى الآن في سراديب وغرف التحقيق
في الحدائق والحانات
في مداخل المدن ومخارجها
حواجز العسكر وأشباح النهار
بلاد ملطخة الفخذين بالدم والصليل
بلادي فحيح أفاع وصئيّ عقارب
يحدث في العلن
كأنه عقوبة مشروعة على الناس
ومكافأة العالم للطاغية.

**

من يغتصب من؟
العالم أنشوطة الجلاد حول عنقها
على ربيعها سياطه لم تتوقّف

الأسئلة لا تغتصب الحقائق
الخوف يفعل ويزكّيه الظلام
الحرية تفتح القيود
الاغتصاب يسكّر الشبابيك ويطفئ الأنوار
المرايا تقلّد ما ترى
والينابيع تصفّي رؤية وتبتكر رؤيا
الظلال تذوّب الأشياء وتغلق المسام
الشمس تجرح الدمامل وتُخرج الصديد
هكذا في الصمت تطرأ الجريمة وتستمرّ
الشاعر يجترح الأغاني ويقوّم المعنى
الخوف غير الخوف
الليل ليس الليل الذي نعرف
الصباح ثمرة في متناول اليد
والحياة شجرة الضوء وطعم الماء
الشاعر يغني ويهزّ الشجر.

**

لا يصدقك الناس
أي بلاد هذه؟
وعلى أيّ كوكب؟
تُغتصب وتشلّع أظافرها وأشجارها
آلاف الصبايا يفقدن ما يُسمّى الشرف
فقد العذرية ليس بانتهاك البكارة فقط
الأرواح التي ينكسر زجاج شبابيكها
الظلامات والوسواوس التي تلتهم الروح
تطير عن أسطحها الحمائم ولا تعود
تقتلع الابتسامة من الجذور
لا يصدّق أحد هذا الدم الذي يطفح من الكلمات

الصرخات المخنوقة تزحف في الظلام على أسمنت الزنازين
المخالب التي تحرث الأجساد وتزرع السموم
رماح الدم الخارجة من العيون
اصطفاف البحار بالدور لابتلاع امرأة أو شيخ بأحزانه
تتقاسم أجساد الأطفال الغرقى مع الشواطئ.

**

هذه الشجرة تفهني
لا أشرح لا أعلّق لا أغير وجهي
ولا أخفي الدمع
أبتسم تقول لي هذا حقك المشروع
وأنت خارج من الاغتصاب
افتحْ قلبك وجرّ الحياة إليه
العيش أشجار كثيرة
الطيور أعشاش وأجنحة
من أين ستستعير المزيد من الدمع؟
حقك بالعيش ستفهمك كلاب الحديقة
العجائز يتحسسن نهودهن ويتحسّرن
الصبية تجاملك وتبتسم
كأنها تعدد مزايا الصباح
ربيع يجلب معه العشب والفرح
وأنت تعود إلى البيت رغم الاغتصاب
معك كلبك وابتسامة وقصيدة.

**

قبل وباء الاغتصاب
بحر بين كاذبتين وحزمة خسائر
كنا نجوب الازقّة وقلوبنا
من ماء وطحين وشباب

طوال سُوَر العاشقين علينا
ونغني مطالعها ونترك للصروف الخاتمة
نتحصّن من الارتزاق بالحلم والألم
وكنا نختم حين لا يطيب لنا الخمر
الحقول تعمدنا بالبذار وتذكرنا بالخير
الجراد الشقي يعتب على دخان حرائقنا
ويظل في الأعلى
نعبر الليالي كاقمار سكرى
نفتتح عرس الشمس
بتلاوات الزهر وعَرَق المتعبين.

**

الدمعة اغتصاب الفرح
أو رقصته وغرغرة ماء العيون
الدموع رفيقاتنا الدائمات
قبل الاغتصاب دموع
بعد الاغتصاب دموع وغصّات
في الأفراح والأعراس
في الوداع واللقاء
في التأجّج الشديد
في وحدة القلب المكسور
في ليالي عاشقة يعصر قلبها الحنين
لا نغادر الدمعة
تسكننا وتطوّب لنا ذكرياتها
وقلوبنا تميل إلى الفرح
تتبعنا أينما التفتنا تدور حولنا
نعتذر ونذهب إلى الأعراس
في أيادينا الورد وعلى شفاهنا الأغاني.

**

سأتخلّى عن قصيدة الاغتصاب
أنتظر تلك الأجراس
تعلنكَ على المدى
أيها الحب أعدك لن تنتظر طويلاً
بعد أن أفتح آلاف الأبواب!
خلف كل باب حكاية مأتم أو عرس
من لحم ودم وروح
أيتها الزنازين طلّقي الظلام والجدران
فوقكِ سماء وحولك طيور
دمها أخضر وبناتها فراشات
مئة أغنية لا تكفي حالة اغتصاب واحدة
لا تكفي فتح الفخذين

على الدبكات وطلقات الرصاص
لا يكفي دم البكارة الذي لوّث
سراويل البنات
ولا منيّ العسكر على فساتين النساء
لا تكفي نزيف دموع الأمهات
والدموع التي شربتها أعين القتلى
ولم يرها أحد.

**

أنتظر أن يتجاوز قصيدتي الاغتصاب
عندي الكثير مما يحتاج الغناء
تمرّ بي مجزرة
وتخرج لسانها الدامي
أنا صاحب البيت
جعتُ وأكلتْ لحمي الضباع

أيام ربيعية مطعونة بالخريف
هذه الجثة لي
قدم أقصر من قدم
جاهز للرقص ولكن
ينقص "سنسول" ظهري بعض الفقرات
تنقصني عين حتى يكتمل جمالي في المذبحة
افترسني الجند ووزّعوا
ما تبقى من عظام جثتي على الكلاب
قلبي الذي أحببتُ به الناس
وضعوه للبيع في ثلاجة تصدير الطاغية.

**

يفغر قلبكَ هكذا فجأة
وأنتَ في عرس أو مهرجان
قلب يتوجّع على البلاد
غير قابل للتفاهم
اغتصاب مريع للفرح
هل تستسلم وتسفح ماء روحكَ
على الألم؟
أنتَ مُبَشّر بريعانكَ
اغتصاب يكتم أغانيك ويمنح البكاء سطوة على الأيام
فتّش من حولك عن مؤونة فائضة
تركتها حين كانت الطفولة
تلفّ لك صندويش الماء والسكر
كانت الأيام حلوة على مرارتها
والأحلام جداء تتقافز حولك
والحب توزّعه حتى يزيد
عن حاجة وبخل الأعياد!

**

طال الاغتصاب الذي تكتب عنه
توجّعت وردة وهي تسرد حكاية عنكَ
خنجر من ماء ما تحمل الغيمة
الطعنة عشبة أو زهرة
طعنة قريبة فيها دم منتحر
طعنة بعيدة تفصفص اللحم عن العظم
ليس من بينها طعنة عشق
أو طعنة شوق مستفحل
طعنة تشفي الميت
وطعنة تردي الأحياء
طعنة الماء طعنتك
ولا يعلم من كشط حتى العظام
طعنة كلام تحيي
وطعنة يأس تردي الأحلام بجبروتها
أنهي ما بدأت وحدي
وليس عندي صورة تذكارية مع الاغتصاب!

**

هذا ليس اسمي
اسمي العلني اغتصاب
ولي اسم سريّ لم يتم التوافق عليه
الشهود قتلى أو مجانين أو نصف نصف
المكان ليس مغارة علي بابا
مكان جميل ومشعّ وحيّ قبل الاغتصاب
اسمه الفصيح: سورية
بستان من شعوب شهيّة بفصولها
صالحة للحب وحرية الجذور

علّبها الطاغية وباع شموخها للنخّاسين
توارث على اغتصابها العسكر
من الأب إلى الولد
ولن يكون إلى حفيد مجنون وطاغية
تشبه قصيدة عشق ونشيد
صبيّة من آلاف السنين
هذا اسمها الحركي
ذُلّ الطاغية وشموخ هامة قاسيون
اسمها السريّ دمعة دمشق
وقيودها تتآكل مثلما تجري أنهارها
ومثلما لا ينسى قصيدتي الفرات.

**

أيها المطر المتأخّر
علي الخذلان قبل أن أراك
أيها النشيد الحزين الذي طال
غنّيتك حتى ضاع صوتي
اغتصاب بطعم امراة تتنكر بلا ثيابها
تختبئ في النور
حتى يصرخ الظلام من الوجع
هذه أنا أيها الضابط المفترس
اغتصبني وتقاسمني أنت وجنودك الجوعى
جسدي المشاع رأئحة أمّك
شعري شعر بنت مراهقة تناديك:
"ترفق يا أبي
حملتني على كتفك صغيرة
قبل أن يطقّ زهر عانتي ويشتهيني جنرال فاحش مثلك
نحن صبيتان من طين واحد

أنا وابنتك توأمنا القمح والعصافير

شراع يراقصه نفس الهواء
تحت سرتي ما أخفيه عن أبوّتك
علّق نياشينكَ على الحلمات
كي أتوجع وتكمل ما بدأت
ويصير لائقاً برجولتك ونياشينك أفدح الاغتصاب!

**

أخرطش القصيدة وأطلق
على الصباح الكسول وردة وزقزقة
صباح الحقيقة الساخر والموجع
على كل شيء كسول
إلّا الموت إذا تكاسل
أحطّ رأسي على ركبة الحلم وأحاول النوم
العصافير الكسولة تتذمّر
شمس تلتحف غيابها وتنام
أنظر حولي وأتأكّد أني على حق
اغتصابات تتباهى بموتاها
كلها على سمع ومرأى شهداء الزور
بيدي قلم الكحل أزيّن عينيّ صبيّة
لم تكمل زينتها قبل أن يغتصبها وحش وتموت
ألتقط صوراً على الماشي
قبل أن تنزف الكاميرا آلاف الناس

بوجوه مدماة وتصبغ وجهي
أصرخ دماً لا يجف ولا يتجمّد
أخرطش القصيدة وأطلق على الظلام
أين أروح بأغنيتي المفرحة؟
تمرّنتُ عليها من حول إلى حول

أهز الصباح:
هناك من ينتظر في الظل
بيته الرحيل وأقدامه الطرقات.

**

منذ الولادة قبل الاغتصاب
صفحة الموتى تطالب بصورتي
وأنا أمتنع
اسمي في النعاوى
وأنا على مقاعد المعزّين!
في سجلّ الوفيّات ولي نصيب من ورثة أحياء
هذه هي الحياة أيها المغفّلون
بنات وطفولة وأمّهات يرجعن الروح
حب وشرر احتكاك جسد بجسد
خبز نبيذ وفلافل ساخنة
بيرة الأصحاب بطعمها تختلف
فاكهة وشعر ومواعيد
طفل السياسة يقرأ الواقع البائس بحب
فرات وصيف وسباحة حتى الغرق
أنجم محطات قطارات مليئة بالمسافرين
تحايا وقبلات على القارعة وفي الظل
صباحات وفناجين قهوة وغناء
لن أمنحك صورتي أيها الموت الخائن
الحب حقيقتي أيها المزوّر الوقح
انا الصبي الشقي حتى الوله

دمعة مقسومة بين شهيدين
في تلك الحارات صوري على الجدار
وفي قلوب الناس.

**

نهار لا يشبه الآخر
يحاصرني الاغتصاب كل الأوقات
انشغالات كثيرة لا تتوقف
فلاح يمرّ من فصل إلى فصل
في كل فصل يحرث أرض اللغة والكلام
ينثر بذاره الغريبة
فتخرج من باطنها الأعاجيب
يستريح من عبء لا يشبه غيره
والاغتصاب أولويّة في حسابات القصيدة
ينتقل الشاعر من معنى إلى آخر ويعود
تصفية حساب موت عسير
على كل الشاشات والجرائد
الجزّار بوجهه الدامي المعروف
لم يغيّر لون ملابسه القاني
بيده الطائرات وحوله
يجتمع بالعالم وياخذ صوراً بالألوان
كأن دم الشعب الذي على أنيابه
دم مليون فرخة مذبوحة

كما تتطلّب شريعة الغاب الجديدة.

**

فتافيت الشمس على الشبّاك
أريد أن أكتب الأغتصاب في العتمة
في الظلام لا يسمع صغار بلادي نحيبي
نيام وفي عيونهم رفّ بديع من الحمام
عراة يسبحون في كوثر جنّة الحلم الأخير!
وأتوهّم أنني نائم وأفيق على صوت الّسياط

نائم وأحلم ببرك دم يتفاور ويستغيث
في كوكب ثان هذا اغتصاب المستحيل
والاستغاثات من عالم آخر
أتحايل: لا طائرات فوق إدلب
لا براميل تي إن تي
الانفجارات والدوي الهادر
صوت مدفع الإفطار الحنون في رمضان!
والموت متوفّر أكثر من الخبز.

**

عن الاغتصاب
هل يفيد الحديث في التفاصيل؟
هل يتّضح حجم الجريمة:
امرأة يُنتف شعر عانتها باليد أمام العائلة
يتمرّغ كبرياء نهديها
على بلاط متسخ بالقيء والدم
تستتر في كل مرة بيديها العاريتين
لا تعرف ماذا تستر!
الأمام أم الوراء
عيناها تُغتصبان
فمها يُغتصب
عُشّ الخلق ما بين الساقين
لا ينجو منها شيء
حتى حين تلتفّ على بعضها
وتصير جنيناً في رحم الزنزانة!

**

لا يفيد تجميعُ الاغتصاب
بالمفرد أفتح حساب الدموع
بحر يتلاطم فيكَ أيها الشاعر

بحار أخرى تدرّب حيتانها
بحر لا يستقر ولا يستكين
النساء خسوف الورد ودمل الاغتصاب
فصفصتْ الضباع البشريّة اللحم عن العظم
كل امرأة جريرة العالم التي بلا حساب
لعق الدب الطائفي عسل السوريات
كلّ هذه الخسائر الجميلة
في قائمة حساب زمن بلا رأس مال
قرصان بلا قدم خشبيّة
لعب بحسبة البلاد
بحر بلا أمواج ولا نوارس
امرأة بنهديها تُرضع العماء
وأنا من حزني وغضبي
سفحت مائي وحرّكتُ الفرات الرجراج
نطحت الصخر حتى تناثرت أجزائي
فمن يلمّني من يلمّ بعثرتي القصوى؟
قبل أن أصير موجة من كيمياء وزبد.

**

سفح العسكر أنوثتكِ أيتها البلاد
قد أعود إليكِ
لم يبق لي مكان خارج هاوياتكِ الكثيرة
دمك المسفوح هويّة
على ملامحي يأخذ راحته النزيف

غيّر الاغتصاب ملامح الحلم
زرع شجراً مدبباً في عيونكِ

قال هذه أمّكَ في الخوف

دهن يديها وحليبك المسفوح على التراب
رتّب أولويات الموت
غيّر قوانين التحليق:
العصفور حجر يهوي
المعدن من يمتلك أجنحة الفضاء
النار ليست في مواقد الجوعى
تلتهب في أفئدة الناس
الحب هويتي
أسأل الطفولة:

أينك أيها الحالمة؟
معك أمّك لا يفزعك الغول!
لن تقتلعك من بين ذراعيها ريح الاغتصاب.

**

حكيت القليل من فاجعة الناس

الآه هي الآه

الصرخة هي الصرخة

أصرخ مثل أي بنت أو امرأة

يصطدم صوتي بجدران عالية

بالمقابر ومكبّات النفايات

الجثث في عراء الله

أنزف اللغة وينزفْن الدم

مقطع الخاتمة قبل أوانه

تردد أصوات الناس كما تأوّهت

مخارج الأحرف المنطوقة وقت خروج النفس

كتبت قطرة من بحر الاغتصاب
سينتهي السِفْرُ وأنا ما زلت على الشاطئ
لم يهفهف لي فوقه شراع
ولم يطر نورس
في الحرف الأوّل من الملحمة سأنتهي
في سجلّ الخرافة متسع لكل شيء
كذا ألف امرأة

في خشوع الأجراس وغليان وتبركن الدموع
لم يُتح لي مسح دمع أعين مدينة واحدة
لم أستر بوجعي عريها
ولم أسوّر نهديها بالكرامة
لم أضع رأسها على وسادة
لم أطبطب على جرحها العميق:
نامي يا أمي يا أخت نامي
وقبل أن تغسلي عينيك من مشهد الاغتصاب
أبصقي على شرف هذا الزمان.

**

تنام البنت على صدر أمها

تسأل ببراءة عن دمها الورديّ البكر

عن القطرات الأولى من عادتها الشهرية المفاجئة

ليس ذنبها أن يتفتّح نهداها باكراً وتشمخ الحلمات

من قريب نبتت أسئلة البراءة على فمها:

"شو أعمل يامو، شكون هذا يوم؟"

أجوبة الأم ضحكة وفرح:

"استحي يا بنت!"

قبل أن يصبح نهداها لعنة عمرها البريء

قبل أن يكتشف جمال طفولتها الغول

وترهن إلى الجنون كرزتين عمياوين

قبل أن يكتشف العالم اغتصاب طفلة واحدة برحيقها

تفترس ديناصورات بشرية آلاف الصغيرات

جحيم أعراس الطاغية وطوفان خرافة العسكر.

**

كيف يختتم شاعر ملحمة الاغتصاب هذه؟

ينسج من أشلاء جسد عروس ثوب فرحها

عسكر يداهمون الحي، يفتّشون حتى سراويل النساء

بحثاً عن لا شيء!.
بنت في عز طفولتها، تقف بين أخوتها

صغار لا يتوقّفون عن البكاء ويختلجون

يبكون ويختلجون
لم يستطع الرعب أن يخفي صدرها الناهد

ولا عينيها العسليتين
الجنرال فجأة يصبح أكثر رقّة

ينظر إليها بشهوة الافتراس

ويعطي الأمر للجنود بالكفّ عن التفتيش

والخروج من البيت قبل أن ينقلب راساً على رأس أسوة ببقية بيوت الحي السابقة
يرتاح الأب والأم لطيبة الضابط المفاجئة

ولا يعرفان كيف يشكرانه
."مابدنا نكمل تفتيش، يبدو انكن ناس طيبين،
بس ديروا بالكن تدخلوا حدا من المسلحين"

ينظر إلى البنت التي تحاول أن تتوارى خلف أخوتها من عينيه الناهشتين
تفحّصها مراراً وخاطب الأم بلهجة سيّد:
."هي بنتك مو هيك؟
.إي بنتنا الله يخليلك ولادك
.إنتو من اليوم تحت حمايتي
وبنتك شو اسما؟
الأب يرد بتوجّس،

يرد الأب وقد خمّن بماذا يفكّر الجنرال:

.هي بنت صغيري
بصوت حاسم ينهر الأب:
.أنا مو معك عم بحكي، عم حكّي امّا
الأم ترد كمن تأخّر عن شيء مهم:
.خادمتك أمينة يا سيدي
.هي بنتك لكبيري؟
.إي ياسيدي
الضابط وهو يلاحظ رعب البنت:
.تعي يا أميني لا تخافي
البنت تنكمش على نفسها أكثر
الضابط يذهب إلى البنت ويقودها من يدها ويتوجّه إلى الأم
.أنا ماني متل غيري، أنا ما بغتصب حدا،

أميني صارت من اليوم مرتي

الأب يسارع ويجرّ البنت من يد الضابط

.البنت طفلي ما كملت الخمستعش

الضابط بصوت مرتفع وغاضب

.أنا قلتلك لا تتدخّل، وبصوت كاذب:

سكتنا عالسلاح الي مخبينه وما كملنا تفتيش،

يحوّل كلامه ويخفف طبقة الصوت بعد أن أرعب الوالد

.أميني صارت مرتي، خديها وجهزيها أنا راجع اليوم المسا

الأم تتوسّل ولم تترك كلمة ممزوجة بالدموع لم تقلها لأقناع الضباط

.لا تكثري حكي، جهزيها كويّس وفهميها مين بكون!

**

يدخل الجنرال بيت العائلة المغتصبة بكلّ المعاني يعود الجنرال الزوج!

يخرج الجنرال المغتصب!

البنت تكبر وتشيخ في أيام وتشبه البلاد!

يفغر إله صغير في قلب الأم

الأب جدار منهدم

عامود بيت تهشّمت تحته الأرض

ترفع يديها إلى الأعلى:

"تعبتُ من الصراخ

لا أريد أن أكفر بكَ يا إلهي!

لستَ ربّ السفهاء والظلمة

لستَ ربّ الاغتصاب وشريك المغتصبين!

أنت ربّ المساكين والضعفاء!

لم يبق صبر عندنا يا إلهي!

مازال وقت طويل

على نهاية الطغاة والاغتصاب

وقت على كذبة العالم العادل!

وقت طويل على الآخرة!

**

آلاف الحيوات تروح وتأتي

لسان حال صرخة امرأة خارجة من الاغتصاب والسبي

امرأة تشبه هذه البلاد الموعودة بالقيامة!

تنطق بلهجة وجع الناس الفصيح:

الأشجار ترتدي فساتينها الجديدة كل ربيع

نحن أيضاً ندفع ما علينا من عبادات

صلوات بكامل شذاها

لا نريد اللقمة والستر!

يا إلهي! يا إلهي!

نريد أن نكون جميلين في أعين المغتصبين

لا أكثر!

ينظرون إلى لحمنا بقليل الاحترام!

حتى نبكي اغتصابنا براحة البال!.

VIVIAN.ALSAEGH
2023

مجلة رابطة الكتاب السوريين
E-Mail:awraq@syrianwa.net

"قواعد النشر في مجلة أوراق"

ترحب مجلة أوراق بإسهامات المفكرين والكتاب والادباء والباحثين في الاتجاهات الثقافية الفكرية والسياسية إضافة للنقد والإبداع والترجمة، وتقتصر شروط النشر في المجلة على النقاط التالية:

- أن تكون المساهمات المرسلة غير منشورة سابقا.

- أن تخلو المادة من أي إساءة لأشخاص بعينهم، وألا تتعرض لقضايا شخصية، كتصفية حسابات أو تجريح خارج سياق الموضوع.

- أن تكون المواد المرسلة بصيغة ملف وورد منسّق، وتعتذر هيئة التحرير عن الملفات المرسلة كنص عبر الهاتف أو تنسيقات أخرى غير الوورد.

- نأمل من الزملاء في الدراسات الموثقة بمصادر ومراجع أن يلتزم المساهمون بذكر اسم المؤلف وعنوان الكتاب ومكان النشر وتاريخه واسم الناشر، وفي حالة الاحالة الى مجلات يذكر اسم كاتب المقالة وعنوانها ورقم العدد وتاريخه ورقم الصفحة.

- أن لا يزيد حجم الدراسة او البحث عن خمسة آلاف كلمة إلا باتفاق سابق مع ادارة تحرير المجلة، ويفضل ارفاق الدراسة بملخص صغير عنها لا يتجاوز ٥٠ كلمة.

- أن لا يزيد حجم مراجعات الكتب عن ١٥٠٠ كلمة ويدوّن في أسفل المراجعة عنوان الكتاب واسم مؤلّفه ومكان نشره وتاريخه وعدد الصفحات.

- يرفق مع كل دراسة أو مقالة أو نص تعريف بالكاتب وعمله الحالي.

- نرجو أيضا إرفاق صورة شخصية للكاتب/ة أو صورة أو أكثر تتعلق بموضوع المادة.

- لا تعاد المواد المعتذر عن نشرها إلى أصحابها.

- يجري إعلام الكاتب بقرار هيئة التحرير خلال شهر من تاريخ تسلم النص.

- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص المجازة للنشر وفق خطتها التحريرية.

- تلتزم المجلة بنشر كل المواضيع التي توافق عليها هيئة التحرير والتي تستوفي معايير النشر الموضوعية (بالنسبة للدراسات) أو الابداعية (بالنسبة للنصوص الادبية).

- تستلم المجلة النصوص مطبوعة على بريدها الالكتروني:

awraq@syrianwa.net

ونشكر تعاون جميع الزملاء والأصدقاء الكتاب والمثقفين وأعضاء الرابطة في هذا الصدد.

هيئة التحرير: ٣١/ ١٢/ ٢٠٢٣